

أَسَدُ حَيْدَر

مَعَ الْحَسَنِ فِي مَهْضَبِهِ





دار التقوى للطباعة

أَسَدُ حَيْدَر

مَعَ الْحَسَنِ فِي مَهْضَتِهِ



دَارُ التَّعَارُفِ لِلطُّبُوعَاتِ

سَّاحِلُ سُوْرِيَا - بِنَايَةُ دُرُوَيْش

بِكُرُوت

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة ١٣٩٩

دار المعارف للطبعوعات - شارع سوريا - بناية درويش ت ٢٤٧٢٨٠

المكتب والمستودع - شارع ابو علي رحال - حارة حريك ص.ب ٨٦٠١

بيروت - لبنان

الْأَهْدَاءُ

إِلَى بَعْضَةِ الرُّسُلِ الْأَعْظَمِ (ص)

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ

أَقْدَمَ كِتَابِي هَذَا

مَعَ الْحُسَيْنِ فِي نَهْضَتِهِ

اسد حيدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

صدق الله العلي العظيم

المقدمة

منذ زمن وفكرة وضع هذا الكتاب تخامرني ، ولكن لا بهذه الصورة المقتضبة ، والبيان الموجز .

إنَّها فكرة تدعو لوضع كتاب ، عن تاريخ حياة الحسين (ع) وثورته ، لمبحث شامل عن الأدوار التي مرَّ بها في حياته ، والأحداث التي واكبها منذ نعومة أظفاره ، من حين ولادته إلى يوم استشهاده ، فحياته مليئة بأحداث هامة ومواقف تمثل أروع مواقف البطولة ، وفوق ما يتصوره الإنسان في دراسة حياة الشخصيات الإسلامية .

كما أن ثورته التي هي امتداد لدعوة النبي محمد (ص) وهي أهم حلقة من تاريخ الإسلام تمثل أروع ما عرفه البشر من بطولات ، وأصدق ما أثبتته الحوادث من الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق .

وقد كان يودي ذلك ولكن وجدت نفسي لا أملك من الوقت ما أستطيع به تحصيل ما أريده فأقتصرت على مرافقته (ع) في مسيرة النهضة منذ

البداية ، واني لم استوعب في حديثي كلما يتعلق بالحادث، إذ تركت الكثير اختصاراً وأعرضت عن أمور كان الإعراض عنها أولى .

وهذه الصفحات التي سجلتها ليست دراسة تحليلية وإنما هي لمحات خاطفة .

وقد أجهدت نفسي أن أتناول الموضوع بمزيد من الجهد والامانة التاريخية، لاثبات أهم الوقائع من طرق متعددة، ومصادر مختلفة، أشبه ما تكون بالعرض الموجز لنهضة الحسين كما التزمت خطة التدقيق ، والتمحيص كشرط من شروط المسيرة لموكب الأحداث لأجل ما يحيط بجوانبها من غموض جهد الامكان ، وقدر المستطاع. وحاولت الابتعاد عن التعرض للحديث عن الفجائع المؤلمة والحوادث المروعة، التي عبرت عن أبشع أنواع الحقد، وجسدت مبلغ ما يصله الانسان من القسوة، كما أنها أوضحت جانباً من ردود الفعل الذي كان في نفوس اعداء الاسلام ، ولكن لم أستطع التخلي عن ذلك ، ووجدت نفسي ملزماً لأن أتعرض لبعض منها . لاعطاء صورة عما حدث مما جسدت وحشية أولئك القوم وجاهليتهم .

وان تلك الحوادث تملئ علينا دروس العبر ، وتكشف جوانب من العصبية القبلية، التي يتوارثها الأبناء عن الآباء ، فهي تتحكم في مشاعرهم وتفكيرهم .

ومن الواضح أن حادثة الطف هي مأساة الأمة وفاجعة الإسلام الكبرى والحديث عنها هو حديث الشجون ، والعبرات ، وإنها مدرسة العبر

والشواهد التي تظل دائماً بحاجة الى الوقوف عليها ، والاتعاض بها ، واستلهاها لتكون دليلاً لنا في مسيرتنا دوماً فهي عبرة الزمن ، ومدرسة الاجيال ، يستمد منها المسلمون دروس التضحية .

ولقد سرت مع البحث حسب ما يقتضيه الوقت فالتزمت الموضوعية في كل ما تعرضت له من أحداث وحاولت أن تبرز الثورة في إطارها التاريخي طبقاً لمواقعها من دون دخل للعواطف والميول .

وبرغم كل ما بذلته من جهد لا أجد نفسي مهيباً للدعاء بشيء جديد . كما أن هذا الحادث العظيم لم يزل بحاجة إلى بحث شامل ، ودراسة متواصلة من قبل حملة الأقلام ورجال الفكر ، فهي شديدة الروابط والصلة بحياة المسلمين ، وهي في كل حين مادة نستمد منها كلما يمكن أن يستمده المسلمون مما يساعد في توجيه الاجيال للخير ، وحضهم على الالتزام بسير الأبطال ، الذين استهانوا بالحياة ، اعتزازاً بدينهم وحرصاً على كرامة أمتهم .

وختاماً ، أملي يا ابا الشهداء ان تقبل مساهمتي المتواضعة في حل راية الثورة معكم ، ومسيرتي في طريق نهضتكم ، وأن أوفق فيما عرضته وتطهرت اليه في حديثي عن نهضتك ، وإن كان كل ما بذلته من جهد لا يفي حقها من البيان ، فسلام الله عليك وصلاته . وأشهد أنك كنت نوراً في الاصلاح الشاخصة ، والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسك من مدلهيات ثيابها وأشهد أنك من دعائم الدين واركان المسلمين .

أسد حيدر

أَحْسَنُ

فُحَاتٍ مِنْ حَيَاتِهِ

(حَسِينٌ مَعِي وَأَنَا مِنْ حَسِينٍ ، أَحَبُّ اللَّهِ مِنْ
أَحَبِّ حَسِينًا ، حَسِينٌ سَبَطَ مِنَ الْأَسْبَاطِ) .
الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

هو سبط رسول الله وريحاته ، أبوه علي بن أبي طالب ، بطل الاسلام ، وأمه فاطمة الزهراء بضعة الرسول محمد (ص) ، وهي أم النسل الطاهر والنرية الطيبة ، فكان له أشرف نسب ، وأطيب عقب .

ولد (ع) في الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة .

كنيته ابو عبدالله والقابه كثيرة أشهرها : سيد الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد لقبه النبي بذلك كما جاء في الحديث عنه (ص) : من عدة طرق :

« من سره ان ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي »

واشتهر عنه (ص) من عدة طرق قوله في الحسن والحسين : أنها سيدا شباب أهل الجنة ، كما لقب الحسين (ع) بالسبط وأنه سيد الأسباط . أخرج الترمذي في صحيحه ص ٣٠٧ بسنده عن النبي (ص) أنه قال :

حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط .

وفيه بسند عن حذيفة عن النبي (ص) : ان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وكان الحسين (ع) منذ ولادته يرعاه جده بمطفه وحنانه ، ويعلم الناس بحمله منه وحبه له ، ويظهر فضله للأمة ويكثر من وصاياه فيه وفي أخيه الحسن وبلغ من حبه له ولأخيه الحسن (ع) أنه كان يخطب على المنبر ، فأقيلاً يتعثران فتزل اليهما فاحتضنها وأخذها معه الى المنبر وقال : صدق الله العظيم إنما أولادكم فتنة ^(١) .

وكان يلفت الأنظار الى علو شأنه وجلالة قدره فيحمله ويضمه الى صدره ويخرج الى الناس ، فإذا جلس وضعه على فخذه ، وإذا مشى لحظه بعينه ، ويحدثنا شاهد عيان أنه رأى النبي (ص) كان يحمل الحسين ويقول افتح فاك ثم يقبله ثم يقول : اللهم أحبه فأني أحبه . وشاهد العيان هذا هو أبو هريرة فيقول : أبصرت عيني هذه وسمعت أذناي رسول الله... الحديث .

(١) أخرجه ابن كثير في ج ٨ ص ٣٣ وابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفات

وكان أبو هريرة يحبر بهذا الحديث وبغيره ، حتى وجد عليه الأمويون مع حبهم له ، فهذا مروان بن الحكم يقول لأبي هريرة عند مرضه حين جاء مروان لعيادته : يا أبا هريرة ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلا في حبك الحسن والحسين . فتحفز أبو هريرة فجلس وقال : أشهد لقد خرجنا مع رسول الله فسمع الحسن والحسين يبكيان فقال : ما شأني ابني ؟ فقالت فاطمة : العطش .. الى أن قال لمروان : كيف لا أحب هذين وقد رأيت من رسول الله ما رأيت ^(١) .

وقال أبو هريرة : ما رأيت الحسن والحسين إلا فاضت عينايا وذلك اني رأيت رسول الله يدخل فيه في فمه ثم يقول : اللهم اني أحبه فأحبه وأحب من يحبه . يقولها ثلاث مرات .

وقال ابن عباس : كان رسول الله (ص) يحمل الحسين ويقبل شفتيه وثناياه ^(٢) .

وكان الحسين خلال السنوات التي أدرك فيها جده ملازماً له في كل أوقاته في إرشاده ، وأداء فرائضه ، حتى في ساعات فراغه ، فقد نال رعايته وعطفه وجلّله بحنانه ، فهو موضع عطفه ولطفه ، وكان يقرع الأسماع وينبه الأذهان موقفاً بعد موقف بما يدل على عظمة الحسين واهتمام

(١) ابن عساكر ج ٤ ص ٢٠٨

(٢) التذكرة ٢٣٢

النبي به ، حتى اعتبره جزءاً لا يتجزأ منه ، فقال عليه السلام : حسين مني وأنا من حسين .

فهذا منتهى ما يوجب على المسلمين رعاية حق الحسين والاهتمام بأمره فهو من النبي لحمه ودمه ، والنبي منه في امتداد دعوته ، وبقاء رسالته في جهاده ونضاله .

وقد رافق الحسين موكب الدعوة الإسلامية، وعاش وسط ذلك المجتمع الذي وجهه الرسول الأعظم بإرشاده وهدايته ، وشاهد مواقف جده وخلص أصحابه في سبيل نصرته الاسلام ونشر مبادئه ، واستقبل أيام حياته الأولى وهو يحظى بتلك الرعاية من جده العظيم ، وتربية أبيه أمير المؤمنين ، وحنان أمه فاطمة الزهراء فكان الحسين موضع احترام الصحابة ، وحبهم له ، ويحدثنا التاريخ عن الخليفة عمر وهو على المنبر في المسجد يخطب ولعلمها أول خطبة يقوم بها أو أول مرة يراه الحسين فيها .

فمر الحسين به وناداه بكل جرأة وثبات وقوة فقال له : انزل عن منبر أبي واذهب الى منبر أبيك .

فأجابه عمر بكل هدوء: لم يكن لابي منبر، ثم أخذ بيد الحسين بلطف ولما ذهب الى بيته أخذه معه^(١) .

* * *

(١) الاصابة ج ١ ص ٣٣٣

لقد شهد الحسين وقائع الاسلام ، ووعى تعاليم جده وشهد عدة حوادث وله مع الخلفاء مواقف ، من يوم السقيفة وما رافقها من احداث ، وما خلفته من حوادث .

وعاش مع أبيه علي أمير المؤمنين يتلقى تعاليمه وينهج نهجه ، وحضر معه حروبه في الجمل وصفين ، والنهروان ، وفي تلك الفترة شاهد حكومة الإسلام العادلة ورأى تطبيق النظام السماوي ، في ظل ذلك الخليفة العادل ، والذي لم يكن لأحد فيه مطمع ولا لقاتل فيه مغمز « فعلي مع الحق والحق مع علي » يدور معه أينما دار ، فلا يمه تفرق الناس عنه ما دام محقاً .

وأقام بعد أبيه مع أخيه الحسن سبط رسول الله والمصلح الأعظم ، والصابر في جنب الله صبراً لا يتحمله سواه ، والمتحن في ذات الله ، وهو شقيق الحسين وهما رضيعا لبن الطهر فاطمة ، ترعرعا في أحضان الامامة ، ودرجا في ربوع الوحي ، ونشأ في ذلك البيت الطاهر الذي رفع الله قدره ، فأنزل فيه قرآناً يتلى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

فعاش معه باحترام فلا يخالف له رأياً ولا يقطع دونه أمراً ولا يتقدم عليه .

* * *

أتى رجل للحسن بن علي يسأله فقال الحسن :
ان المسألة لا تصح إلاّ في غرم فادح ، أو فقر
مُدقع ، أو حالة مفظعة .

فقال الرجل : ما جئت إلاّ في احداهن ،
فأمر له بمائة دينار ، ثم أتى الرجل الحسين بن علي
عليهما السلام فسأله ، فقال له مثل مقالة اخيه ،
فرد عليه كما رد على الحسن ، فقال : كم أعطاك ؟
قال : مائة دينار ، فنقصه ديناراً . كره أن
يساوي أخاه . ثم أتى الرجل عبدالله بن عمر
فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء ،
فقال الرجل له : إني أتيت الحسن والحسين ،
واقترضت كلامهما عليه وفعلها به ، فقال عبدالله :
ويحك ! وإني تجعلني مثلها ! إنها غرّ العلم غرّاً
المال (١) . أي زقا العلم زقا ، يقال : غر الطائر
فرخه إذا زقه ومنه قول معاوية : كان النبي يفرّج
عليه بالعلم غراً (٢) .

واختفت الأحداث وراء ستار الإهمال في عهد أبي بكر وعمر ، فقد
عاشرهما الحسين مدة من الزمن وشاهد وقائع تلك الفترة ، ولأن خفيت
حوادث عهد الحسين في أيام الشيخين ولم يظهر إلا القليل منها فلم تستطع
يد الضياع إخفاء ما كان يتمتع به الحسين في عهدهما من سموّ منزلة ،
وشمول رعاية وتقدير فائق ، واحترام وتبجيل منها ومن جميع الصعابة

(١) عيون الاخبار ابن قتيبة ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المصدر الهامش .

في عهدهما ، وقد حَمَلُوا الناس أحاديث عن صاحب الرسالة ، تدل على منزلة الحسين وأخيه الحسن و جاءت بها كتب الصحاح والسنن ولا مجال لذكرها هنا .

ولقد أكدت الروايات احترام أبي بكر للحسن والحسين بصورة خاصة .

وكان عمر يحترمه ويأذن له بالدخول قبل أن يأذن للعلية والمتقدمين من الأنصار والمهاجرين .

أما في عهد عثمان فقد اصطدم بتلك الحوادث وشهد ذلك العهد المليء بالمنازعات ، والمشاحنات ، والعصبية القبلية ، وقد ظهرت فيه الاثرة وحب المال ، بما لا عهد للمسلمين به من قبل ، وكانت بينه وبين مروان وغيره من دعاة الفتنة ، وأبطال إثارتها ، مشادة ومقابلة ، حتى حقد عليه مروان فوق ما كان يحقده على أهل هذا البيت ، ولا زال حاقداً عليه حتى قتل (ع) شهيداً ، وأظهر مروان الشهامة في قتله حتى أنكر عليه أخوه وقال :

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد وتهتزّ بشرأ والسبايا كرائم ولقد وقف عليه السلام لمعاوية بالمرصاد ، وحاسب ولاته أشد الحاسب ولم يستطع معاوية بدهائه وتصنعه في حلمه ومخاتلته في سياسته أن يجلب ودّ الحسين ويكسبه الى جنبه ، أو يهدء ثورة غضبه عليه .

ولقد رأى الحسين (ع) تحاذل الأنصار عن أبيه وخيانة من كان يدعي

الاخلاص له وكيف قامت الحرب بينه وبين عائشة في البصرة ، تلك الحرب التي أوقد نارها جماعة لهم أغراض خاصة ، كما رأى كيف لعبت يد التعمويه والدجل في عقول الناس وكيف عاثت الفتنة في المجتمع الاسلامي في بدايته وعهده الأول .

وكان هو (ع) أحدالقادة ، ومن باشر الحرب بنفسه يوم الجمل .

وحضر معركة صفين ، واشترك فيها وتولى قيادة بعض القطعات وأدرك كيف امتدت لجيش أبيه المتماك أيدي عابثة تثير غبار التشكيك ، وتوقد نار الفتنة ، باسم الإصلاح ، والمطالبة بالحق أو المحاكمة للقرآن فحدث ذلك الانقسام الشائن ، فكان تحكيم بغير ما أنزل الله وتكونت جبهة قوية انفصلت من جيش أبيه وكانت حرباً عليه حتى كان من نتائج انقسامهم في صفين أو بعد التحكيم تدمير مؤامرة أدت الى استشهاده الامام علي في محرابه .

* * *

ثم واصلت تلك الفئات بكسب عناصر هي بعيدة عن الاسلام لتعمل عملها الغادر ، فاحدثت رجة تخاذل في جيش الحسن (ع) فكان صلح وكانت معاهدة بين الحسن وبين معاوية .

وعاش الحسين (ع) مع تلك الأحداث وشهد آثارها في المجتمع ولم تنطو تلك الأحداث بشكل سريع أو تذهب آثارها عن سجل الاعتبار في الواقع وقضى مع العهد الأموي زمناً هو أعظم ما كان يلاقيه من محن

في حياته ولكنه كان قوي الجانب بصلابة إيمانه ، وثبات عزيمته ، فهو عزيز النفس بما وهبه الله من قوة وثبات ، فلم تفرض عليه الحوادث أن يتراجع الى الوراء قيد أنملة ، قرر خطه مسيرته ، واختار منذ اللحظة الأولى من خلافة معاوية منهج الذي يسير عليه تلك الأيام التي ظهرت فيها ملامح النقمة ، وبدأت في وجه السلطة لمحات الغدر ، وطلب الثار ، وقد انتصرت في ذلك العهد فئة اندحرت بالأمس فقامت بعمل يبعد كثيراً عن قيم الإنسانية وقد وقف ابو الشهداء أمام ذلك ، التيار كالطود الأثيم فلم تستطع تلك القوة أن تُلَيِّن جانبه أو تتمكن من إخضاعه لسلطانها ، حتى جاء الدور المرعب وحلول العهد الأسود بمضاعفات لا قبل له في السكوت عنها .

ذلك هو دور التفكير من معاوية في استمرار البقاء في السلطة ، وانحصارها في البيت المالك ، وليس من تحقيق لهذا إلا أن يأخذ معاوية البيعة ليزيد ، وأن يفرضه خليفة على المسلمين بالارهاب والقوة فكان هناك القول الفصل وهناك الصراحة بكل ما للصراحة من معنى ، وهناك الاعلان بخطأ هذه الفكرة فكانت مقابلة الحسين لتلك الفكرة بالتزييف هي مبدأ الحوادث وأول عوامل الثورة لأن تحقيق فكرة ولاية العهد ليزيد وإسناد الخلافة اليه معناه انتصار العناصر المعادية للإسلام ، وقاعدة للتجمع ضد دعوة محمد (ص) ، وجمع شتات تلك الفئات الشريرة التي فرقها الاسلام بدعوته ، فكانت ثورة الحسين هي القاعدة الأساسية لانطلاق دعوة الحق لرد هجمات الباطل ، وهي الحد الفاصل بين نجاح تلك

العناصر في مهمتها التي كانوا يعملون لتحقيقها منذ خلافة أبي بكر
إذ هي معركة التصفية ومقابلة الفناء والابادة لكل عوامل الخير ،
ونشر دعوة الاسلام .

لقد كانت تلك الفئات الحاقدة تقف وراء انتصار فكرة ولاية العهد
ليزيد وانها لمعركة يخوضها أولئك المعاندون ، لتحقيق الاهداف التي
يرومون تحقيقها والمعارضة لتلك الفكرة إنما هي خيبة أمل لأولئك ،
ورداً لما يرومونه ، فكان موقف الحسين (ع) وثباته هو العقبة التي تقف
في طريق تقدم أولئك . ولقد حاول القوم بأن يستلوا من الحسين اعترافاً
بولاية يزيد ، أو سكوته عن المعارضة فلم يحصل لهم ما أرادوا حتى
قاموا بذلك التجمع ، وأوقعوا تلك الأعمال التي لم تقع في التاريخ قسوة
وغلظة : من مضايقة في المنزل ، وملء الأجواء بالجيوش الجرارة ، وضرب
الحصار عليه من كل جانب وهم يحاولون أن يستسلم الحسين ، ويترك
منهجه الذي سار عليه ، وليس وراء استسلام الحسين ، واعترافه بحكومة
يزيد إلا الاعتراف بالفئات المناوئة للإسلام ، وتأييد مواقفها والمعاونة
معه على تحقيق أهدافهم ولكنه وقف موقف الثبات للدفاع عن الاسلام
رغم ما أظهره من حقد على مسرح مأساة كربلاء ، من احداث ما
حدث بها التاريخ ووقائع لم تمر على مرور الزمن ، إذ تجمعوا بصورة
تتجاوز حدود تصور موازنة القوى المتحاربة فكانت مأساة كبرى
ومعركة حامية ، لم تقتصر على المحاربين فقط ، بل كانت تمتد الى الاطفال
والنساء .

فهناك من لم يعرف الحرب وهناك الطفل الرضيع، وقد قتلوا وسط تلك المعركة التي تمثل اعنف صراع بين الإسلام وخصومه ، من الذين يتوقعون الانتصار على الحسين؛ باستسلامه ليزيد وبذلك يتم لهم تنفيذ مخططاتهم الإجرامية تحت ظل حكم لا يعترف بالقيم الأخلاقية ، ولا يلتزم بالعادات العربية ولا يخضع للنظم الإسلامية .

ولكن الحسين استهان بالحياة ، اعتزازاً بدينه ، وحرصاً على كرامة أمته ، فقابلهم بعزيمة وثبات ، واصرار على مواجهة الأخطار ، مهما كان نوعها ، ورغم مقابلة أعدائه له بوحشية لا توصف ولا تدخل في حساب الظلم ، وقاموس الاستبداد ، وقد وضع يده على الداء فشخص الدواء .

إنها التضحية ، وليس غير التضحية من طريق إلى نيل العز، وكسب المعركة على عمر الزمن ، والعمل بالحق ونصرة الاسلام .

رأى أن الموت هو الحياة الخالدة ، وأن الحياة مع الذل هي الموت الذي لا حياة معه ، وأن تراجعه قيد أثمة ، هو نصرٌ لأعداء الاسلام فرفع شعار الثورة (لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَالحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا) .

واتجه بكل شعوره الى خالقه ، يستنزل النصر ، ويطلب عنايته التي طالما رافقته في كل أدوار حياته ، فكلما اشتدت حراجه الموقف ، كشفها بقوة الإيمان وثبات العزيمة ، فكانت نهضته امتداداً لدعوة جده ، في نشر الاسلام وتجسيده لقوله صلى الله عليه وآله ..

(حسين منى ، وانا من حسين)

المدخل

نشبت الحرب وحمى وطيسها بين أهل العراق وأهل الشام ، ودامت زمناً لا يقل عن سنة ونصف السنة ، وكانت الحرب سجّالاً ، ظهرت فيها البطولات ، من الجانبين ، وأبلى العراقيون ، بلاء حسناً ، وكان جيشهم يضم عدداً كبيراً من الصحابة : بدرين وغيرهم وقد جسد مقتل عمار ابن ياسر موقف معاوية واتباعه ، بأنهم البغاة على امام الحق ، لما اشتهر عن النبي اذ قال لعمار : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية » :

ورجحت كفة العراقيين ، وكان النصر حليفهم ، في اكثر المواقع حتى مرت الحرب بأعنف ما شهدته الحروب من بسالة راقدام ، وتغلب جيش علي ، وكاد معاوية أن يخسر المعركة ، ويلوذ بالهزيمة لولا خديعة رفع المصاحف ، وطلب التحكيم الى القرآن .

* * *

إنها لخديعة مأكرة ، إستطاع بها ابن العاص أن يحدث الانقسام في صفوف العراقيين خداعاً وتضليلاً ، اذ انطلت هذه الخدعة على البسطاء ، فقبلها أولئك السذج وهم قلة ، فأحاطوا بالإمام علي (ع) وقابلوه بشدة يطلبون إيقاف القتال ، وارجاع الكتابب الزاحفة نحو مقر القيادة ،

وقد قاربت الاستيلاء عليه فكانوا يطلبون بالحاح عودة الجيش الذي زحف بقيادة مالك الأشتر .

وقابلهم الامام علي (ع) بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان بالامكان ردّهم بالقوة ولكنه (ع) كان أبعد نظراً ، وأعلم بالعواقب ، إذ يصبح الأمر معكوساً ، عندما يمّوه به معاوية على الناس بأن علياً يقتل من يطلب تطبيق أحكام القرآن ، وإن معاوية لا يتعدى ذلك ، وهناك تصاغ الأحاديث فيصبح « معاوية مع القرآن .. » طبقاً لمنطق الخداع، ونتائج التضليل ، وعواقب الجهل الوخيمة .

فوقع التحكيم على خلاف الحق . وأثر النفاق والخاتلة أثراً أدى الى أسوء العواقب فوقع الانقسام ، وانعزل الخوارج ، وكوّنوا جبهة ثالثة ، تشارك أهل الشام في بغض علي وأعدائه ، وتفارقهم بعداء معاوية .

ولم يحاربهم الامام علي (ع) إلاّ بعد أن ركبوا رؤوسهم ، واستعملوا العنف فأرسل اليهم عبدالله بن عباس لاطفاء نار الفتنة ، ولكنهم اصروا على موقفهم العدائي وأجمعوا على البيعة لواحد منهم اسمه : عبدالله بن وهب الراسبي ، وقد عرفوا بالحرورية نسبة الى حروراء : بلدة خرجوا إليها . وتجمعوا هناك لإحكام خططهم .

وساروا بنشاط وعنف وتطرفوا الى درجة استحلال دماء النساء والأطفال ومن أمثلة أعمالهم الارهابية انهم قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم .

* * *

ومما يدل على تعطشهم لدماء المسلمين والعفو عن غير المسلمين : أن واصل بن عطاء وقع في ايديهم مرة فادعى أنه غير مسلم وكانت وجهة نظره ان ذلك ادعاء للحفاظ على حياته ؛ مما لو عرف عنه أنه مسلم مخالف لهم وقد صح ما توقعه فقد كانت ادعاؤه الشرك « تقية » سبباً في نجاته منهم .

كما انهم قتلوا عبدالله بن خباب بصورة بشعة، وكان في عنقه المصحف ومعه امرأته ، وبعد حوار طويل جرى بينهم يفيض بالحكمة من جانب ابن خباب وبالغلظة من جانبهم ، فعمدوا إليه فقتلوه وبقروا بطن امرأته ، وهي حامل .

وكثر فسادهم في الأرض فخرج اليهم الامام علي (ع) وأوقع بهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفي هذه الموقعة قتل زعيمهم ابن وهب ، وكاد علي (ع) أن يقضي على الخوارج قضاء مبرماً ، ولكنهم ما لبثوا أن تربصوا به ، وتآمروا عليه . بالاشتراك مع معاوية بن أبي سفيان ، وشاء الله أن يضي علي شهيداً في ليلة القدر ، بمحراب مصلاه ، في مسجد الكوفة ، عند أداء فريضة الصبح ، فسلام الله عليه من امام عادل ، وشهيد مجاهد في سبيل الله .

* * *

تولى الإمام الحسن (ع) إمرة المؤمنين بعد أبيه ، وكانت البلاد مرجلاً تغلي من القلق والاضطراب ، والكوفة بصورة خاصة تعجّ

بالخلافات ، وتموج بالفتن والخصومات ، إذ الخوارج اتخذوا دعاية الفرقة سلاحاً للنقمة ، فهم موتورون يعملون بكل جهد لأخذ الثأر من شارك في النهروان ، ولما كانوا أقلية في ذلك المجتمع المزيج بالعناصر الغريبة عن الاسلام ، والتي امتزجت في مجتمعه فراراً من خطر العزلة التي لا تحقق لهم مآرب الفتك بالاسلام .

لقد كانت هناك جماعات نصرانية ، ومجوسية ، وزرادشتية ، ومانوية ويهودية ، وهم الذين اجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة الى الكوفة فكانوا العنصر القوي الذي لعب دوراً في حوادث الكوفة ، وتغيير اتجاهاتها وكان جهد الخوارج منصب على تفرقة الناس عن الامام الحسن ، وهذا الامر هو الذي يسعى اليه معاوية ، إذ كان يركز كل جهده على تفرقة أنصار الحسن وأتباعه ، فان تم له ذلك نجح في امتداد نفوذه على العراق ، لتصبح الكوفة تحت سلطانه ونفوذه ، وقد لمس جانب الضعف في بعض الجوانب .

* * *

وتقدم الحسن (ع) بذلك الجيش الذي كان في حياة الامام علي (ع) معداً لمواجهة معاوية بحرب طاحنة ، استعداد معاوية لمواجهة المروعة ، ولكنه استعمل الحرب النفسية ، واتخذ الخداع وسيلة ناجحة فأرسل من يتحدث في جيش العراق : أن قيس بن سعد قد صالح معاوية ، وكان قيس من أعظم المخلصين للحسن وأكبر القواد في المعركة .

ثم استعمل معاوية التخذيّل بالأموال ، فبذل لعبيد الله بن العباس مالا جزيلا ، فترك الحسن والتحق بمعاوية ، وكان من قواد جيش العراق ، المبرزين .

كما أرسل معاوية وفداً : يتكون من المغيرة بن شعبة ، وعبدالله بن عامر ، وابن أم الحكم ، فدخلوا على الحسن (ع) ثم خرجوا بعد مدة وأشاعوا بين الناس : بأن الحسن وافق على الصلح ، وكل ذلك لم يكن ، بل كان غالبية الجيش مصمماً على خوض المعركة ، وكاد الموقف أن يتفجر عن حرب طاحنة بين الفريقين . ولكن الامام الحسن (ع) كان على علم من تصدع وحدة جيشه ، لما داخله من دعايات المغرضين وما قام به معاوية من دعاية وتمويه .

* * *

وقد ادرك الامام الحسن خطر الموقف ، ولمس جانب الضعف المؤدي الى الخذلان ، فوقف على مفترق الطرق ، وهنا تبرز الحنكة السياسية ، والتجربة الصحيحة ، فعلم أن دخوله في الحرب مع تفكك القوى وتصدع الوحدة ، وانتشار البلبلة ، التي اوجدتها دعايات معاوية ، كل ذلك خسران للمعركة ، ونجاح لمعاوية .

ولا بد أن يبرز القائد بمثل هذه الظروف بدقة الملاحظة وشمول الهدف بمراعاة العواقب ، والحساب الصحيح لنتائج المعركة ، ورد خطر الحرب ، التي اصبحت على وشك الانفجار ، وليس وراء ذلك إلا تقمة

ما حقة ، من قبل فئات تتربص به الدوائر لتضرب الاسلام ضربة حقد
ياكل قلوبهم ، وعداء متاصل ، يدفعهم للنقمة فأراد الحسن (ع) أن يظهر
ما كان مختبئاً في النفوس ، فصعد المنبر وخطب الناس وقال :

(ألا وقد اصبحتم بين قبيلين ، قبيل

بصفين يبكون له ، وقبيل بالنهروات

يطلبون ثأره ، أمّا الباقي فخاذل ، وأما

الباقي فثائر ، وإن معاوية دعانا إلى أمر

ليس فيه عز ولا نصفه ، فإن أردتم الموت ،

رددنا عليه ، وحكناه الى الله).

وان أردتم الحياة قبلنا وأخذنا لكم الرضا . فصاح الناس :

البقية الباقية .

* * *

وكان معاوية هو الذي طلب الصلح من الحسن ، وأرسل له صحيفة

عليها بما يريد أن يشترطه الحسن لنفسه .

وكلما حاول الحسن (ع) مع خالص أصحابه انجاح المهمة ، وأبعاد

شبح الخذلان لم يتأت له ذلك ، فكان وقوع الصلح أو إيقاف القتال

نتيجة حتمية ، لرعاية المصلحة ، وكان هذا الاجراء نتيجة مداولات

استمرت مدة من الزمن ، وان لم يرق ذلك لبعض الزعماء ، فوجهوا اللوم

على الحسن في إيقاع الصلح وعرضوا له أن ينقض ذلك فأباه وأجابهم

بخلاف ما أرادوا^(١) .

(١) البلاذري انساب الاشراف خط .

وتجرع خلص أصحاب الحسن مرارة النكسة بقوة إيمان وعقيدة ثابتة ولكن فكرة الثورة تخامرهم بين آونة وأخرى، والظروف الحرجة والحوادث المؤلمة تدعو للإندفاع بفكرة الثورة مرة أخرى ، فإت القتال ودخول معاوية الى الكوفة كفاتح منتصر أوجد في قلوب العراقيين جذوة حماس واستعداد للثورة ، فقد انقلب ميزان المعركة،التي خاضها العراقيون لصالح أهل الشام .

وتقدم اليه البطل العربي المشهور حجر بن عدي قتيل مرج عذراء وكان أشد الناس تحمساً فقال له :

(خرجنا من العذاب ودخلنا في الجور ،
ومررنا الحق الذي كنا عليه ودخلنا في الباطل
الذي نذمه ، ورضينا بالحسياسة ، وطلب القوم
أمراً فرجعوا بما أحبوا مسرورين ، ورجعنا
بما كرهنا راغمين) .

فأجابه الإمام الحسن (ع) : (ليس كل الناس
على ما أحببت إلي قد بلوت الناس فلو كانوا
مثلك في نيتك وبصيرتك لأقدمت ^(١)) .

وبقيت النفوس مطوية على الحسرة والتأثر من استيلاء معاوية بعد وقف القتال فكانت الغالبية من أهل العراق يحاولون الخروج من هذا النطاق الضيق وكانت الكوفة تمثل أغلبية المعارضة ، وتتمثل فيها

(١) البلاذري أنساب الأشراف ١ - ٢٣٨ مخطوطة مصورة في مكتبة
الإمام امير المؤمنين تسلسل ٢٩٦٥ مخطوطات .

الروح الثورية أكثر من غيرها وأراد معاوية أن ينتقم من العراقيين فأرسل زياداً والياً على الكوفة ومهمته القضاء على المعارضة التي يتزعمها حجر بن عدي الطائي .

فكان أول اجراء اتخذه هو مطاردة الزعماء ، ومضايقتهم فوقفوا في وجه تعسفه وإستبداده ، وصدوا هجمات حقه ، ببطولة وبسالة فانفجر بركان أول ثورة بقيادة حجر بن عدي ، ولكنها أخذت بالقوة والمكر ، ولقي حجر بن عدي حتفه محكوماً عليه بالإعدام قتلاً بالسيف في مرج عذراء ، مع ستة من انصاره المخلصين ، من زعماء الكوفة وذلك في سنة ٥١ .

وقامت موجة سخط من الصحابة وأعيان الأمة على معاوية وفي طليعتهم الحسين (ع) بن علي إذ وجه إليه رسالة شديدة اللهجة .

(ومن الصدف الغريبة ان حجر بن عدي هو الذي فتح عذراء والمذراء هي الرملة التي لم توطأ ، والدرة المذراء هي التي لم تثقب ، وعذراء هي التي لم تثقب ، وعذراء قرية بغوطة دمشق واليها ينسب مرج فيقال مرج عذراء فتحها جيش المسلمين في حرب القادسية بقيادة حجر فكان جزاؤه أن يقتل فيها) .

* * *

وأمام موجة العنف المتصاعد ، وتحت ضغط سلطان الاستبداد الذي استعمله معاوية ، في انصار علي كان من الحتم الركون الى التكتّم واللجوء الى العمل في التخطيط للثورة تحفظاً على مبادئها ، وكانت تلك الفئات

ترى في شخصية الحسين (ع) بعد أخيه تحقيق آمالها المنشودة ، فشخصت إليه الأبصار واتجهت إليه الأنظار وعقد أول اجتماع في الكوفة حضره زعمائها ، وقرروا إرسال وفد للمدينة لمواجهة الحسن (ع) وطلبوا أن يعاود الكرة في حرب معاوية ، واعلان الثورة من جديد ، فإن امتنع الحسن فالى الحسين (ع) .

وخرج الوفد من الكوفة ولم يجد عند الامام الحسن جواباً لما يطلبون وجلبوا للحسين (ع) يطلبون منه أن يدفع بالامام الحسن الى المعركة من جديد .

فقال الحسين : قد كان صلح وكانت بيعة كنت لها كارهاً فانتظروا مادام هذا الرجل حياً ' يعني معاوية ' فان يملك نظرنا ونظرتم فانصرفوا عنه .

قال البلاذري : فلم يكن شيء أحب اليهم أي الشيعة من هلاك معاوية ^(١) .

* * *

فكان هذا الموقف من الحسين (ع) أولى لأنه يرى من غير اللائق نقض ما أبرم والخروج على الاتفاق ، ونقض العهد وبهذا فهو يمثل أسس آيات الالتزام بالمواثيق التي تبرم .

(١) أنساب الأشراف خط .

كما انه يكشف بذلك غدر الأمويين ، ونقضهم لكل بنود الصلح ،
وعدم التزامهم بكل عهد .

* * *

وعاد الوفد من المدينة ولم تنقطع الاتصالات بين أهل الكوفة وبين
الحسن (ع) عن طريق ارسال الوفود التي تمثل الاكثرية من وجهاء الكوفة
يفاتحونه في الأمر ويحثونه على النهضة، وعلان الثورة ضد معاوية، فكان
جوابه سلبياً ، فاستعانوا بأخيه محمد بن الحنفية فلم يتأثر بذلك ، لأنه لا
يريد مخالفة أخيه ، الحسن ، ولا يتعجل في أمر قبل لإحكامه .

فلما مات الامام الحسن (ع) قويت العزائم في توجيه الطلب من
الحسين (ع) في الاجابة لما يطلبون، فقد أصبح هو الامام بعد أخيه (ع)،
وعقدوا اجتماعاً قرروا الاتصال بالحسين فكتبوا له كتاباً مزجوا فيه
تعزيزته بوفاة أخيه واستنهاضه على عدوه وقالوا فيه :

ان الله قد جعل فيك أعظم الخلف من
مضى ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك ، المحزونة
بجزئك، المسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك^(١).

وكان بنو جعدة بن هبيرة قد حضروا الاجتماع، ولصلتهم بالحسين (ع)
من جهة الرحم ، أسرعوا بالكتابة اليه يخبرونه عن هذا الاجتماع، ورأي
أهل الكوفة فيه ، وحبهم لقدمه ، وتطلعهم اليه ، وأنهم قد وثقوا من

(١) أنساب الاشراف .

أنصاره ممن يرضون هديه ، ويُطمئن الى قوله ، فأفضوا اليهم ما هم عليه ،
من شأن آل أبي سفيان ، والبراءة منهم ، ويسألونه الكتابة اليهم برأيه .
فكتب اليهم (ع) : (انى لأرجو أن يكون
رأى أخى في المودعة ورأى في جهاد الظلمة ،
رشدأ وسدادأ ، فالصقوا في الأرض ، واخفوا
الشخص والتمسوا الهدى ما دام ابن هند حياً ،
فان يحدث به حدث وأنا حي بأنكم رأيي ان
شاء الله (١))

وبهذا يرسم الامام (ع) خطة الدعوة السريية ويؤكد ضرورة
التكتم ، فامتثل أولئك الرجال المتحمسون لاعلان الثورة ، وتحولوا الى
التكتم قدر الامكان ، وواصلوا إلحاحهم على الحسين في الاستجابة ،
وأخذوا يبعثون اليه الكتاب تلو الكتاب ، يعرضون عليه التأييد له
والبيعة ، ولكنه كان (ع) مصراً على رأيه في التريث والانتظار ، فكان
جوابه (ع) على آخر كتاب لهم مع محمد بن بشير الهمداني وسفين بن ليلى
الهمداني مع وفد من أهل الكوفة أن أوصاهم بقوله :

ليكن كل امرئ منكم حلياً من احلاس
بيته ما دام هذا الرجل حياً ، فان هلك وأنتم
أحياء رجوا أن يخير الله لنا ، ويأتنا رشدنا ،
ولا يكلنا الى انفسنا فان الله مع الذين اتقوا
والذين هم محسنون (٢) .

(١) المصدر السابق ، وتاريخ ابن عساکر ج ٥٥ مخطوط .

(٢) البلاذري ٢٣٧ مخطوط .

وقدم اليه المسيب بن نجبه على رأس وفد من الكوفة وهم يدعونه
لخلع معاوية وقالوا : قد علمنا رأيك ورأي أخيك .

فقال اني لارجو أن يعطيني الله اخي على نيتي ، وأن يعطيني على
نيتي في حبي جهاد الظالمين ^(١) .

وكان ورود وفود الكوفة بصورة علنية يبعث اعوان السلطة على
الحذر من وقوع أمر يخشونه فرفعوا الأمر الى معاوية يخبرونه : بأن
الحسين (ع) يعد العدة ، وينتظر الفرصة للوثبة عليه ، فبادر معاوية
فكتب للحسين (ع) كتاباً يقول فيه :

وقد أنبئت أن قوماً من أهل الكوفة ،
قد دعوك الى الشقاق ، وأهل العراق من قد
جربت قد أفسدوا على أبيك وأخيك فاتق
الله ، واذكر الميثاق فانك متى تكذني اكذلك ^(٢) .

والكتاب يعتبر تهديداً للحسين وتخويفاً له ، فعباراته المموهة بالدهاء
والخاتلة تعرب عن سوء نية بحزم وقوة ، ولكن ذلك أسطورة تنهار
أمام صمود الحسين (ع) وعزمه ، وثباته وإقدامه ، فكان رد الحسين بكل
صراحة معبراً عن واجبه الديني تجاه معاوية وسلطانه ، فقد جاء في
الرد قوله (ع) .

(١) الذهبي تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر .

أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عني
جدير وما أردت لك محاربة ، وما أظن لي
عند الله عذراً في ترك جهادك وما أعظم فتنة
من ولا يتك هذه الأمة (٣) .

* * *

وعاشت الكوفة بأشد مراحل المحنة ، وأعنف مواقف الإضطهاد
ولاقت أقسى أنواع الظلم ، لأنها ذات طاقات ثورية لا يؤمن انفجارها
بين حين وحين .

ولكن معاوية حصنها بجند قساة ، تحت إمرة زياد ، وهو أقسى
رجل عرفه قاموس رجال الظلم والاستبداد .

وأقام أبطال الكوفة وزعماء مصرها على وهج الانتظار يتحمسون
لاستجابة الحسين في قيادة الثورة .

وبينما كانت الأمة في محنتها تتجرع كأس الآلام إذ فاجأهم نبأ
اعلان ولاية العهد ليزيد بن معاوية ، وأخذها بالقسوة والقهر من دون
الرجوع الى استشارة رجال الأمة .

فأثار النبأ ردود فعل عنيفة ؛ لما عرف عن يزيد من تردٍ في الخلق
وانحطاط في السلوك ، وخروج على الدين ، وهتك للقيم ، ولكنها أمنية
معاوية وهو أول من يقر نظام ولاية العهد لحصر السلطة في
البيت الأموي .

(٣) المصدر السابق

ولاية العهد

أقرار نظام ولاية العهد من محدثات عهد معاوية فقد فكر زماناً بأن يفرض هذا النظام ويصبح يزيد بحكم ذلك النظام خليفة المسلمين بالوراثة رغم نظم الاسلام وارادة الأمة . فلا شيء أعظم على المسلمين من أن يتولّى إمرتها شاب عرف بالنزق ، والعزوف عن جميع القيم ولا ربط له بتعاليم الإسلام ، وهذا أمر يصعب تحمله وليس من الممكن الرضوخ له ، وتقبله بسهولة .

ولم يكن معاوية بذلك الرجل الذي يجهل الصعوبات التي تعترض فكرته ؛ فالجتماع الاسلامي حديث عهد بالخلافة الراشدة إذ هي تجسيد للعدل الاسلامي ، ومثال لتكامل شخصية الحاكم الذي يرفع الأمة بوعي وسداد ،

ومعاوية أدري بنفسه وأعرف الناس بولده يزيد ، فلا ينسى معاوية الأسباب التي أوصلته للحكم ، فهي بعيدة كل البعد عن شروط الخلافة وتولي هذا المنصب .

أما يزيد فهو أدري به من كل أحد ، ولكنه الحب والطمع في تخليد الملك واعادة الزعامة الأموية . في المهود الجاهلية .

ويزيد لا تخفى حاله على سائر الناس، فلقد عرفه المجتمع بوفور اللعب

واللهو والقنص ، والنساء ، وكلاب الصيد ، إذ كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ^(١) .

ومن الخروج عن الواقع ، أو التجني على الحقائق ، وصف يزيد بما يؤهله للخلافة وتحسين الأمر لمعاوية وما ذلك الا من يواث الحقدي على الاسلام فيزيد قد عرفه الناس بأنه فاجرٌ مستهتر لا يتصل إلا ببطانة السوء ، من خمارين وعازفين ، وقد عرف بشرب الخمر ^(٢) مع تهاونه بالدين وكان يسكر ويترك الصلاة ^(٣) ويتصيد بالفهود ، ويلعب بالزند ، ويدمن الخمر ومن شعره فيها :

أقول لصحب ضمت الخمر شملهم وداعي حسابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وان طال المدى يتصرم ^(٤)

كما وصفه التاريخ وصوره بأنه لا يتصف بصفات المسلمين ولا يعرف إلا التمرد والخروج على القيم كما احتفظ التاريخ وسجل أعماله التي هي صحائف سوداء من معاقرة الخمر ومنادمة الفتيات ، وأكثر ما يرد ذكره على ألسن المغنين في أندية الهوى ويغني بشعره على نغمات العود ، وله النصيب الوافر من الأشعار التي سجلها التاريخ ورددتها المغنيات في مجالس الشرب ، وكان هو يرددها في مجالس لهو وساعات

(١) العلائلي الامام الحسين .

(٢) أخبار الدول للقرماني ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٤ .

(٤) الديميري حياة الحيوان ج ٢ ص ١٥٧ مادة الفهد .

طربه ، كما غلب على أصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب^(١) كل هذا كان يقع على علم من معاوية ، واطلاع من خاصته وأنصاره إذاً كيف يجرأ معاوية على اقتحام عقبة المعاوضة لفكرته في أخذ البيعة لرجل هذا بعض عمله ، ولا يستغرب من يزيد تهاونه بالدين وعدم مبالاته بالموأخذه فإنه نشأ نشأة مسيحية ، تبعه كثيراً عن عرف الاسلام وذلك لأنه يرجع بالأمومة الى بني كلب ، ومن بديهيات علم الاجتماع ، ان انسلاخ شعب عن عقائده يستدعي زمناً طويلاً ، على أن طائفة من المؤرخين ترجح أن من أساتذته بعض نساطرة الشام ، من مشاركة النصارى وإذا صح هذا نعتز على سبب خطير يساعده على أن يظهر بهيئة الساخر من الأوضاع ، التي ألزم المجتمع بها نفسه كما أن القبلية عملت فيه عملها ، فخرج جافياً ذا عصبية قاسية^(٢) .

وعلى أي حال فإن معاوية لا يجهل حالة يزيد كما انه على علم بالمجتمع الإسلامي وطبيعته في عدم تقبل البيعة وردّها ، وهو على علم من وجود كتل سياسية تتطلع لكسب المعركة ، والاستيلاء على الحكم بعده عندما يعود الأمر شورى بين المسلمين في اختيار الأصح للأمة .

فابن الزبير كوّن حزباً سياسياً ، وهو يترصد للوثبة والأمويون أنفسهم وهم الحزب الحاكم قد رشحوا منهم من يتولّى الخلافة بعده ،

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٧٤ بولاق .

(٢) العناني : سمو المعنى في سمو المذاق الحلقة الأولى .

وكان مروان بن الحكم يطمع في ولاية العهد؛ لأنه كبير البيت الأموي^(١) بعد معاوية وهو أبو عشيرة ، وجد عشيرة – وأهم من ذلك أن الأكثرية الساحقة من العراق والحجاز وبعض الأقطار العربية كان اتجاههم مع الحسين (ع) وكانوا يختلفون اليه ، ويدعونه للبيعة ، ويقولون إننا لك عضد^(٢) .

ولم يكن يزيد في الحسبان او يدخل في قائمة المرشحين أبداً لبعده عن كل المؤهلات فسقط من قائمة الحساب .

ومعاوية لم يكن ، بالرجل الذي يحفل مكانة أهل البيت من نفوس الأمة .

وقد وصلته أنباء استياء العراقيين بعد وقوع الصلح ، وأنهم قد اتصلوا بالحسن ، لإعادة الكرة الى الحرب ؛ لحو آثار النكسة التي كانت من صالح أهل الشام وخسران أهل العراق . وكان دائماً على استعداد للوثبة وإعادة الحرب فواصلوا اتصالهم بالحسين وهم يلحون عليه كما أشرنا له من قبل ، وهذه الأمور كان معاوية على علم منها واتصال دائم باجهزة إعلامه ، وهو يقدر تلك الظروف ، فكان بين إقدام وإحجام حتى قوي عزمه باناس لا يهمهم أمر الأمة ، كاهتمامهم بمصلحة أنفسهم ، كالمغيرة بن شعبة ، وزيايد بن أبيه ، وأحزابهم وقد تقدم اليه المغيرة بن

(١) المقدمي البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

(٢) انساب الاشراف خطي ص ٢٤٢ .

شعبة يحثه ويفريه بولاية العهد لولده يزيد ، وهو بذلك يطلب رضا معاوية فقد حصلت بينهما جفوة خشية المغيرة سوء عاقبتها ، فوجد الطريق لعودة الأمور الى حالها في اغراء معاوية لأخذ البيعة ليزيد ، ويتعهد المغيرة بأخذ البيعة من أهل الكوفة ، وان زياد بن أبيه قادر على أخذ البيعة من أهل البصرة ، وإذا بايعه أهل العراق لم يختلف عليه أهل الحجاز ، وأما أهل الشام فهم حملة الدعوة وأنصار الدولة .

* * *

ونشط معاوية في أخذ البيعة ، عندما وجد أعوانا يناصرونه فالمغيرة بن شعبة داهية من دهاة العرب وزياد معروف ببطشه ونفوذه وأهل الشام أعوانه وأنصاره واجتمع لا يخلو من اناس يتخذون الدين وسيلة لما ربهم ، ومع هذا فلم يتسرع معاوية بل أختار التريث لدرس الفكرة ، وعرضها على المخلصين من أعوانه ، واعاد المغيرة الى ولاية الكوفة بعد ان فكر في عزله ، والاستعاضة عنه بغيره ، ولكنه جلب وده فاستعاد منزلته وثبت في ولايته عند عرضه لفكرة البيعة .

ومات المغيرة وضم معاوية الكوفة الى زياد مع البصرة ، فاصبح زياد والي العراق ، وملحقاتها ولم يسرع زياد في الاستجابة لفكرة ولاية العهد بل أشار على معاوية بالتريث .

بعد مدة وبعمل متواصل استطاع معاوية أن يعلن للرأي العام فكرته ليرى مدى تأثر الناس بذلك .

فاعلن فكرته هناك بمجتمع من المؤيدين والمعارضين ، وهو يعلم أن الشام لا تتأخر عن البيعة ، وإن كان هناك بعض من لا يستجيب فالسيف يسوقه للالتحاق بركب الأموات بسرعة ، كما أعرب الخطيب الذي يمثل معاوية بقوله :

أمير المؤمنين هذا وأشار لمعاوية

وولي عهده هذا وأشار ليزيد

ومن أبي فهذا وأشار للسيف

وبهذا المنطق افتتح دور اقرار نظام الوراثة للسلطة بولاية العهد الذي لا عهد للاسلام به .

وليس المهم اعتراف أهل الشام فانهم يستجيبون لكل ما يأمرهم معاوية ، وقد حمل التاريخ قول بعضهم معبراً عن الاكثرية الساحقة .

فإن تاتوا برملة أو بهند نسميها أميرة مؤمنينا

إنما المهم في نظر الواقع وهو موضع اهتمام معاوية هو اعتراف أهل المدينة بولاية العهد ، ومن بعدها الكوفة ، فالمدينة هي مصدر التشريع الاسلامي ومهبط وحي السماء ، وفيها أصحاب النبي ، وهم أهل الحل والعقد ، وابناء المهاجرين والانصار .

نعم أن المدينة في غاية من الأهمية فإذا استطاع معاوية أن يذل الصعاب التي تعترضه هناك فلا شيء يهيمه إلا الكوفة الثائرة والقاعدة

العسكرية الهامة وهم الذين لا يقرون على ضم ولا يخضعون للولاة ،
وللشيعة فيها شوكة وقوة وهو على علم بالتحركات ضده ، وباتصالهم مع
الحسين على الثورة ضد معاوية بامر مكشوف متواصل منذ وقوع
الصلح ومدة حياة الحسن وبعد وفاته وهذا أكبر شياغل يقف أمامه ،
فاراد معاوية أن يسبر غور مجتمع المدينة ، فأرسل زياد بن أبيه وهو
الظالم المتعسف الى المدينة وعند وصوله خطب الناس :

وقال : يا معشر أهل المدينة إن
أمير المؤمنين حسن نظره لكم وإنه جعل لكم
مفزعا تفزهون اليه ، يزيد ابنه ^(١) .

وهذا يعتبر أمراً صارماً وتحدياً صريحاً لمقام
الخليفة ، فيزيد معلوم أمره مشهورة سيرته .

فأثارت هذه الكلمة موجة سخط واشتمزاز ، وتداول في الآراء ،
وكيف يكون تدارك هذا الخطر ، وظهر لمعاوية مقدار ما تحمله هذه
الفكرة من القبول والرد ، فحاول أن يلبس فكرته صبغة الشورى أو
الانتخاب الشعبي ، فبذل جهده في تذليل الصعاب بكل ما لديه من
الوسائل ، حتى طريق القوة والإرهاب والخديعة ، والتحايل ، وأجرى
الاختبار مرة ثانية على يد مروان فأمره أن يقوم بهذه المهمة ، وأن يؤمّه
على الناس بأن البلدان استجابت لولاية العهد ، وبايعوا يزيد ، وهو
يريد أن يبايعوا له أسوة بغيرهم وكان مروان يطمع بولاية العهد فغضب
مروان إذ لم يجعل اليه الأمر ، لأنه كبير هذا البيت بعد معاوية ، وهو

(١) الذهبي تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٥٧ .

مرشح البيت الأموي لكبر سنه ، فكان يعد العهد ليزيد تحدياً لمقامه واستهانة به ، فغضب مروان من ذلك ، وتعجل في المفاوضة فسار الى الشام وكلم معاوية فترضاه بأن جعله ولياً عهد ليزيد وردّه الى المدينة^(١) فأرسل مروان الى وجوه أهل المدينة فجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وتكلم بما أراد من وصفه معاوية في العدل والحفاظة على مصالح الأمة وأنه قد كبر سنه ، وقد أراه الله رأياً حسناً وقد أراد أن يختار لكم ولي عهد يجمع الله به الالفة ، ويحقن به الدماء ، وأراد أن يكون فلك عن مشورة فيكم وتراض فما تقولون ؟

وهذا الكلام يبعث في النفوس أملاً قوياً في إجراء الشورى ورجوع الاختيار للأمة ، وبالطبع إنها لا تختار إلا من له أهلية الخلافة ، وهو المتحلّي بصفات الإمامة ، وانمحت من خواطرهم فكرة بيعه يزيد ، وزال التخوف من ولاية عهده ، فإن زياد بن أبيه قد كدر صفو عيشهم من قبل إذ أعلن بيعه يزيد في ولاية العهد .

وانتظر الناس الإفصاح عن تلك الشخصية التي أرادها معاوية للأمة جمعاً لشمليها وحفظاً لمصالحها ويكون تعيينه برضا الأمة واختيارها .

فقال مروان : فإنه قد اختار لكم الرضا الذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهتدين وهو ابنه يزيد^(٢) .

(١) المقدمي : البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

(٢) أنساب الأشراف والحوارزمي ج ١ ص ١٧٢ .

وهنا تظهر على ذلك الجمع موجة التأثير العظيم لهذه المهزلة وهذا التحدي لمجتمع عاش تحت ظلال الدعوة الصالحة ، وعاش الخلافة الراشدة ، فروان هنا يقدم مهزلة استول صقل جوهرها الإسلام ، فأصبح مروان يهزأ بذلك المجتمع ويحتقر القيم الخلقية وقامت ضجة إنكار ، وتكلم وجوه أهل المدينة في رد هذه الفكرة ، وطال الحوار وكان عبد الرحمن بن أبي بكر حاضراً فقال :

كذبت وكذب من أمرك بهذا والله ما
يزيد بمختار ولا رضى ، ولكن تريدون أن
تجعلوها هرقلية ، ويزيد هو يزيد القروى
ويزيد الفهود ويزيد الخنوز (١) .

وتفرق الجمع وهو ساخط على معاوية ، والناس تتحدث عن هذه المهزلة التي مني بها الفكر الإسلامي ، وأصبحت في المدينة موجة إنكار وأحاديث استغراب .

تدارك الوضع

ووصلت أنباء المدينة لمعاوية وهو يتطلع الى النتائج بفارغ الصبر ، وبلغه استياء الناس ومعارضتهم لفكرته ، وحاول أن يتدارك خطر هذه المعارضة ، فقدم المدينة واستقبله الناس ، فأغلظ للمنكرين على مروان ، ولقيهم بغلظة وقساوة ، واشتد معهم في التأييب . وهو يحاول

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٧٢ .

أن يبيء جواً ملائماً لقبول فكرته التي صمم على تنفيذها رغم المعارضة القوية .

وكان أكبر همه معارضة الهاشمين ، وكان زعيم المعارضة هو الحسين ابن علي (ع) وهو سبط رسول الله والناس لقوله أسمع وله أطوع .

وبدون شك ان معاوية يقتنع من الحسين بالسكوت ، أو البيعة الصورية ليتم له ما يريد ، فأجهد نفسه في إقناع الحسين على البيعة الصورية ، ولكنه (ع) أعلنها غضبة وثورة ، وقال كلمته في يزيد أمام جماهير المسلمين في المدينة ، توهيناً لرأي معاوية وتكذيباً لما يقول ، وذلك عندما قام معاوية خطيباً أمام ذلك الجمع يمدح يزيد ويصفه بما يقربه الى القلوب ، ويحببه الى الناس ، فكان رد الحسين عليه السلام بقوله :

كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً
أو تخبر عما كان مما احتوته بعلم خاص
وقد دل يزيد على موقع رأيه ، فخذ من
يزيد مما أخذ به من استفزاز الكلاب الهارشة
عند التهاوش ، والهام السبق لأترابهن ،
والقيينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده
ناصرأ ودع ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله
بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله
ما برحت تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم
حق ملأت الأسقية .

واستمر الحسين (ع) في تأنيب معاوية وتعداد جرائمه وفضح

أعماله ، ولما انتهى (ع) من خطابه ، نظر معاوية الى ابن عباس فقال :
ما هذا يا ابن عباس ؟ ولما عندك أدهى وأمر .

فقال ابن عباس : لعمر الله انها لذرية الرسول وأحد أصحاب
الكساء ، من البيت المطهر ، فانه عما تريد فإن لك في الناس مقنعا^(١) .

ورغم هذا كله فقد تحدى النواميس وسحق مقدرات الأمة وتنكر
لمؤهلات الخلافة واستهان بمكانتها في المجتمع الإسلامي ، وكل ذلك ينبعث
عن نفسية لا تؤمن إلا بالقبلية ، ولا ترى إلا طريق الوراثة من غير
رشد ، وقد صرح معاوية مراراً بقوله : « لولا يزيد لرأيت رشدي »^(٢) .

وحيث لم يظفر معاوية بما يريد فقرر أن يأخذ أغلب الشخصيات
المعارضة للبيعة معه الى مكة ، ويستعمل هناك حيلة في إظهار نجاح
البيعة امام مجتمع الحجيج ، فدخل مكة^(٣) وبذل الاموال ، وأكثر
الهدايا للأشراف ، ثم جمع الناس في المسجد ، وأمر صاحب حرسه أن
يقيم على رأس كل رجل من الأشراف رجلاً بالسيف ،

وقال : إن ذهب واحد منهم يراجعني في
كلامي فاضربوا عنقه . ثم صعد المنبر وخطب
ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين
وخيارهم ولا يقضى أمر من غير مشورتهم وقد
بايعوا يزيد فبايعوا باسم الله .

(١) المسعودي ج ٢ ص ٧٤ بولاق .

(٢) علي جلال الحسيني ص ١٧٥-١٧٦ نقلًا عن ابن قتيبة .

(٣) المقدسي البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

أما الأشراف فلم يمكنهم تكذيبه ومراجعته ، وأما سائر الناس فلا جراحة لهم على الكلام ، ولا علم لهم بشيء مما يقول ، فأخذت البيعة ليزيد بتلك الصورة التي دبرها معاوية خديعة ، ومدّ الناس بالأموال لشراء الضمائر ، وقصدته الوفود لنيل رفده ، وأغلبهم يؤكد البيعة ليزيد ،

وقدم عليه أبو منازل وجماعة من العرب ، فأعطاه أقل مما أعطاهم ، وكانت مكانته تملو مكانتهم ، فقال منازل : فضحتني في تميم يا معاوية أما حسي بصحيح ؟ أولست ذا سن ؟

أولست مطاعاً في عشيرتي ؟
فقال له معاوية بلى .

قال : فما بالك بخست بي دون القوم ؟

فقال : إني اشتريت من القوم دينهم .
ووكلتك إلى دينك في عثمان وكان عثمانياً .

قال : وأما أنا فاشتري ديني ، فأمر له بتمام جائزة القوم (١) .

وهذا هو أقوى العوامل التي ساعدته على تحقيق فكرته ، وعمل المستحيل في سياسته ، إذ أصبح يزيد ولي أمر الأمة ، وورث عرش الخلافة الراشدة ، ومن دون رضا المسلمين ، ولا أخذ برأي أهل الرأي منهم .

* * *

(١) الطبري .

في عهد يزيد :

أفاق يزيد من سكرته ، واذا بالبشير يزف التهاني اليه
بأمر المؤمنين فقد مات أبوه ، ووطد له الملك ، وذل له الرقاب ،
فهو خليفته على الأمة ، ووارث عرش المملكة ، التي اجهد معاوية في
أقامتها ، وجعل يزيد من بعده تحقيقاً لرغبته ، وبلوغاً لآمنيته .

لقد مات معاوية^(١) وانتقل الأمر الى يزيد ، فأصبح يحمل
وسام إمرة المؤمنين وقد عاش مع بطانة سوء ، يلهون ويشربون
ويعربدون ، وعرف بالمجون والصيد ، ومنادمة النساء ، واللعب
بالفهود والقروود ، وما اسوء حظ أمة يسوس أمرها رجل هذا عمله ،
وما أضيع الحق في عهده ، وما أعظم محنة المسلمين في أيامه .

مات معاوية وقام يزيد من بعده ، ولم تبرح عن مخيلته جهود أبيه التي
بذلها في تحقيق رغبته ، بأن يصبح خليفته من بعده بمختلف الأساليب
التي انتهجها ، ووضع أمام عينيه ما أشار أبوه اليه ، وأكد عليه في
الحذر من المعارضة وأمره بالمسارعة في القضاء على رجالها كما جاء في وصيته له .
تقلد يزيد زمام الحكم ، وواجهه لأول مرة ، إذ لا سابقة له فيه
وهو يختلف عما اعتاده في حياته من لهو وعبث ومجون ، فلا بد أن يشعر
بثقل المسؤولية ولا قدرة له على تغيير خطته فلا بد أن يتخذ بطانة سوء
تدير كفة الحكم ، ويشاورهم في الأمر .

(١) كانت وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هـ .

وقد كان يزيد يتزايد في تقريب المسيحيين ويستكثر منهم في بطانته الخاصة ، كما أنه يقمع بينهم على من يمتزج به وينسجم معه ولقد أطمأن اليهم .

ان تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة ، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة ، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً، مستهتراً مستخفياً بما عليه الجماعة الاسلامية ، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي يستغرب ان يكون على غير ذلك^(١) .

كما ذهب اليه بعض من انحرف عن الواقع فراح يبرر موقف يزيد وأنه تنصل من قتل الحسين ، خلافاً لما أجمع عليه المؤرخون : (من أن يزيد أمر ابن زياد بقتل الحسين) وأما تنصله من ذلك فانه وقف أمام غضبة المجتمع على عظيم ما جنت يده .

ولقد سر يزيد بقتل الحسين ووصل ابن زياد ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم فندم^(٢) . وسرى في سيرتنا هذه حقيقة الأمر وواقع الحال .

(١) الملانلي ٥٩ .

(٢) راجع ابن جرير وابن الأثير وابن واضح ، وغيرهم .

بداية المعركة

فوجيء المسلمون نبأ خلافة يزيد بعد وفاة معاوية ، وهنا تقع على عواتقهم المسؤولية الكبرى أمام هذا الحدث العظيم ، وأسرع المعارضون لمواجهة الحسين ، فقد آن الأوان لتحمل مسؤولية تنفيذ ما خطط من قبل للقيام بثورة ضد تلك الأوضاع . التي واجهتها الأمة في حياة معاوية ، وقابلوها بالصبر والتحمل وهم ينتظرون عسى ان يتغير الوضع بعده الى ما هو أحسن، ولكن اسناد الحكم ليزيد أمر لا يمكن تحمله. ولم يكن الحسين (ع) بحاجة الى من يثير غريمته ، فان الواجب يحتم عليه القيام بالمسؤولية مهما كلفه الأمر في الجهاد لحماية الدين ، ولا طريق للسكوت فانه يعرض الأمة الاسلامية الى خطر لا يمكن تداركه ، عندما تنشط العناصر المتدخلة تحت ظل الحكم القائم . والذين كونوا من أنفسهم كتائب لنصرة السلطة والقضاء على المعارضة ، لأن حساب تلك العناصر ان الانتصار لمبادئهم قد اقترب وانهم لا بد أن ينتقموا من المسلمين ، والحسين هو الشخصية المسؤولة عن حماية الإسلام من تحكّم المتدخلين ، وان المهمة الملقة على عاتقه مهمة ضخمة ، هي انقاذ الأمة ، وقد سبق للمعارضين اقتناعهم مدة خلافة معاوية ، وقد آن الأوان لوفاء الحسين بوعد ، إذ حل الموعد وأصبح الحكم بيد يزيد ، وسكوت الحسين عن القيام بمجهاده معناه إقرار لخلافة يزيد ، وفتياً بإباحة ما يرتكبه من المنكرات في حكمه ، وقد أعلن الحسين (ع) معارضته لولاية العهد ، وقابل معاوية بالشدة من قبل .

كان اهتمام يزيد بأمر الحسين أكبر شاغل، وأعظم عقبة كثود تقف أمامه ، فاتخذ الطرق التي يسلكها في مقابلة خصمه ، وأول شيء فعله أن سلك طريق إثارة الضغائن القبليّة ، والقوة والتهديد ، فظهر عما ينويه في منهاج حكومته الجديدة بقوله مخاطباً أهل الشام :

نحن أهل الحق وأنصار الدين ، فابشروا يا أهل الشام ، فإن الخير لم يزل فيكم وسيكون بينكم وبين أهل العراق ملحمة ، فلاني رأيت في منامي قبل ثلاث ليالي : كأن بيني وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم ، فجعلت أجهد أن أجوز ذلك فلم أقدر حتى جائي عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه .

فأجاب أهل الشام بقولهم :

امض بنا يا أمير المؤمنين حيث شئت فنحن بين يديك وسيوفنا هي التي عرفها أهل العراق يوم صفين .

فقال لهم : لعمري أنتم كذلك ^(١) .

وهذا يدل على أمر مبيت وتخطيط للمعركة مسبق ، وقد أظهره يزيد تحت ستار من الكذب يثير المشاعر ، ويلهب الأحاسيس القبليّة والنزاعات الاقليمية فيستعد للطوارئ التي ستأتي ومواجهة الخطر المائل هناك ، فان أمامه أعظم مشكلة تهدد دولته بالزوال . ففتح بيوت

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٧٩ والفتوح لأحمد بن اعثم الكوفي المتوفى سنة

٣١٤ هـ ص ٢٩٢٧ ج ٦/٥ .

الأموال ووزعها على أهل الشام ، والتف حوله أعوانه وكتب الى جميع البلاد بأخذ البيعة له ، وكان على المدينة مروان فعزله ، وولى مكانه الوليد ، وأول ما فكر به عند ولايته هو ارغام المعارضين لفكرة أبيه من قبل على البيعة له اليوم طوعاً أو كرهاً ، فكتب لعامله الوليد ابن عتبة على المدينة المنورة :

من عبدالله يزيد أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة . أما بعد : فإن معاوية كان عبداً من عبيد الله أكرمه واستخلفه وكان عهد إليّ وأوصاني أن احذر آل ابي تراب وجراتهم على سفك الدماء ، وقد علمت يا وليد إن الله منتقم للمظلوم عثمان من آل ابي تراب بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق ، وطلاب العدل ، فاذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة لي على أهل المدينة ، ثم كتب صحيفة صغيرة . أما بعد فخذ الحسين وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً عنيفاً ، ليس فيها رخصة فمن أبى عليك فاضرب عنقه والسلام (١) .

كانت هذه المبادرة من يزيد في أخذ البيعة من المعارضين بالقوة باكورة حكمه ومنهاج حكومته الجديدة . والمقصود هو الحسين (ع) أما ابن عمر فاخذ البيعة منه تأييداً فهو أسرع الناس لذلك وابن الزبير معلوم بنشاطه المحدود .

(١) ابن واضح تاريخ البيهقي ج ٢ ص ٢١٥ والفتوح لابن أعمش ١٠/٥

وورد الكتاب على أمير المدينة الذي عرف بالهدوء والسياسة ولا يمكنه مخالفة ، الأمر والتهاون في القضية ، فإذا يصنع لو امتنع الحسين ؟ وهو أمر محتم ، تقرره الوقائع السابقة ، فكيف المخرج من هذا المأزق ! !
وقد جاء عنه انه قال : انا لله وانا اليه راجعون ، يا ويح الوليد بن عتبة في هذه الامارة ما لي وللحسين بن فاطمة ^(١) .
فماذا يصنع ؟

أيستعمل الشدة طبقاً للأوامر الصادرة من يزيد وتزولاً لرغبة الكتلة الأموية التي واصلت إلحاحها بأن يسرع الوليد بالأمر بقوة وحزم ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، فقد كان يحثه على قتل الحسين (ع) وقال للوليد : والله لو كنت في موضعك لم أراجع الحسين في كلمة واحدة حتى أضرب رقبتك ^(٢) .

أم انه يترك الأمر لعوامل الإدارة والسياسة فيستميل الحسين للبيعة ، وهو المستحيل ، أو يقتنع منه بالسكوت عن المعارضة ؟
وأصبح موقف الوليد بعد ورود الكتاب اليه مرتبكاً ينذر بمخطر عظيم ، فهل يتحدى كل الحواجز التي تقف أمامه عندما يتعرض للحسين بسوء فيكسب رضا أميره وأنصاره ويتحمل سخط الله وغضبة الأمة ، أم يلتزم بالتراث وسلوك طريق الاستقامة ، ولا يتعرض للحسين بسوء اذا لم يغيّر وجهة نظره في بيعة يزيد .

(١) الفتوح ١١/٥ .

(٢) نفس المصدر / ١٢

فكان الوليد تختلج في نفسه نوازع متباينة ، فهو ملزم بحكم منصبه أن ينفذه ، وهو يعلم ما سيجري عليه من آثار اجتماعية وسياسية ، فقرر أن يسلك طريق الحذر من وقوع الكارثة التي يخشاها عندما ينفذ أمر يزيد ، في استعمال الشدة مكان اللين والمداراة . ، فأرسل الى الحسين بن علي (ع) يدعوه ، وكان الحسين (ع) قد بلغه موت معاوية فأحسّ بما عزم عليه الوليد ، فأحضر أهل بيته ذوي النجدة والبسالة لعلهم بما يؤدي اليه الأمر من خطر العواقب ، وأمرهم بأن يقفوا على الباب تاهباً للوثبة عندما يعرض له أي خطر لأنه يعلم بحقيقة الأمر وربما يؤدي الموقف الى اصطدام عند امتناعه عن البيعة .

ودخل الحسين (ع) على الوليد وأبقى أهل بيته على الباب وهم على أتم الاستعداد ، وقال : إن دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتموا الباب^(١) .

فلما دخل استقبله الوليد بالتبجيل والترحاب ، وكان مروان جالساً وعليه مسحة الغدر والغضب ، وتعلو سحنته علامات التأثر ، وهو مرتبك من خطورة الموقف وسوء الوضع ، وخيبة الأمل ، عندما يمتنع الحسين من الاستجابة لما يطلبه يزيد .

وابتدأ الوليد بأدب ولين فنعى معاوية واسترجع الحسين .

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٨٣ وابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ٢٣٤ والارشاد ص ٢٠٠ .

ثم قال الوليد : إن يزيد استحسب اقتراح البيعة عليك فماذا ترى ؟

* * *

انه لأمر غريب وموقف عظيم وقعه . أمن الحسين تطلب البيعة ليزيد ؟ ! فمن هو يزيد ؟ ! وبماذا ورث تراث محمد ؟ ! فبماذا يجيب الحسين عن هذا الأمر ؟ ولكنه عليه السلام تلقى ذلك بهدوء وتصبر ، وكان جوابه طلب اجتماع عام في مسجد الرسول يحضره الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار ، وتعرض هناك قضية البيعة ليزيد علناً^(١) ، وهذا بمثابة استفتاء شعبي أو انتخاب حر لخليفة جديد ، ومن ياترى يقدم على انتخاب يزيد مع وجود من هو أهل للخلافة ، ولا أقل من وجود كتل معارضة ، وأغلبهم من أهل الحل والعقد ، وهذا الاجتماع في نظر الواقع يشجع المعارضين لبيعة يزيد . واقتنع الوليد بجواب الحسين حباً للسلامة ودفعاً للخطر .

وخرج الحسين (ع) وهو يتهاذى بين أهل بيته ومواليه ويقول :

لاذعرت السوام في فلق الصبح مغيراً ولا دعيت يزيداً
يوم أعطى مخافة الموت ضياءً والمنايا ترصدني أن أحيداً^(٢)

أما مروان فكان ينتظر النتيجة الحاسمة ، وهيبيعة الحسين (ع)

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٨٢ . والطبري ص ٦٠ .

(٢) التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٢٨ ابن عساكر .

عن رضا منه فإن امتنع يقتل ، كما أمر يزيد بذلك ، ولقد خاب أمل مروان عند اقتناع الوليد بجواب الحسين ، فأعلن بما يكنه من سوء التدبير لهذا الاجتماع السري ، وقال : لا تدع الحسين يخرج من عندك بلا بيعة فيكون أولى منك بالقوة ، وتكون أولى منه بالضعف ، فاحبسه حتى يبايع أو تضرب عنقه .

ألقى مروان هذه الكلمة عن حقد يأكل قلبه ، وعداء أعمى بصيرته وسلبه معرفة المنطق الصحيح ، وهو كما قال علي (ع) : لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحق وراء لسانه .

ومرت هذه الكلمة على مسامع الحسين فوثب وثبة الأسد وقال : بأنفة وحمية : يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو ؟ كذبت ولؤمت^(١) ولولا النظر الى العواقب السيئة المترتبة على الفتك بمروان لما أفلتت من قبضة الحسين ، ولكنه كان أبعد نظراً ، وأصوب رأياً وأعلم بعواقب الأمور ، ووقف مروان أمام وثبة الحسين وغضبه موقف الجبان الرعديد مصفر اللون ترتعد فرائضه ، وتستك أسنانه .

وخرج الحسين (ع) وقد صمم على تنفيذ خطته ومن هنا كان ابتداء المسيرة الظافرة في نهضته ، وبانت الطلائع المحزنة لمصيبته وأن أوان الاستعداد للنهضة وتفجير الثورة .

* * *

(١) التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٢٨ ابن عساكر .

خرج عليه السلام والدنيا ضيقة في عينه على سعتها فقد آن أو ان المحنة
وبدت علام الابتلاء، ومن هنا أعلن ثورته، ورفع شعار المطالبة بالاصلاح
والسير بسيرة جده فكان هذا هو المجلس الأول لانطلاق الحركة ومن هنا
أعلن ثباته على المطالبة بحقوق الأمة ، وأنه على الحق وليس له من غاية
إلا نصرة الحق .

ولا بد هنا للحسين أن يعلن منهاج نهضته ويوضح عوامل ثورته
فقد جاء في بنود الوصية التي تعتبر دستوراً للنهضة ، وطريقاً للثورة
إذ يقول :

اني لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا مفسداً
ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في
أمة جدي .

أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهي عن المنكر
وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ،
فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن
رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيّني وبين
القوم الظالمين وهو خير الحاكمين ^(١)

وهذه الفقرات هي تجسيد اوضاع العصر الذي تعيشه الأمة
الإسلامية من جراء ما خلفته السياسة الأموية ، في عهد معاوية من فساد
وانحطاط ، وضياع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) مقتل العوالم ص ٥٤ والسيد الأمين في اللواعج ص ٢٨ والفتوح ٣٥

إن تلك الأوضاع السائدة وليدة استهتار بالقيم ، وبعد عن الالتزام بنواميس الدين ، وتغيير للخطط التي أوضحها الرسول (ع) لأمتهم لمسيرتهم في الحياة .

لقد ضاع الحق وقل أنصاره ، وانتشر الباطل ، وكثر أعوانه ، فالحسين أولى من كل أحد في المطالبة باعادة حقوق الأمة ، لأنه يمثل دعوة الحق بأجلى مظاهرها ، وبذلك طالب الأمة لمعاونته ، وقبول دعائه فهو لم يجعل أسباب قبول دعوته بشرفه الذي لا يجاريه أحد فيه ، ولا منزلته التي يعترف بها كل مسلم ، وإنما طالب الأمة بالحق الذي يجب مناصرته ، فالحسين داعٍ للحق وهو ممثله والناس إذا استجابوا للحق ، فذلك سعادة المجتمع والخير للأمة .

فكانت نهضته (ع) للحق من حيث الحق ولم يشنه قلة الناصر وكثرة الواتر كما لم يقعد به قوة خصمه وتعاون العناصر الموقورة ضده فأعلن الجهاد على حكومة يزيد الماّجن المستهتر ، وقرر الهجرة ؛ ليعلم الثورة من هناك ، وتكون مكة قاعدة انطلاقها ومهد التكتل الإسلامي ، لأنها كانت مزدحمة بوجوه المسلمين وأبطالهم آنذاك إذ قصدوا البيت الحرام لأداء العمرة في شهر رجب من كل مكان .

في مكة المكرمة

هاجر الحسين من دار الهجرة في العشر الاواخر من شهر رجب ، واتجه شطر البيت الحرام قبلة المسلمين ، ومنزل الوحي ليؤدي فريضة الجهاد التي لا يسوغ له أن يتقاعد عنها او يتأخر عن القيام بالواجب .

وكانت مكة مزدحمة بالمعتمرين من جميع اقطار العالم فدخلها ركبته
في الخامس من شهر شعبان ونزل شعب علي (ع) .
وأثارت هجرته من المدينة موجة سخط على الدولة في جميع أرجاء
المملكة الاسلامية وتحدث الناس بهذا النبا العظيم ، والحادث الذي بهم
كل مسلم ويلزمه التساؤل عن أسبابه وأخذت وسائل الاعلام الاسلامية
تنشر هذا النبا في الأقطار .

وعندما حل الحسين بمكة أقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين
وأهل الآفاق يختلفون اليه ، ويجمعون عنده وتركوا عبدالله بن الزبير ،
وكانوا قبل ذلك يختلفون اليه ، ولزم ابن الزبير الكعبة يطوف بالبيت
ويأتي الى الحسين (ع) (١) .

وتعرف الناس على أسباب الهجرة ، وأوضح لهم الحسين (ع) منهاج
الدعوة وتصميمه على الثورة وحتمية المعاونة بين جميع المسلمين لرد خطر
إمارة يزيد على الأمة الاسلامية .

* * *

تحدث الناس بهذا النبا العظيم، وكثرت الآراء والتكهنات ، وأحاط
الخوف بأعدائه ولا يدرون ماذا يكون وراء ذلك ، أيجتمع المسلمون
على مبايعة الحسين ليتداركوا خطر انتقال الأمر ليزيد ، وبهذا سعادة
الأمة ، ولقد أصبح الأمويون أمام حركة إسلامية كبرى وتيار ديني
يتدفق من جميع الجهات ، ليلتحقوا بالحسين استجابة لدعوته وتخلصاً

(١) الحسين علي جلال ج ٢ ص ١٢ .

من العهد الأموي فقد سئم الناس ما يلقونه في ذلك العهد من أمور وإحداث كثيرة خلفت في النفوس آثاراً مريرة ، كما ظهرت في المجتمع الإسلامي عادات غير مألوفة وانتشرت العصبية القبلية .

وليس من الغريب أو المستبعد أن يستجيب الناس لدعوة الحسين كما أن الحسين ، لم ييأس من استجابة الناس له ، وكل ذلك يهدد الكيان الأموي تهديداً جعلهم يتسهبون اقتحام الحسين بشكل سافر ، وكانت ملامح الخطر تبدو في الأفق وتظهر بوادر تلك الحركة الإسلامية فقد بدأ التجمع في مكة واطلعهم الحسين على الأمر الذي دعا إلى الخروج وأوضح لهم منهج دعوته وأسباب ثورته وهي كما أعلنها في بيانه الأول بأنه لم يخرج إلا لطلب الإصلاح والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والسير بسيرة جده .

وأقبل الناس على دراسة هذه البنود ، وهم يشجعون الحسين على النهضة ويلتفون حوله في مكة ، وأصبح المعتمرون من جميع البلدان الإسلامية لا يفارقون مجلسه ولم يخل الوقت من مفاوضات ومشاورات . وليس من السهل على الأمويين أن يغضوا الطرف عن الحسين وهو يخرج من المدينة معلناً غضبه على الدولة بصورة علنية ، وليس فيها شيء من السرية والتكتم ثم نزل مكة وكان فيها جمع من المسلمين لا يستهان به من المعتمرين والمجاورين فكان نزوله في مكة هو أعظم صاعقة تنزل عليهم ؛ إذ وافتهم الأنباء بأن الحسين تعقد عنده الأندية للتشاور ، وتكثر الاجتماعات ، ويرتاد مجلسه جميع المسلمين من أطراف

البلاد من الذين وافوا مكة لأداء العمرة .

وغمرت المجتمع ألوان من التكهات في النتائج وكثرت الأحاديث حول هذا الحادث المهم .

وارتحل المعتمرون لأقطارهم وهم يحملون أبناء مكة وأخبار هجرة الحسين وغضبه ، ومعارضته لبيعة يزيد ، وقد أحدث ذلك هياج اهتز له عرش يزيد وسلب قراره .

وهكذا بلغه نبا الكوفة وهي تغلي كالمرجل عندما بلغها وفاة معاوية فتحركت الفئات المكبوتة والمغلوبة على أمرها ، أيام سلطان معاوية وهي تترشح تحت نير المذلة والاستعباد ، وكثرت الاشاعات في توجه الحسين الى مكة ، فاجتمع الناس لدعوته كما سيأتي .

* * *

بقي الحسين عليه السلام في مكة أيام الحج فكان وجوده في مكة محفزاً لقدم عدد لا يستهان به من وجهاء الناس وزعماء الأمة ، وذوي الآراء منهم الى مكة للحج والاجتماع بالحسين للوقوف على رأيه ومعرفة آخر ما وصلت اليه دعوته .

وكان الموسم في تلك السنة مزدحماً بالشخصيات الاسلامية ومن يهيمه الوقوف على نهاية هذه المعركة التي تقرر مصير وحدة المسلمين وعزتهم إن استطاعوا الاطاحة بيزيد وهدم سلطانه الذي اقيم على إثارة النزعات القبلية ، فمعارضة الحسين ووجوده في مكة أمر لا يتحمله

سلطانهم ، ولا تتسع له صدورهم ، ولا يمكن التعرض له بهذه السرعة ولو تعرضوا له لعرضوا أنفسهم الى ما هو أعظم منه لنقمة المسلمين عليهم ، لأنهم يحسبون للموقف ألف حساب كما أنه من المستحيل تحويل الحسين عن رأيه ، أو اقناعه بكل وسيلة ، فلا بد من تفكير في العواقب ، ولابد من معالجة الموقف بما يضمن السلامة للدولة ، فكثرت الآراء وآخر ما نتج عن تلك الاجتماعات وحصل من ذلك التشاور أنهم قرروا اغتياله وقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ، فأرسلوا ثلاثين رجلاً من الأبطال والمعبر عنهم في الروايات بشياطين بني أمية .

وكانت فكرة اغتيال الحسين سلاحاً ذا حدين ، فقتل الحسين هو أمنية الدولة ، إذ تقطع بذلك طريق المعارضة من جميع الجهات .

ثم تصبح الدولة عند تنفيذ الخطة صاحبة الحق في البحث عن مرتكبي الجريمة ، وأقطاب المؤامرة ، وهذا تستطيع السلطة أن تسوق لساحات الإعدام أكبر عدد ممكن من أبطال الاسلام الذين لا تود بقائهم .

وقد أدرك الحسين (ع) خطورة الموقف ، فأعلن السفر وقرر الخروج من مكة يوم التروية وكان هدفه المحافظة على حرمة الحرم وقدسيته كما صرح بذلك لمن كان يحاول اقناعه بالتريث وترك الإستعجال في السفر .

في الكوفة

ماجت الكوفة عندما بلغها موت معاوية بن أبي سفيان وحدثت بها هزة سياسية ، وتحول اجتماعي ، فقد تحركت قوى المعارضة للحكم وتنفس المجتمع الذي خيم عليه كابوس حكم غاشم ، وأمتد عليه نفوذ سلطان جائر .

والكوفة هي التي تمثل المعارضة الحادة ، وتشبعت فيها روح الحقن للدولة الأموية ، وكانت الكوفة معرضة لسخط السلطة وانتقامها ؛ لما صدر منها من مقابلة سافرة ، ومعارضة مكشوفة وعداء ظاهر ، وأهمها أنها انضمت لجانب علي (ع) في حروبه الثلاثة : الجمل ، وصفين ، والنهروان ، فهي في نظر السلطة تشكل أعظم خطر على الدولة ، فكانت موضع الاهتمام والمراقبة ومحلا للعقوبة الجائرة .

كما أنها تتسم بطابع عدم الاستقرار ، لكثرة اختلاف النزعات وتقلب الآراء وذلك لتفرق عناصرها ، وتعدد قومياتها ؛ واختلاف عقائدها .

وكانت الشيعة على موعد مع الحسين (ع) والاتصالات بينه وبينهم مستمرة وهم يستنهضونه لتفجير الثورة ضد الحكم الأموي ، وقد التف حولهم جميع الفئات التي تشاركتهم بالتحفز للخلاص من ذلك العهد الغاشم

وكان الحسين (ع) قد أمر شيعته بالتريث ، وعدم التسرع ما دام معاوية حياً وذلك رعاية للظروف واحكاماً لخطط الثورة .

ولما بلغهم موت معاوية وهو بداية التحول الى عهد الانطلاق من نير عهود العبودية ، فأول شيء قاموا به هو عقد الاجتماعات ، والمداولة حول مراسلة الحسين (ع) ، ودعوته الى القدوم اليهم ، فقد آن أوان النهضة وحل موعد الاستجابة لمطالبهم ، ولكنهم لم يقدموا على المراسلة إلا بعد أن يلمسوا اتجاه الغالبية قبل الدخول في هذا الصراع العنيف ولا بد أن يتعرفوا على القوى التي تشترك معهم في هذا الصراع في الإقدام والتضحية كل ذلك قد حسبوا له حسابه .

أما النتائج فذلك رهين بامور أكثرها خارج عن الإرادة ، فقد يأتي القدر بما ليس في الحسبان ، وإرادة الله فوق كل شيء .

وهنا لا بد من عقد اجتماع عام لطرح الفكرة أمام الأنظار ، ف عقدوا أول اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو أحد زعماء الكوفة ومن الصحابة وشجعان العرب المشهورين ، وحضر وجهاء الشيعة وأعيان البلد ورجال المصر في ذلك الاجتماع .

فقام سليمان فيهم خطيباً وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن معاوية قد هلك وان حسيناً قد أعلن على القوم خلافه ، وخرج الى مكة وانتم شيعته وشيعة أبيه .

فإن كنتم تعلمون انكم فاصروه ، ومجاهدوا

عدوه فاكتبوا اليه ، وإن خفتم الفشل والوهن
فلا تفروا الرجل في نفسه .

فأجاب أكثر الحاضرين وقالوا . لا بل
نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه قال سليمان:
فاكتبوا اليه فكتبوا اليه وذلك في أواخر
شعبان (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الحسين بن علي (ع) من سليمان بن صرد ،
والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد البجلي ،
وحبيب بن مظاهر وشيعة المؤمنين من
أهل الكوفة سلام عليك فأنا نحمد اليك الله
الذي لا إله الا هو . اما بعد فالحمد لله الذي
قصر عدوك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه
الأمة ، فأبتزها أمرها ، وانتزعها حقوقها ،
وغصبها فيثها وتأمّر عليها بغير رضا منها ، ثم
قتل خيارها وأستبقى شرارها ، وجعل مال
الله دولة بين جبابرتها . وأغنيائها فبعد ألم كما بعدت
ثمود وأنه ليس علينا إمام ، فاقبل لعل الله أن
يحمضنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في
قصر الأمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد
وقد حبسنا أنفسنا عليك ، ولو اقبلت الينا
أخرجناه حق نلحقه بالشام (٢) .

(١) الفتوح لابن أعم ج ٥ ص ٤٤ .

(٢) الخوارزمي ١٩٤/٢

وأرسلوا الكتاب مع عبدالله الهمداني وعبدالله بن وائل وأمرهما بالإسراع والتجاء من المراقبة فأسرعا وقدما الى الحسين في مكة لعشر مضين من رمضان .

وبعد مضي يومين من تسريح الكتاب بعثوا مع قيس بن مسهر الصيدواي ، وعبد الرحمن بن عبدالله بن ابي الكنود، وعمارة بن عبيد الله السلولي ومعهم نحو من ثلاث وخمسين صحيفة، أو مائة وخمسين صحيفة^(١) من الرجل والاثنين والأربعة. ثم بعد يومين آخرين أرسلوا هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفلي ومعها كتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي من شيعته من المؤمنين ،
أما بعد فحيا هلا فان الناس ينتظرونك ، ولا
رأي لهم غيرك فالمجل العجل والسلام عليك^(٢) .

واشترك في مراسلة الحسين ودعوته عناصر
من غير الشيعة كالحوارج فكتب اليه من
زعماهم : شيث بن ربيعي ، وسبحار بن
أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم
وعزرة بن قيس وعمر بن الحجاج الزبيدي
ومحمد بن عمير التميمي .

أما بعد : فقد اخضر الجناح وأينعت
الثمار فاذا شئت فاقدم على جند لك بجندة
والسلام عليك^(٣) .

(١) سبط ابن الجوزي ص ٢٤٤ ، التذكرة .

(٢) سبط ابن الجوزي ص ٢٤٤ ، التذكرة . والشيخ المفيد ص ٢٠٣

(٣) مقتل ابي مخنف مخطوط .

وقاردت الكتب على الحسين من الكوفيين وهي تدل على استغاثة
عما أصاب الأمة من نكبات الانحراف عن الدين ، وتلاقت الرسل عنده
ووردت عليه الرسائل من مختلف الناس ، ولم يحصلوا على الجواب .
إلى أن ورد إليه كتاب من خلّص شيعته وهم يؤكّدون عليه ويخبرونه
باتفاق الناس ، واستجابتهم لدعوته ، ويقولون : ان الناس ينتظرونك ،
ولا رأي لهم غيرك فالمعجل العجل والسلام .

* * *

وهذا الهياج الشامل والصرخة المدوية واستغاثة هذا العدد الهائل
ووصول آلاف الكتب من اناس يستصرخون الحسين لانقاذهم من
يراثن الظالمين ، كما وصلت قائمة بأسماء العشائر الذين ينتظرون
قدومه والمناصرين له يبلغ عددهم مائة ألف مقاتل ، هو أوضح دليل على
حصول الظرف المناسب للإسراع بالإستجابة ، وأصبحت الاجابة حتمية
نظراً لما يقتضيه الوضع في معالجة المشكلة من أقرب الطرق ، وأنجح
الوسائل ، وكان القادة للدعوة هم رجال الشيعة من زعماء الكوفة ،
ورؤسائها والذين يمثلون كتلاً قوية لها سيادتها ، وقد وردت كتبهم بما
تطمئن اليه النفس ، وكل هذا لم يبعث في موقف الحسين إلا التريث وعدم
الاسراع في الاجابة ، ولكنه قرر عليه السلام أن يرتاد الوضع بمن يثق به من
أهل بيته فيكون رائد حق ومخبر صدق ، فانتدب لهذه المهمة ابن عمه مسلم
ابن عقيل .

ولا نغفل أهمية هذه السفارة ، ومكانة مسلم من هذا الاختيار ، فهو يدل على سموه وعلو شأنه ، في تدبير الأمور فقد منحه الله موهبة عظيمة ، نال بها اختيار الحسين له واعتماده عليه كما جاء في كتابه بأني باعث اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل .

ولا شك من قيام مسلم بن عقيل في مهمته أحسن قيام وسار كما يجتمع عليه واجبه الديني ، ولكن التاريخ ظلم حقه فأسدل الستار على مواقفه الخطابية ، وتوجيهاته مدة بقائه في الكوفة ، وكما يأتي ان هناك حلقة بل حلقات - من تاريخ حياة هذا البطل المجاهد مفقودة وسيكشفها التحقيق ، ويزيل غموضها التبصع ، فقد اخذ الكتاب يوجهون الأضواء على حادثة الطف التي هي أهم حادثة في التاريخ الإسلامي .

مسلم بن عقيل

أُنيطت بمسلم بن عقيل بن أبي طالب مهمة السفارة ومسؤولية اكتشاف واقع الحال في الكوفة، بعد أن تواترت الكتب على الحسين (ع) بالدعوة وإعلان البيعة له ، فأرسل (ع) رائداً صادقاً ونائباً محنكاً يسبر غور ذلك المجتمع ، ويقف على حقيقة أمر الدعوة ، وأن يكتشف الحال ، ويعرف الأوضاع وزوّدَه بكتاب منه ، معتمداً عليه واثقاً بكفائته ، لهذه المهمة وجاء فيه

أما بعد فقد فهمت كلما اقتصصتم . وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي ، وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلي انه قد اجتمع رأي ملائكة وذوي الحجى منكم على ما قدمت رسلكم ، وقرأت في كتبكم فاني أقدم اليكم وشيكاً، أن شاء الله ، فلمري ما الامام إلاّ العامل بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بالحق ، الحابس نفسه على ذات الله ^(١).

وهذا الكتاب يعتبر وثيقة سياسية لها أثرها في كشف حقائق لا غنى للباحث عن الوقوف عليها، لإيضاح بعض ما أُبهم من جوانب سيرة مسلم ،

(١) الطبري ج ٦ والشيخ المفيد ص ٢٠٢. وتذكرة الخواص ص ١٩١ .

وحسن قيادته لأن هذه الوثيقة تحدد مسؤولية مسلم في سفارثه، فهو رائد يتعرف أوضاع ذلك المجتمع الهائج في الدعوة لاستنهاض الحسين (ع) والإستغاثة به فلم يؤمر مسلم بثورة ضد العناصر المعارضة لقدم الحسين، ولم يعهد اليه إقامة حكومة مؤقتة إلى أن يقدم الحسين، وإنما أنيطت به مهمة الإستطلاع على الآراء، والوقوف على حقائق الأمور، من معرفة اتجاهات الناس وأوضاعهم، فهو رائد حق ورسول صلاح.

* * *

وسار مسلم بن عقيل نحو الكوفة . حاملاً أعظم مسؤولية، وممثلاً لأكبر شخصية إسلامية في عصره، فهو رائد حق، ورسول لإمام حق، استغاث به الناس لينقذهم من برائن الظلم والاستعباد.

وكان الناس بانتظار قدوم الحسين (ع) وهم يتطلعون أخباره والكوفة تغلي كالمرجل في التأهب لما سيحدث عند قدوم الحسين من معارضات، أو خلاف من بعض الفئات المعارضة.

وكان قدوم مسلم يُعد انتصاراً وفتحاً جديداً للشيعة، ومن وافقهم في دعوة الحسين من العناصر الأخرى.

وعندما دخل الكوفة أحدث دخوله موجة فرح وتباشير، ودخل الناس من مختلف الطبقات أفواجاً أفواجاً للسلام عليه، والترحيب فيه وبعد عقد اجتماع حضره وجوه البلد، تلى عليهم كتاب الحسين (ع) وأنه

استجاب لدعوتهم وأرسل ابن عمه مسلماً مثلاً عنه وسفيراً يتحمل المسؤولية الى أن يقدم الحسين (ع). وهذه أمنية حققتها الكوفة بعد عناء طويل فقد بذل زعمائهم كل ما في وسعهم أن يستجيب الحسين لمطالبهم في حياة أخيه الحسن وبعد وفاته ، والآن بعد مضي زمن طويل يستجيب لدعوتهم ويوعدهم بتحقيق أمنيتهم بعد أن يأتيه جواب رسوله مسلم ابن عقيـل .

وبعد تلاوة الكتاب علت الأصوات بالاستجابة ، وهتفوا بالبيعة ورحبوا بالسفير القادم وتبادروا نحو مسلم بن عقيـل لبيعة الحسين (ع) على السير تحت لواء الاسلام والتضحية دونه مهما كلفهم الأمر ، وقد عمهم الفرح وتباشروا بتحقيق الأمنية، وانتشر الخبر في الكوفة، فتهافت الناس على مسلم وأزدحمت وفود العشائر في دار المختار بن ابي عبيدة .

وهذه الظاهرة تبعث على الاطمئنان والثقة من حسن الوضع، ونجاح المهمة ، ولم يهمل ابن عقيـل ناحية الاجتماعات الخاصة لمداولة الرأي في جواب الحسين ، فكان يختص بأهل الرأي والحجى من زعماء الكوفة حول الأوضاع وقدم الحسين ، ويكون الجواب بالترحيب وطلب الإسراع في القدوم .

كما أنه أعطى حالة البلد العامة أهمية فقد لمس الاستقرار الشامل إذ الكوفة يسودها هدوء وليس فيها حركة مقاومة لدعوة مسلم ، ولا معارضة لقدم الحسين ، واطمأن مسلم بعد بذل الجهد في التعرف على الأوضاع وكانت الجموع تروح وتغدو وهم يكررون عبارات الولاء ،

والتضحية والفداء ، بما يبعث على الأمل بالنجاح ، واعتماداً على ما لمسه من هذه الظاهرة ، وما وقف عليه من اقبال المجتمع ظاهراً ، وما تكنه الصدور فأمره الى الله .

هناك بادر بالكتابة الى الحسين (ع) يخبره باجتماع الرأي وانتظار الجميع لقدمه فأرسل كتاباً يقول فيه : الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني ثمانية عشر ألفاً فمعجل بالإقبال حين يأتيك كتابي هذا (١) .

وأرسل الكتاب مع وفد من أهل الكوفة وعلى رأسهم عابس بن شبيب الشاكري ، وهو بطل من أبطال العرب ، ومعروف باخلاصه وولائه لأهل البيت عليهم السلام ، وقدم الوفد يزيد الموقف وضوحاً ، ويعطي فكرة التوجه جلاءً فلا غموض في الموقف إلا ما يحدث من قدر مما لا سلطان للإنسان في رده .

المعارضة

ويقض أنصار الأمويين ، ومن سار على شاكلتهم في الخط المعاكس ، فوجدوا الخطر يحيط بهم والحكم الأموي مهددًا بالإطاحة ، عندما انتشرت الدعوة للحسين ع بالكوفة ، وتهافت الجموع للبيعة وتصدر الزعماء لقيادة الحركة ، وكان النعمان بن بشير يتجاهل الوضع ، ولم يبد منه أي عمل ضد تلك الحركة ، وربما كان تريثه عن مكيدة ودهاء ، فهو سياسي اتخذ

(١) التاريخ الكبير لابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٤ .

السكوت وسيلة لنجاحه . في تدير الأمور الى أن يرى رأي السلطة الحاكمة في الشام .

وقد اختاره الأمويون لكبر سنّه وصحبته وبرودة مزاجه بعد أن تعاقب على الكوفة ولالة قساة ، أثقلوا كاهل العرب في الإهانة فكانت ثورات تتفجر بين آونة وأخرى فتخمد بقوة وبمَنْتهى القسوة ، وكانت الخطة التي سار عليها النعمان بن بشير لم ترق لأنصار الأمويين وأحلافهم ، فتجمعوا للدرء الخطر لوجود مسلم ، وإنتشار نبأ قدوم الحسين، وراحوا يستنهضون السلطة الحاكمة وطلبوا من النعمان بن بشير تدارك الأمر ، وإبداء رأيه حول هذه المشكلة ، إذ الناس في هياج عندما دخل مسلم بن عقيل مزوداً بكتاب الحسين ، وبايعه كثير منهم وظهرت الحزورية بصورة علنية ضد الأمويين .

وهنا لا بد أن يعلن الأمير عن رأيه في مقابل هذه الأمور التي تجري بسرعة نحو انهيار الدولة .

فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
أما بعد فاني لا أقاتل إلاّ من يقاتلني ، ولا
أثب إلاّ على من يشب عليّ ، ولا آخذ بالظنة أحداً
فأجابه أحدهم : هذا رأي المستضعفين .
فزجره النعمان قائلاً :

لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله ،
خير من أن اكون من الجبارين في معصيته .

وهذا البيان من الأمير يعلن عن حياد تام ، وحب للسلامة وفيه

خيبة أمل أنصار الأمويين ، كما انه في الوقت نفسه ضيّع الفرصة على بعض الفئات المندسة ، والتي تقف وراء الحوادث لوقوع الخلافات ، واتساع الشقة والوثبة لغايتهم على جناح الانتهازية .

وقد صدر عنه كلام في تهديد وتوعيد لمن خالف أمره وخرج عن طاعة إمامه ^(١) .

وكان موقف الأمير في حبه للسلامة هو أنفع من التسرع في إثارة الحرب ، لأنه يعلم ضعف الجانب الأموي ، فكان منهجه منهج مداراة ، حتى تقوى الجبهة الأموية بارسال من يتولى ادارة كفة شؤونها .

وهنا قرر زعماء التكتل الأموي رفع الأمر الى يزيد واطلاعه على الأمر ، وأخباره بموقف الوالي وضعفه ، ووقع الكتاب جماعة ، منهم عمر بن سعد وعبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي ، وعمارة بن عقبة بن أبي معيط ، وغيرهم .

وأسرع البريد الى الشام فوافى يزيد بهذا النبأ الهام فضاعف تخوفه من الحسين ، إذ كان يعير قضيته أكبر اهتمام ، وهو في مكة والآن أصبحت الكوفة وهي ذات السيادة تقف الى جنب الحسين (ع) علناً .

فاضطرب حبل استقراره ، ولجا الى أهل الرأي والمشورة من كبار أنصاره ومعاونيه ، وكان أبرز مشاوريه سرجون مولى معاوية ، وهو

(١) الفتوح ٥٨/٥ .

رجل مجوسي يحقد على العرب ، فأشار عليه بعزل النعمان ، وتولية عبيد الله ابن زياد ، ويقال : إن سرجون كان يرعى الرابطة التي بينه وبين ابن زياد ، لأن سرجون مجوسي العقيدة وكانت مرجانة على عقيدته ، فاراد أن يقدم ابن مرجانة ، ويوليه المصريين ، ليفتك بالعرب ، ويوقد بين المسلمين نار حرب يكون وقودها المسلمون . فكتب الى عبيد الله بن زياد .

* * *

أما بعد فانه كتب الي شيعي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل يجمع الجمع ويشق عصي المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حق تأتي أهل الكوفة ، فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه^(١) .

استلم ابن زياد عهده ، وأصبح أمير المصريين ، البصرة والكوفة فأقام أخاه عثمان على البصرة وخطب الناس وهددهم ان خالفوه . وقال :

يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين يزيد قد ولاني الكوفة ، وأنا سائر اليها غداً ، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد ، فاياكم والخلاف والارجاف ، فوالذي لا إله إلا هو ،

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٠ .

لو بلغني عن رجل منكم خلاف لآقتلنه ، ولا
قتلن عريفه ، ولاخذ الأذننى بالأقصى ، حتى
تستقيموا لي ، فاحذروا ان يكون لي فيكم
مخالف فأنا ابن زياد الذي لم ينزعني عم ولا
خال (١) .

خَوَالِ كُوفَة

تجهّز ابن زياد من ساعته ليرحل عن البصرة ، وفي تلك اللحظات قدمها رسول الحسين (ع) سليمان مولاه ، ومعه كتب لأشرافها منهم مالك بن مسمع البصري ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمر ، وقيس بن الهيثم ، وكانت الكتب تتضمن دعوة الحسين لهؤلاء يستنهضهم لمؤازرته في نهضته ضد الوضع القائم الذي أضر بمصالح المسلمين .

وكان المنذر بن الجارود شديد الحذر من ابن زياد بالرغم من مصاهرته له ، فخشي أن يكون الرسول مدسوساً اليه ، من قبل ابن زياد ، فقدمه اليه لتبرأ ساحته ، وكان ابن زياد على أهبة الترحال ، فقدم الرسول ضحية فداء قبل سفره بقليل فقتله وصلب جسده . وأول شيء فكر فيه ابن زياد لتحقيق مهمته في الكوفة هو سلوك طريق التخذيل عن مسلم بشقى الوسائل ، ووجد أقوى عامل لتحقيق ذلك هو جلب رجال من البصرة لهم مكانتهم في الكوفة ، ولهم منزلة مرموقة بين القبائل ، فهم عندما ينزلون الكوفة ويقدمون على أبناء عمومتهم لا بد أن يمنحوا الكرامة والتبجيل ، ومن هناك يسرون في الخط الذي ضربه لهم فانتخب

من وجهاء البصرة وزعماء المصريين جماعة يستطيع بهم ان يسند قوته ،
وان يرسلهم في ميدان التخذيّل ومجالس المفاوضات مع أبناء عمومته في
الكوفة ، وبالطبع إن هؤلاء الوفود لهم أثرهم في الاستجابة لما يطلبون
(ولكل قادم كرامة) ، كما أنه صحب من أبطال الجند المدرب
خمسائة فارساً .

وسار ابن زياد بسرعة فائقة ومعه حراس أقوياء وجيش بكامل عدته
ومعه جماعة من أشرف البصرة ، فكان لا يمر بحجّ من أحياء العرب إلا
وظنوا إن هذا الركب هو ركب الحسين (ع) وهم يستبشرون بقدومه إذ
سبق أن علموا بدعوة أهل الكوفة له ، وكان استبشار الأعراب في
البادية يبعث فيه نشاطاً لدخول الكوفة ، قبل أن يدخلها الحسين (ع)
فسار بسرعة هائلة ، عجز عن مسايرته أصحابه ، ولم يلحقه إلاّ مولى
من مواليه اسمه مهران وقد أعياه النصب في القادسية ، فقال ابن زياد : يا
مهران على هذه الحالة إن أمسكت حتى تنظر الى القصر فلك مائة ألف .
قال : لا والله ما أستطيع .^(١)

وتأخر مهران وسار ابن زياد بمفرده حتى دخل الكوفة .

كيف دخل الكوفة :

يحيط الغموض بكيفية دخول ابن زياد الكوفة ويكتنف هذا
الموضوع جهالة تدعو الى كثير من التساؤل :

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠١

فهل دخلها في وضع النهار بهيئة أمير جديد تحوط به حراسه ويتبعه
جنده ويستقبله أعوانه ؟

أم دخلها متنكراً لا يعرف من هو ؟

وهل صحيح أنه دخل بزي أهل الحجاز مُعتمداً بعمامة سوداء فظن
الناس أنه الحسين ؟ .

وهل وقعت مصادمات عند دخوله كما في بعض النصوص ؟ أم أنه
دخل بصورة سلمية ؟

والذي يظهر من التتبع ويوضحه سير الحوادث ؛ هو أن توجه ابن
زياد الى الكوفة ، وتولية أمرها قد سبق خروجه من البصرة ، وذلك عن
طريق جهاز الدولة ، ليكون أنصار الأمويين على أهبة الاستعداد لقدمه ،
خشية من الطواريء التي تعترض دخوله .

وعندما شاع نبا توجهه قويت عزائم العثمانية ، ونشط الأمويون
وأصابته الحوارج خيبة أمل لعلمهم بعداء ابن زياد لهم ، إذ عاملهم في
البصرة بشدة حيث قتلهم بدون رحمة . وشردهم في البلاد ، وهنا لابد
أن يعدوا العدة للتخلي عن كل مشاركة في أي أمر يثير غضبه عليهم ، كما
لا بد من أن يظهروا بمظهر الولاء للدولة ؛ حقناً لدمائهم ، وابقاءً على
نفوسهم ، فيتعاونوا مع ابن زياد للقضاء على عدوهم .

ومقتضى واقع الأمر أن يزيد لم يعتمد على ابن زياد كفرد يتمتع
بقوة وله خبرة سياسية فقط ، فيدخل الكوفة أعزل من السلاح والجنود ،

بل لا بد وأن يكون مزوداً بقوة ذات عدة وعدد كافٍ ، لحوض معركة حاسمة ، تقرر مصير العهد الأموي ، بالإضافة الى العناصر الموالية للأمويين ، فهي على استعداد للوثبة عندما يجمع شملهم قائدا له خبرة ودهاء ، وكان قدوم عبيد الله فاتحاً ، وقد توجه الى الكوفة بجيش قوامه خمسمائة فارس على اقل احصاء ^(١) .

وقد صاحب معه جماعة من وجوه أهل البصرة ورؤساء القبائل من الذين لهم نفوذهم بالكوفة وعشائر ينتمون اليهم ، وهؤلاء يقومون بدور الدعاية والتخذييل .

ويظهر من بعض المؤرخين القدامى : انه عند قدوم عبيد الله الكوفة اصطدم بجيش الشيعة الذين سارعوا لصدّه عن الدخول ، ولكنه أسرع فدخل القصر وأغلق بابه ^(٢) .

* * *

وكيف كان فقد استولى ابن زياد على مركز الحكم في الكوفة ، ودخل قصر الإمارة وكان قد تجمع فيه أعيان قومه ، وكبار أنصاره الذين كانوا ينتظرون قدومه وكان القصر فيه من الذخيرة والسلاح شيئاً وافراً ، إذ لم يتعجل زعماء الدعوة الى المبادرة للسيطرة على المال والسلاح في قصر الإمارة ، ولعل ظروفهم لم تساعد على الإسراع والمبادرة .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٠ .

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ .

وعلى أي حال فقد تغيرت الأحوال ، وتبدلت الأوضاع عند دخول ابن زياد وجيشه ، وتحول مجرى كثير من الحوادث الى العكس ، كما تحول اتجاه كثير من الناس بمجرد دخول الأمير الجديد ، فقد استطاع كسب عدد كبير من الزعماء الذين وقفوا على جانب الحياة ، من حركة التحرر من حكم الأمويين ، وأصبح بإمكانه التغلب على الموقف بتلك السرعة .

بداية العمل

ولما أصبح أراد أن يستعجل الحوادث ، ويتدارك الأمر بسرعة وبشدة . وكان من عادة كل أمير جديد أن يدعو للصلاة جامعة ، ويقرأ على الناس كتاب توليته ويتناول سياسته بشيء من التفصيل ، وفاقاً للظروف الحاضرة .

ولما اجتمع الناس للصلاة خرج ومعه الأشراف من الكوفة والبصرة . وصعد المنبر ليعلن مهمته وسياسته فقال :

أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاتي مصركم
وثغركم وفيثكم وأمرني بانصاف مظلومكم
واعطاء محرومكم ، والإحسان إلى سامعكم
ومطيعكم ، وأنا متبع فيكم أمره ، فأنا لحسنكم
كالوالد البر ، وسيلفي وسوطي على من خالف
أمري وعهدي ^(١) .

فلما كان في اليوم الثاني نادى بالصلاة جامعة :

(١) الحسين بن علي لأبي نصر ص ٧٦ (ابن أعم ٦٦/٥)

فلما اجتمع الناس خرج اليهم بزي هو خلاف
ما خرج به امس ، فصعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فانه لا يصلح هذا الأمر إلا في
شدة من غير عنف ولين في غير ضعف وأن
أخذ منكم البريء باليقيم والشاهد بالغائب
والولي بالولي .

وبهذا استفز شعور الناس وخوفهم ، فقام اليه رجل يقال له أسد بن
عبدالله المري فقال :

أيها الأمير ان الله تبارك وتعالى يقول :
(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) إنما المرء يحده
والسيف يحده والفرس بشده . وعليك أن تقول
وعلينا أن نسمع فلا تقدم فينا السيئة الحسنة^(١) .

سكت ابن زياد عند سماعه لهذه المجابهة الصريحة والرد الصحيح ، ولم
يتخذ الشدة مع هذا الرجل الذي يعتبر موقفه موقف معارضة للمنهج
الذي خطه ابن زياد في مسيرة ولايته ، ولا يستبعد ان سكوته ونزوله
عن المنبر ودخوله القصر ، كان اعلانا لغضبه ، ولا بد أن يثار من هذا
الرجل بأسرع وقت ممكن .

ودخل قصر الامارة واجتمع بأعوانه لاطلاعهم على مخططة
الذي وضعه في رد خطر دعوة الحسين ، ومبايعته ، وبعد قليل أصدر
أوامره وشرع في تنفيذ مخططاته ، وأول خطوة خطاها ان جمع العرفاء

(١) ابن اعثم ٦٧/٥ .

وأخذهم بشدة ، وأمرهم بأن يكتبوا له أسماء من تحت عرفاتهم ومن فيهم من طلبة يزيد والحرورية والخوارج ، ومن يشك فيه فن قام بما يأمره برئىء ومن لم ينفذ أمره برئت منه الذمة وحسّل دمه وماله، وأيما عريف وجد في عرفته أحد من هؤلاء لم يرفعه صُلب على باب داره ، وألغيت عرفته ^(١) .

وقام بكل حزم تسانده القوى المعادية لأهل البيت ، وقد شق طريقه لبث روح الفرقة وتفتيت ذلك الجمع الذي التف حول مسلم بن عقيل ، فانتشر دعائه في البلد تهديداً وتوعيداً ، وأشاعوا أن جيش الشام على الأبواب ، كما اتصل بعض زعماء البصرة بعشائهم يخذلونهم ، ويخوفونهم سوء العاقبة ، وانتشر بيان ابن زياد الذي يعتبر إنذاراً قاسياً وهو يتضمن البنود التالية :

١ - احصاء العرفاء لمن يرى فيه الخلاف
لبنى أمية وفي ضمنهم الحرورية والخوارج .

٢ - يقوم العرفاء بالاحصاء فيقدموا قوائم
بالأسماء وصحائف بالأعمال .

٣ - يقوم العرفاء بالمراقبة الشديدة على من
يتهم بالميل لجانب مسلم بن عقيل .

٤ - أي عريف يوجد في عرفته أحد من
يتهم بالانحراف عن يزيد وعدم الرضا ببيعته فإن
العريف يحكم بالصلب على باب داره .

هـ - أي هريف لم يكتب عن أحد فيلزمه
أن يتعهد بعدم المخالفة وأن لا يصدر من أي
أحد في عرافته شيء يؤدي إلى قلق الدولة .

وانتشر الرعب في البلد ، وأخذ العرفاء ينفذون بنود هذا المنشور
امثالاً لأمره وهو الذي عرف بالشدة والغلظة ، وهو يحمل قلباً لم
تدخله الرحمة .

وأول تنفيذ لهذا البيان قام العرفاء بتقديم قوائم بأسماء من عرفوا
بالانحراف عن الأمويين من الشيعة وغيرهم .

وانتشرت في البلد أنباء قدوم جيش الشام ، وقام الخذلون بقسط
وافر من نشر الرعب في البلد ، فأخذ الأب يمنع ولده ، والأخ أخاه من
المشاركة في المعارضة ، والانضمام لمسلم بن عقيل .

وأخذت القبائل تمسك بزعمائها حفظاً لهم من سطوة ابن زياد ، فقد
أمسك بنو أسد بزعيمهم حبيب بن مظاهر ومذحج بهاني بن عروة وغيرهم
وبقي الآخرون يترددون على مسلم بن عقيل ، مع الحذر والمراقبة
الشديدة ، وقام العرفاء بواجبهم يصحبهم جند ابن زياد ، والعريف في
اللغة هو من يعرف أصحابه ومنه الحديث « فارجعوا حتى يرفع الينا
عرفاؤكم امركم » وهو القائم بأمر القبيلة والجماعة من الناس يلي أمورهم
ويتعرف الأمير منه أحوالهم^(١)

(١) الزبيدي تاج العروس ج ١ ص ١٩٤ .

وتسمية العريف من التنظيمات العسكرية الاسلامية . إذ جعلوا من كل عشرة من الرجال لرجل وسمّوه عريفاً وجعلوا أمر كل عشرة من الرجال إلى أمير سمي أمير الاعشار ، وكان يقود امراء التعبئة وهم امراء الوحدات في التنظيم العسكري الحديث .

وبذلك أصبح العرفاء يقودون الخلية وهي الحاضرة ، أما أمراء الاعشار فيقودون قوة لا تقل عن مائة مقاتل وهم يقابلون امراء السرايا حالياً^(١) .

وأصبح الموقف في الكوفة مضطرباً والناس في حيرة من هذا الأمر المفاجيء فقد أحدث قدوم ابن زياد تحولاً غريباً، وقد ظهرت قوة الحزب الأموي للوجود . بعد أن أشرفت على العدم ، وأبعد النعمان بن بشير ورحل الى الشام واستولى ابن زياد على الحكم بسرعة فائقة ، فوزع من يعتمد عليهم على المراكز المهمة ، والوظائف الحساسة ، وأسند قيادة الجيش لجماعة آخرين ووزع الأموال ، وواصل اتصالاته بمختلف الطبقات لإحكام خطة القضاء على مسلم ، ومعالجة مشكلة اتباعه ، وتتابعت فلول العناصر الحاقدة، وتجمعت في الكوفة منضمة الى الكتل المقيمة في الكوفة من عناصر المواجهة، والذين يهمهم عرقلة انتصار دعوة الحسين لأنهم قد أحكموا الخطة لتصفية الحساب مع الاسلام وقام اليهود الذين اجلاهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة بمهمة التنفيذ للمخططات .

(١) عبد الحميد حسين : الفتح الاسلامي في العراق ص ٦٨ .

موقف مسلم بن عقيل :

لم يكن مسلم بن عقيل ليجعل الخطط العسكرية أو هو بعيد عن المواقف الحربية ، أو بمعزل عن الأمور السياسية ، حتى يؤخذ عن غرة ، ويباغت بهذه المباغتة ، فلم يتخذ أشياء لردّها أو يقف مكتوف اليد أمامها .

إنه من أهل بيت اصطدموا بحروب ، وخاضوا معارك في سبيل إعلاء كلمة الحق ، وعالجوا الأمور من طرقها المشروعة . وهو كما قلنا رائد لتحقيق أمور قد تخفى على كثير من الناس ، فهو لم يؤمر بحرب ، أو تشكيل حكومة ، وإعلان ثورة ، بل كانت مهمته محدودة ، فهو معتمد يشرف على أمور الناس في توجيه مسيرة الدعوة ، استعداداً لمقدم الحسين بتدبير ما يتعلق بنجاح الحركة من الأمور المشروعة .

وأهل البيت لم تتركز دعوتهم على عوامل العنف ، والدخول في أمور عن طريق مخالفة الدين الاسلامي ، ولم تكن سياستهم كغيرهم تظهر للوجود في قوالب التفرقة في نشر ما يؤدي إلى الانقسام ، من تحريك النعرات القبلية ، وإثارة الأحقاد العشائرية ، واستعمال لغة الدس والكذب والدعاية في الارهاب ، والخوف ، والإغراء بالألفاظ المعسولة .

بل سارت دعوتهم على مر الأيام تأخذ طريق الاستقامة والاعتدال وعدم إراقة الدماء إلا بحق ، والتحفظ عن الاعتداء ومبادرة الخصم ، أو الأخذ بدون جناية .

وما زاد الموقف آنذاك تعقيداً هو تمسك الأمير السابق بالحياد وعدم المبادرة الى أخذ الإجراءات ضد مسلم بن عقيل ، بل سارت الأمور في الكوفة بهدوء ، ولا يحتاج الموقف الى أخذ احتياطات أكثر مما اتخذها رجال الدعوة في نشرها ، وجلب أكبر عدد ممكن من ذلك المجتمع الكبير اليها .

وقد كانت العناصر المختلفة والفئات المتنازعة تعمل بالخفاء لاحباط الحركة ، وفشل الدعوة ، فكانوا ينضمون الى الجهة الموالية للامويين ، ويشجعونهم في المبادرة من جهة ، ويشاركون رجال المعارضة من جهة أخرى ، ليأعبوا الدور الذي يضمن سلامة مصالحهم ، وتحقيق أهدافهم وفي ذلك الجو الهادئ ، والاقبال الهائل على مبايعة مسلم ، انفجرت الكوفة عما تخبئه الأقدار وتضمه الحوادث ، وإذا بها تموج كالمرجل وتسرع الى الانقلاب كالسيل من رؤوس الجبال ، وإذا بتلك الجموع تتجه اتجاهاً عكسياً .

الحملة القاسية :

لقد فوجيء مسلم بن عقيل (ع) بقدوم ابن زياد واتخاذ تلك الحملة القاسية من أخذه الناس بالشدة ومعاملته لهم بالقسوة والعنف فالرعب قد انتشر بالكوفة ، والحذلان أخذ دوره في صفوف الناس ، والاعتقالات متواصلة ، والصلب على الأبواب والقتل في الساحات .

وكان موقف مسلم موقف الحكيم المتيث الذي ينظر الى عواقب

الأُمور بدقة ، فلم يقدم على ايقاع البلد في هوة حرب أهلية ، ولم يتعجل بمن معه من أنصاره فيهاجم ابن زياد ، وليس من خطته المهاجة ، ولا هو مأذون في ايقاد الثورة فهي عقيمة النفع سيئة النتائج .

كما أن علو نفسه ، وشرف محته لم يسمح له بأن يستعمل الغدر ، والخيانة حيناً دعى للفتك بابن زياد في دار شريك .

وما يروى أن جارية شريك اعترضته عندما أراد تنفيذ الخطة فذاك أمر لا صحة له ، فإن مسلم بن عقيل لم يكن بتلك الدرجة من جهل العواقب في قبح القتل بالغدر ، والأُمور السيئة المترتبة على تنفيذ تلك الخطة ، ولو أنه قام بتنفيذها فهل يا ترى يصفو الجو ، وتطوى صحيفة سيادة الأمويين على الكوفة وينتهي كل شيء ؟ أم تتضاعف المشكلة ، بوجود الكثير من الزعماء فيقومون مقام ابن زياد ؟ هذا من جهة .

ومن جهة أخرى أن الخطة لو نفذت لكانت فتحاً جديداً لبني امية في اسناد وصمة الغدر والفتك لأهل البيت وبهذا العمل تقوم دعاياتهم المغرضة ضد دعوة الحسين ، بأن فاتحة عهده مبني على الغدر والخيانة ، فكيف تطمئن النفوس اليه ، ويظهر ممثل الحسين وسفيره بصورة لا تتفق مع واقعه ، فهو قد جاء ممثلاً عن الحسين وليس هذا من رأي الحسين ، ولو فعله مسلم لخالف الحسين وأصبح خارجاً عما رسمه له من مخطط السفارة .

ولقد تمسك مسلم بما شرعه الله وسار على ما يقتضيه نظام دعوة الحق .

دور التكتّم:

انتقلت الدعوة من دور الاعلان إلى دور التكتّم ، فقد اعتقل اكثر زعماء الشيعة، وانقلب اهل الاطماع لجانب ابن زياد وطلبوا وده، فاختفى اكثر من اشترك في الكتابة للحسين ، وحبست البيوت رجالها خوفاً من ابن زياد وأمسكت الامهات بأولادها ، والقبائل بزعمائها وبقي مسلم (ع) يواجه هذه المشكلة بصبر وتأن ، ولم يتسرع في تفجير الثورة وصار خلّص اصحابه يختلفون اليه لمعالجة المشكلة - من طرقها المشروعة تجنباً من خطر المسارعة في الأمر قبل احكامه .

وكان أهم شيء يشغله هو كتابه للحسين في طلب القدوم إلى الكوفة وقد اصبح الوضع يسير على خط معاكس ، اذ انحرفت عنه الأغلبية ، وأصبح الأمر بيد العرفاء والمتقربين للدولة طمعاً في السلامة .

* * *

لقد كان مسلم يركن إلى جهة قوية متماسكة ، قوامها زعماء مخلصون لهم أتباع اقوياء ، وحلفاء أوفياء ، كحبيب بن مظاهر والمسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي ، ورفاعة بن شدّاد ، والمختار بن ابي عبيدة ، وعابس بن شبيب الشاكري ، وغيرهم من زعماء الكوفة وأعيان الشيعة وهم ابطال المصر ، وقواد الثورة وبامكانهم الاستيلاء على الحكم وطرد النعمان بن بشير عندما كانت الامور مواتية لولا أن القضية كانت تسير

على مخطط مرسوم ، لا يصح تجاوزه ، لأن المصلحة تدور حول السير عليه .

وقد سار مسلم بن عقيل على خط اسلامي صحيح وسلك طريقاً سليماً ولم يدخل في معركة دموية ، ويوقع البلد في معركة داخلية .

ولكن المفاجئة الغريبة التي حدثت بقدم ابن زياد فقد ارتبك الوضع واضطرب جبل الاستقامة . واصبحت القضية على ابواب الخطر .

في بيت هاني :

هناك انتقل مسلم بن عقيل من دار المختار بن ابي عبيدة الى دار هاني ابن عروة فانه أمنع جانباً لمكانته وزعامته ، وكان هاني ممن أدرك النبي ، وقد وصف المؤرخون عظمتهم في قوته وعزته في عشيرته ، ومنعته في بلده : فانه كان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فاذا اجابتها أحلافها من كندة وغيرها ، كان في ثلاثين ألف دارع^(١) .

* * *

وكان ابن زياد قد سار في خطة ارهايية ، وأعمال تعسفية من اعتقالات متواصلة وهجوم على البيوت الآمنة ، وقتل جماعي .
وظهر التشفي والانتقام بين الأفراد وساد الخوف وانتشر الرعب .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩ .

فكانت الكوفة كزورق بين عواصف تتلاطم عليه الأمواج ، وهو بعيد عن ساحل السلامة .

وأقام مسلم في بيت هاني مكرماً معزراً ، ويتردد عليه اصحابه ، ومن هناك اتخذوا التجمع استعداداً للوثبة ، عندما يداهمهم أمر يلزمهم الدفاع عن مسلم ، وحماية جانبه ، أو عندما يقدم الحسين عليه السلام .

وهذا التجمع أشبه شيء بتجمع أفراد فان أكثر الزعماء قد اعتقلوا وبعضهم سافروا الى الحجاز لأداء فريضة الحج ومصاحبة الحسين ، كعابس ابن شبيب البطل الشهير ، وان القيادة في الثورة لها جانب مهم وبدون شك أن الثورات يتوقف نجاحها أو فشلها على القيادة .

وقد تحكمت خطة التفرقة وهي المادة التي سار عليها الأمويون في حكمهم ، وقد انقسم المجتمع إلى عدة فئات ، كما تحكمت الدعايات والتهريج والاشاعات الكاذبة .

وعلى أي حال فالكوفة باتت تغلي بعوامل الثورة والعناصر متناحرة ومسلم له أنصاره ، وابن زياد جاد في عمله ، والحياديون انقسموا إلى قسمين ، قسم دخل مع ابن زياد ، وقسم ينتظر قدوم الحسين ومسلم لا يرغب في اراقة الدماء ، وهو ينتظر قدوم الحسين فهو أولى بالأمر ، وأعرف بالواقع ، وكيف كان فان ابن زياد واصل نشاطه وبث جواسيسه في القضاء على دعوة مسلم .

* * *

لقد كان موقف هاني بن زياد ، فهاني زعيم وله مكانته وأثره فلم يقدم على ابن زياد فيسلم عليه ، فسارع للقضاء على هاني قبل أن يأتي الحسين ، ليصفو له الجو وليتخلص من المعارضين ويكشف عن مسلم واتباعه .

لأن القضاء على هاني هو هدم لأكبر حصن للحركة ، وقد انكشف له أن مسلم في بيت هاني ، وتجري هناك الاجتماعات السرية ، فاحضر الزعماء ، واطهر التلطف بوجوه البلد ورؤسائها ، وذكر هاني بن عروة ، فانه لم يسلم عليه ، وهو يتشوق لرؤيته ، فقالوا : إنه مريض . اعتذاراً عنه ، وحفظاً لمقام هاني .

فقال : لو علمت بمرضه لعدته ، ثم طلب منهم الذهاب اليه ، فارسل جماعة وهم اسماء بن خارجة ، ومحمد بن الاشعث ، وعمر بن الحجاج ، فركب هؤلاء اليه وسألوه المسير إلى السلطان فان الجفاء لا يتحملة وألحوا عليه ^(١) .

فركب معهم ، ولم يدر في خلد أنه يؤخذ على حين غرة ، أو تخذله عشيرته وحلفاؤه ، وهو عزيز الجانب له عدة وعدد . ولا يعلم ما أضمرته الأقدار له فخاطبه ابن زياد بلهجة الجفاء والغلظة فاجابه هاني بعزة وثبات واشتد غضبه عندما طلب منه أن يأتيه بمسلم بن عقيل وهدده بالقتل إن لم يفعل فقال هاني : اذا تكثر البارقة حولك وهو يقصد عشيرته وأحلافه .

(١) الارشاد للشيخ المفيد . وبحر العلوم في رجاله .

وكان ابن زياد قد دبر الامر ، وأحكم الخطة ، وغامر مغامرة شديدة فتجراً على هاني وأهانته بكلامه ، وهاني لا يستطيع الدفاع عن نفسه ثم اعتقل في القصر .

وكان لنبا اعتقال هاني وقع مؤلم ، وجرت تحركات فاشلة وارتجج القصر لهذا الحادث ، ووقف ابن زياد موقف عدم المبالاة ، وكان هذا أول خطر يحيط بحركة مسلم ، فاعتقال هاني يعرقل سير العمل السري وقتله لا يبقى أثراً للعمل فتقرر أن يقوم مسلم بالافراج عنه وعن بقية المعتقلين ؛ لأنه بالفعل يملك قوة تمكنه أن يدافع عن نفسه ، ويمكنه خلاص هاني ، وشاع اعتقال هاني وغضبت مذحج حتى أحاطوا بالقصر يحاولون الافراج عن هاني ^(١) .

وبينما هم كذلك إذ خرج عليهم القاضي شريح فأخبرهم بسلامته ، وأنه لا يرضى تجمعهم وعندما اعتقل هاني لم يجد مسلم طريقاً للبقاء في دار هاني لانه اعتقل وتحولت الدار الى ماتم عزاء .

الزحف على القصر

عندما انتشر خبر اعتقال هاني ماجت الكوفة واستعدت الجموع المناصرة لمسلم ، وهي على أكمل عدة لانتظار أمر الزحف على ابن زياد لانقاذ هاني ، وأراد مسلم (ع) أن يكشف خبر هاني ، فارسل عبد الله بن

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٦

حازم الى القصر ، لياخذ الخبر ، فعاد عبدالله بما يسيء خبره ، من سجن هاني وضربه ^(١) .

وأقيمت النياحة في بيت هاني ، وحضرت نساء من مراد وهن يندبن ويقلن واثكلاه ، يا عزاته ، وهنا رُفع شعار الثورة : « يا منصور أمت » فتجمعت الجموع واحتشدت الجيوش ، وزحفوا نحو قصر الامارة ، وكان ابن زياد في المسجد والناس حوله ، وقد أحاط به زعماء الكوفة يخذلون الناس ، ويهددونهم ، من مخالفة الأمر ، وقام فيهم خطيباً :

« أيها الناس اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتحرموا . إن أخاك من صدقك ، وقد أعذر من أنذر .

ولما انتهى من خطبته التهديدية و اراد أن ينزل واذا بجلبة والناس يهرعون ، وحراس الابواب يفرون ، ويقولون : قد جاء ابن عقيل ، فاستولى الرعب على ابن زياد وهرب الى القصر هو ومن معه من الأشراف وأغلقوا الابواب عليهم .

* * *

كادت هذه الحملة أن تنجح ، لكن الأقدار معاكسة وكانت الحملة قوية في العدة والعدد فقد زحفت على القصر افواج العرب ، ورؤساء

(١) رجال بحر العلوم للعلوم ج ٤ ص ٢٦ .

القبائل ، يحملون رايات الحرب ، ويعلنون الثورة الملاحقة للعهد الأموي ، وكانت القيادة بيد مسلم ، وقد عبأ أصحابه حسب ما تقتضيه الخطط العسكرية ، وركب مسلم بن عقيل ونادى بشعاره « يا منصور أمت » فاجتمع اليه أربعة آلاف من أهل الكوفة ، وتقدم المختار بجيشه ومعه راية خضراء وعبدالله بن نوفل بن الحارث بن ابي ذرابة حمران^(١) .

وسار مسلم وسط الجمع بعد أن أحكم تعبئته ميمنة وميسرة ، وكان ابن زياد وسط جموع أصحابه ، فانهزم مرعوباً الى القصر ، وأدخل معه خواصه وحراسه ، واحاط مسلم بالقصر ، وضرب عليه الحصار بجيش كامل الاستعداد ، ومقسم الى كتائب فكان عبد الرحمن الكندي على ربع كندة وربيعية ، وكان مسلم بن عوسجة على ربع مذحج وأسد وابو ثامة الصائدي على ربع تميم وهمدان ، وعلى قریش والانصار العباس بن جعدة ابن هيرة .

وتتعاقب الجيوش إلى المسجد ، وابن زياد معتصم بقصره يدير وجه الحيلة حتى تتابعت أعوانه وجنوده ، ولكن لا قابلية له على المقاومة ما لم يستعمل خطة التخذيّل والارهاب ، فارسل زعماء العشائر ييثون في الناس روح الخوف ويحذرونهم من وصول جيش الشام ، فهو على الأبواب وانبت الرجال في البلد يخذلون الناس وينشرون الرعب ، وجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وتقول له : ارجع الى البيت يكفونك ويقول الرجل

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٤ .

لابنه واخيه : كأنك غداً بجنود الشام فماذا تصنع معهم فتخاذلوا وقصروا^(١) .

واقام ابن زياد باحكام الخطة فأمر عبدالله بن الحصين الحارثي أن يخرج بمن اطاعه من مذحج فيسير في الكوفة ويخذل الناس ويحذرهم العقوبة وأمر محمد بن الاشعث أن يخرج بمن اطاعه من كندة وحضر موت، فيرفع راية أمان لمن جاء من الناس^(٢) .

وتجمعت فلول المعارضة ، وسارع الخذلون بنشاط قوي وارتج البلد وكثر المرجفون في المدينة، وعلت الاصوات : جيش الشام جاء جيش الشام فهناك ظهر الضعف في جيش مسلم ، وبانت علائم التخاذل ولعبت المطامع دورها ، هذا وقد انتشرت في المدينة تلك الحملة من الدعايات وارتفعت ضجة في أرجائها تنذر الناس من خطر مداهم هو وصول جيش الشام وتقدم الأشراف والعرفاء بالانذار .

وكل يقول الحقوا باهلكم ولا تتعرضوا للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين قد اقبلت، وقد أعطى الأمير عهداً ، إن اقمتم على حربيه ولم تنصرفوا من عشيتكم بأن يحرم ذريتكم العطاء ، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البري بالسقيم والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقى لكم منه بقية من أهل المعصية ، إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها

(١) البداية والنهاية ص ١٥٥ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٠٥

وهذا الكلام يعتبر انذاراً خطيراً وتهديداً وتوعيداً فانصرف من استولى عليه الرعب ، وفر بنفسه من خطر مقابلة جيش الشام الفاتك ، وبعضهم انصرف برجاء التفاهم والحل بدون إراقة الدماء، وسرت التصفية في جيش مسلم ولم يبق الا أهل الثبات وعدتهم ٥٠٠ نفس .

الحلقة المفقودة

ظهر التصدع في صفوف جيش مسلم وبان الانقسام بعد التخاذل الذي أحدثته الدعاية ، والحرب النفسية ولم يبق معه إلا خمسمائة رجل كما قدمنا ، وهنا تقع اسئلة واستفسار عن مجرى الحوادث في هذا المجال ، من محاصرته للقصر إلى أن حوصر هو في محلة كندة ، عندما وافاه جيش الكوفة بقيادة محمد بن الأشعث فهل يصح أن مسلم عندما تفرق أصحابه واتباعه وبقي في خمسمائة من أصحابه ، صلى المغرب وليس معه إلا ثلاثين. فلما خرج من المسجد ليس معه إلا عشرة، فلما خرج من كندة وليس معه رجل يذله على الطريق ؟!

أجل ابن الخلصون من أنصاره ؟ ثم كيف يستطيع مسلم أن يخرج بمفرده وجواسيس ابن زياد تلاحقه ، فكيف غفلوا عنه ويخرج سائراً في أزقة الكوفة ، ولا يعرفه أحد ، حتى انتهى به المطاف الى دار طبوعة وأقعد العرش على بابها فتخرج وتجري بينهما محاورة :

يا رجل ما جلوسك على باب داري ؟
أريد شربة ماء !

فتدخل وتأتي بالماء فيشرب ولم ينصرف
فتخرج اليه وإذا به في مكانه فتقول :
ما جلوسك في باب الدار ؟ لا أحل لك
ذلك لإنصرف لأهلك .

فيقوم مسلم وهو يقول : ليس لي أهل
ولا عشيرة .

فتقف المرأة هنا موقف حنان وشهامة ،
فقالت لسه : من اين أنت ؟

فانتسب لها فعرفته وأضافته تلك الليلة .

وهي قصة طويلة ذكرها المؤرخون ولا أريد أن أقول أن شخصية
طوعة هي شخصية وهمية لا وجود لها في مجال هذا العرض التاريخي ،
كلا فإن طوعة لها ضلع في هذه الحركة ومشاركتها مع أهل الكوفة في
تهيئة جو السخط ضد الأمويين ، ولكن الإطار الذي برزت فيه
صورتها في هذا الحادث هو غير إطارها الواقعي ، ويمكن وضعها في
غيره ، ولكن لا نريد ان نتمحل في الفرضيات والوهميات ، فان طوعة
امرأة عربية موالية لآل محمد (ع) شأنها شأن كثير من نساء الكوفة
اللواتي أثبت التاريخ مواقفهن الحاسمة في مناصرة أهل البيت، ومن
الممكن أن يكون وقوع مضايقة مسلم ومن معه من قبل جيش ابن زياد
كان في محلة كندة ، قرب دار طوعة ، فقامت بواجبها من مساندة مسلم
وتشجيعه واعطائه الماء اثناء حملاته .

ونعود الى الحلقة المفقودة من تاريخ هذا الحادث العظيم فحين نترك

مسلم بن عقيل يخوض معركة قوية وقد ضرب الحصار على ابن زياد ،
وأقام الكوفة واقعدها ، فمن حقنا أن نتسائل : ان زعيم جبهة قوية ،
وقائد جيش عربي فيه أبطال من رجال الكوفة ، كيف انهارت تلك الجبهة
بهذه السرعة ويهزم ذلك الجيش ويبقى مسلم بمفرده وليس معه أحد
يدله على الطريق ؟!

فلنطو صفحة هذا العرض ونلتقي ببطلنا المجاهد في حرب
الشوارع .

حرب الشوارع

وأياً كانت التوجيهات في موقف مسلم فنحن مع بطلنا المجاهد في
محاصرته للقصر ، ومضايقته لابن زياد ، ونتركه في هذا الموقف ونلتقي
به في شوارع كندة وهي محلة من محلات الكوفة عندما اعتصم بها
فكانت مقابلة شديدة وتزال في الشوارع ، ومسلم بن عقيل يصول
كالأسد ، وقد وصفه بعض مشاهديه بأنه كان يأخذ الرجل في يده ويرمي
به فوق البيت ^(١) .

وقد اشترك في حربه الرجال والنساء والأطفال فالرجال بالسيوف
والرماح ، والنبال ، والنساء بالنار في اطنان القصب ، تلتهب ناراً فترمي
بها من أعلى السطوح ^(٢) والأطفال يرمونه بالحجارة ، وهو يقابل ذلك
بشجاعة وبسالة وثبات ويحمل عليهم ويقول :

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ .

أقسمت لا أقتل إلا حُرّاً وإن رأيت الموت شيئاً نكراً
كل امرئ يوماً ملاق شراً ويخلط البارد سخناً مرّاً
ردّ شعاع الشمس فاستقرا أخاف أن اكذب أو أغرا

ويصف موقفه بعض أدباء العصر الحاضر تعليقاً على هذا الرجز بقوله : وهذا الرجز هو في الناحية الفنية بأعلى درجة في البلاغة والتصور عما يختلج في النفوس .

إنه من الناحية النفسية صادق كل الصدق معبراً تعبيراً دقيقاً عن الموجات النفسية ، التي كانت تترفع في نفس الشاعر ، وهو في موقفه الضيق الحرج ، فهو قبل كل شيء مصمم على أن يحتفظ بحريته ، ولو أدى هذا إلى قتله وهو يعلن في صراحة وصدق أن الموت شيء منكر ، ولا يقول كما يقول غيره ممن يغالطون أنفسهم ، أن الموت شيء محبب إلى نفسه ، وإنما يعبر عن نفسيته تعبيراً صادقاً فالموت لا يحبه ، ولكنه لا يفر منه ما دام ، قد صمم على الاحتفاظ بحريته ثم يحاول أن يهدأ في روعه ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تتحسر عن نفسه دون أن تجذبها في تيار من الهلع والفرع .

فيحدث نفسه بأن الدنيا منقلبة ، وكل امرئ لا بد أن يلاقي فيها ما يسوؤه وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية بارعة .

فالبارد الحلو لا بد أن يخلط يوماً بساخن مر ، والأيام الناعمة القليلة لا بد أن يشوبها هجير الغيظ ، ولفحة الحر بل إن شعاع الشمس المتدفق

في حيوية ونشاط لا بد أن يرتد في النهاية ويستقر، فكل ضياء لا بد بعده من ظلام، وكل صباح باسم لا بد أن يرتد إلى غروب حزين، وإذا فما المشكلة النفسية التي يعانينا؟ انه لا يحاول أن يخفيها عنا، ويضلنا عنها ولكنه يعلنها في صدق تراح اليه النفس، إنه حريص على الحياة، ولكنه حريص أيضاً على الحرية، وحرصه على الحياة يغيره على تسليم نفسه إلى أعدائه، ولكن حرصه على الحرية يجعله متردداً لأنه يخشى بل يخاف أن يكذب عليه أعداؤه، ويخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده، بأن يموت في سبيل الحرية، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة أرأيت كيف استطاع أن يصور موقفه الضيق الحرج هذا التصوير الفني الرائع الذي يستمدروعه في تعبيره عن نفسيته تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا تضليل، ان هذا هو السر الذي يجعل هذه السطور القليلة من الرجز تؤثر في نفوسنا تأثيراً قوياً، يجعلنا نشعر بما كان يعانده قائلها من صراع داخلي هائل لا يعدله إلا صراعه الخارجي مع أعدائه^(١).

* * *

ومضى مسلم في جهاده وسط تلك الجموع التي ازدحمت في شوارع محلة كندة، وهو يدفعهم الى الانسحاب والفرار من بين يديه، وكانت

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٣٧١ - ٣٧٢. للدكتور يوسف خليف.

الحجارة من السطوح تنصب عليه ، والنيران تلتهب باطنان القصب ،
تتساقط من على الجدران الى الأرض لتعرقل هجماته .

وأدى ثباته في المعركة الى التغلب والانتصار على تلك الجموع ،
وقد عجز ابن الأشعث عن التغلب والانتصار في هذه المعركة ، فاعطاه
الامان غدرآ . فلم يجبههم الى ذلك .

وناداه مرة أخرى : لك الامان يا مسلم لا تقتل نفسك ، فلم يأمن
منهم ، واستمر في القتال على شدة عطشه ، وضعف بدنه ، وتزف دمه ،
من كثرة جراحاته ، فأعاد ابن الأشعث عليه الامان مرة أخرى ،
وقال :

أنك لا تكذب ولا تغر إن القوم بنو عمك ، فلم يأخذ بقوله ، واتجه
الى الجيش المحارب له ، ووجه سؤاله اليهم فقال : ألي الامان ؟

قالوا نعم : إلا عبيد الله بن العباس السلمي أحد القواد فانه قال :
لا ناقتي فيها ولا جملي ، وتنحى عن العسكر ، وكان مسلم قد استولى عليه
الضعف فاسند ظهره الى الحائط ، وتقدم اليه ابن الأشعث بالامان فقال :
مسلم لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم .

وبهذا ينتهي دور البطل المؤمن والشهيد الخالد الذي تحمل في سبيل
أداء رسالته أعظم المصاعب ، وواجه أشد المشاكل .

انه لم يعد يغامر بنفسه وبمن اتبعه فيخوض معركة يوقد نارها
خصوم الاسلام وشعارهم ' اينما أصابت فتح ' .

وقد حافظ على استقرار البلد وأمنه ، ولم يسع فيه حرباً داخلية يستغلها أعداء الإسلام ويتقد جرها بين القبائل فلا تتطفئ إلاّ ببحار من الدم. وليس وراء ذلك من نجاح للنهضة التي يمتد أثرها على مر الدهور فلو وقع في البلد ذلك لوئدت الثورة في مهدها .

التسليم :

وانتهى الأمر بتسليم مسلم بن عقيل ، واستيلاء أعدائه عليه بعد أن قطعوا الأمان على أنفسهم ، وتعهدوا بعدم أي ضرر يصيبه ، وهو عربي المحتد هاشمي النسب ، علوي النزعة ، يحتفظ بالنظم الإسلامية ، والتقاليد العربية فظن بهم خيراً ولا خير فيهم .

أنهم خدعوه بأمانهم ، ولا أمان لهم « إذ لا إيمان لهم » وأصبح ذلك البطل أسير أعداء لا يعرفون الرحمة ، وتحت أمر خصوم لا عهد لهم بالرفق جفاة غلاظ قد تجردوا من عروبتهم كما انسلخوا من عقيدتهم ، فاحاطوا به وانتزعوا سيفه . فقال : هذا أول الغدر .

فقال له محمد بن الاشعث أرجو أن لا يكون عليك بأس .

فقال مسلم : وهل هو الا الرجاء ؟ أين أمانكم ؟ ! إنا لله وإنا اليه

راجعون .

وسار مسلم مع قائد الجيش تحوط به الجند المدججون بالسلاح ، وقلوبهم تتقد بنار الغيظ لكثرة ما كبدهم من خسائر في الأرواح ، وقد تسابق المبشرون لابن زياد بالخبر .

واخترق مسلم الشوارع بالحالة التي هو عليها من كثرة الجراحات وآثار ضرب الحجارة ولهب النار من القصب ظاهر على جسمه ، انه يعلم بالشر الذي قد كمن له وراء دخوله على ابن زياد وآيس من وفاء القوم بأمانهم ، وعرف تقرير مصيره ، لأن الأمر يعود لابن زياد ، وهو الذي عرفت سيرته ، ولم تترك له امه سمية مجالاً لاكتساب أي فضيلة ، فعاش وقد ملأ وطابه من الرذائل .

* * *

كان مسلم يفكر والانكسار باد عليه، فاعترض عليه أحد مرافقيه وقال له : إن الذي يطلب مثل الذي تطلب لا يتأثر ١٢ .

فاجابه مسلم لم يكن هذا التأثير لنفسه وانما لأهلي المقبلين .

وحق لمسلم أن يفكر وأن يتأثر لما وراء حادثته من حوادث ، وما يتلوها من مآسي ، انه يفكر كيف يتدارك مشكلة كتابه الذي وجهه الى الحسين يطلب منه بسرعة التوجه للكوفة ، وهو لا يعلم بهذه النتائج المعكوسة وقد أصبح مسلم بن عقيل بمفرده، وهو الآن في طريقه إلى خصمه وعدوه الشديد ، والجيش محيط به، والسيوف مسلولة على رأسه، والرماح مشرعة إلى صدره ، ويتنظر من جهاته الأربع فلا يرى إلا شامتاً قد ظهر الفرح على وجهه ، أو غاضباً قد أحرق الغيظ قلبه .

إنه يواجه وجوهاً لا تعرف الحياء ، ولا عهد لها بالحنج ، وقد اشتد عليه الأمر ، فالوقت قائنض والدماء تنزف من بدنه ، واقتيد إلى باب

القصر ، فوجد هناك جماعة من الأمراء ومن أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه ، وهم ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد .

هذا ومسلم مخضب بالدماء وجهه وثيابه ، وهو مشخن بالجراح ، وفي غاية العطش ، وإذا قلة ماء هناك فأراد أن يتناولها ليشرب منها ، فقال له رجل من أولئك وهو مسلم بن عمر الباهلي : والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .

فقال له : ويلك يا ابن باهلة أنت أولى بالحميم ، والخلود في الجحيم مني ثم جلس متسانداً الى الحائط من التعب وشدة العطش .

هكذا يكون تغير الأحوال ، وانقلاب الأوضاع ، وهكذا تكون القسوة والغلظة ، وهكذا يكون تغير الزمن وتصرفه ، رجل أسير مشخن بالجراح دمه ينزف جسمه ناحل يمد يده الى ماء أمام عينيه ، ويمنع بأقصى رد وأقبح لفظ ، بمحضر من وجوه العرب والأمراء وابناء الصحابة ، ابن الحمية ؟ وابن النخوة العربية ؟ إنهم دخلاء لا صلة لهم بالدين ، ولا معرفة لهم بالتقاليد العربية .

وهنا توجه مسلم لابن الأشعث قائلاً : اني أراك عاجزاً عن أماني فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته .

فقال ابن الأشعث والله لأفعلن ثم كتب بما قال مسلم الى الحسين (ع) وأرسله مع رجل فلقيه الرسول بزروود .

مع ابن زياد :

احتشد القصر من مختلف الناس يهتفون بالامير بالنصر ويشاطرونه الفرح بالقضاء على مسلم بن عقيل وأسرته ، وهم ينتظرون نهاية مسلم ، وحكم ابن زياد فيه .

وهنا يدخل مسلم وقد طرز الدم أبراده النقية ، وصبغ جبهته بلونه القاني وأثر ضرب الحجر في جسمه .

انه موقف مؤلم ، وساعة حرجة ، ولكن ابن زياد يرى ذلك حلماً ، وهي أسعد ساعة تمر عليه ، أهذا سفير الحسين مسلم بن عقيل ؟ أهذا الذي أزعج الدولة قدومه ، وهز كيانه نبا وصوله الكوفة ، وبالأمر أزعج ابن زياد ، وأدخل الرعب في قلبه فلاذ بالفرار كالتخدر المحجوبة بقصره . ياله من نصر لقد انهار البناء الذي كان يحتمي به أعداء الأمويين ، وانحلت الجهة التي تساند الثائرين ، عندما قضى على القيادات الثورية التي كانت معقد آمال الجماعات المكبوتة ، والفئات التي تطلع إلى التخلص من مظالم الأمويين وعسفهم .

هذا مسلم بن عقيل الذي أزعج قدومه يزيد بن معاوية في الشام ، وفقد ابن زياد استقراره في الكوفة واصبح الكيان الأموي مهدداً بقدومه ، لقد زال كل شيء ، ها هو بين يدي ابن زياد ، وينتظر الناس حكمه فيه . ويقوم ابن الأشعث قائد الحملة لقتال مسلم في الشوارع ، ويخبر ابن زياد بأنه اعطى الامان لمسلم .

فأجابه ابن زياد باستنكار وتهور ، وما انت والامان !! كأننا
ارسلناك لتؤمنه اننا ارسلناك لتأتينا به .

وهنا عرف ابن الاشعث نوايا ابن زياد السيئة ، وذهب تعهده لمسلم
وأمانه له ادراج الرياح ، ودخل مسلم يرتدي أبراد العز وحمة قريش ،
وكرامة العروبة ، وعزة الدين ، فلم يسلم على ابن زياد . فاعترضه الحرس .
لَمْ يَلَمْ تَسْلَمْ عَلَى الْأَمِيرِ !!

فأجابه : ما هو لي يا مير .

فقال عبيدالله : لا عليك سلّمت أو لم تسلم
فانك مقتول .

قال مسلم : ان قتلتي فقد قتل شر منك
من كان خيراً مني .

فغضب ابن زياد ، وخرج عن اتزانه إلى
وحش أهوج .

فقال : يا شاق يا عاق خرجت على إمامك
وشققت عصي المسلمين ، وألحقت الفتنة .

فأجابه : كذبت يا ابن زياد ، والله ما كان
معاوية خليفة باجماع الامة ، بل تغلب على
وصي النبي بالحيلة ، واخذ منه الخلافة بالغصب
وكذلك ابنه يزيد ، وأما الفتنة فانك ألحقتها
انت وأبوك زياد بن علاج من بني ثقيف ، وأنا
ارجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شريرته
فوالله ما خالفت ، وما كفرت ، ولا بدلت

وانما انا في طاعة امير المؤمنين الحسين بن علي ،
ابن فاطمة بنت رسول الله (ع) ونحن أولى
بالخلافة من معاوية وابنه ، وآل زياد .
فقال ابن زياد : وقد اشتد غضبه : لقد
منتك نفسك امراً احالك الله دونه ، وجعله
لاهل .

فقال مسلم : ومن اهل يا ابن مرجانة ؟

قال : اهل يزيد ومعاوية .

فأجابه مسلم : الحمد لله وكفى بالله حكماً
بيننا وبينكم .

فقال ابن زياد : اظن أن لك من الأمر شيئاً .

قال : لا والله ما هو الظن ، ولكنه اليقين .

فقال : قتلي الله ان لم اقتلك .

قال مسلم : أنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح

المثلة ، وخبث السريرة ، والله لو كان معي

عشرة ممن اثق بهم ، وقدرت على شربة ماء

لطال عليك ان تراني في هذا القصر ^(١) .

فاقبل ابن زياد على مسلم بلغة الجاهل المتهور والاحق الطائش
والظالم المستبد ، وجرت بينهما محاوراة طويلة ومشادة عنيفة ، ذكرها
المؤرخون واعرضنا عن عرضها بكاملها ^(٢) .

(١) الفتوح ٩٧/٥ - ٩٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٥٦ .

نهاية المأساة

كانت نهاية ابن عقيل البطل أن يأمر ابن زياد في قتله بصورة وحشية فقد أصدوه على السطح ، وهو يهتل ويكبّر ويسبّح ، ويصلي على ملائكة الله ويقول : اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا .

وهناك نفذ فيه حكم ابن زياد في القتل الذي جرى على يد بكر ابن حران .

وكان الناس خارج القصر وهم ينتظرون نهاية الموقف ، وما يؤول اليه أمر مسلم وكانوا يفترضون الامور ويظنون الظنون ، فما شعروا واذا بجثة مسلم تهوي من أعلى القصر ، وبعدها أتبعوها بالرأس الشريف .

وعندما أمر ابن زياد باصعاده إلى القصر ، التفت مسلم الى محمد بن الأشعث فقال : والله لولا أمانك ما استسلمت .

قم بسيفك دوني قد اخفرت ذمتك .

وتوجه الناس باللوم على ابن الأشعث الذي خان عهده ، ولم يف بأمانه لمسلم كما أنه أخذ سيفه ودرعه ، وقد هجاه الشاعر :

وتركت عمك لم تقا تل دونه فشلا ولولا انت كان ممنا
وقتل و افد حزب آل محمد وسلبت أسيافا تقيه وادرعا^(١)

(١) محمد رضا امين : الحسن والحسين ص ٨١ .

ولما نزل قاتل مسلم قال له ابن زياد : ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟
قال : كان يسبح ويستغفر فلما اردت قتله قلت أدن مني الحمد لله
الذي أمكنني منك ، وأقادي منك فضربته ضربة لم تغن شيئاً .

فقال : أما ترى في خدش تخدشنيه وفاء من دمك أيها العبد ؟ !!
فقال ابن زياد وفخراً عند الموت ، قال ثم ضربته الثانية فقتلته^(١) .

هاني بن عروة:

وكان هاني بن عروة سجيناً في القصر ، ليس له من يجيب طلبته فقام
ابن الاشعث يتشفع فيه وقال : إنك عرفت منزلة هاني في مصر ، ومكانته
في العشيرة وقد علم قومه اني انا وصاحبي سقناه اليك ، فانشدك الله لما
وهبته لي : فاوعده أن يفعل .

ولكن بعد أن أمن كل خطر من أهل الكوفة ، واستولى على زمام
الامور ، أراد أن يضرب الرقم القياسي في الشدة والاهانة لزعماء العرب ،
فيرهب به قلوب الآخرين فأمر باخراج هاني إلى السوق ، حتى انتهى إلى
مكان تباع فيه الغنم ، وهاني مكتوف اليد ، وينادي يا مذحجاء ، ولا
مذحج لي اليوم ، واين مني مذحج ؟ فلما رأى ان أحداً لم ينصره
ضرب يده فترعها من الكتاف ثم قال : أما من عصا أو سكين أو حجر
يدافع به الرجل عن نفسه ، فوثبوا عليه فشدوه ثم قيل له :

(٢) علي جلال الحسيني ج ٢ ص ٧٧ .

أمدد عنقك فقال : ما أنا بها بسخيء ، وما أنا
معينكم على نفسي فضربه غلام تركي لابن زياد
فلم يصنع السيف فيه فقال هاني إلى الله الممدد
اللهم إلى رحمتك ورضوانك ثم ضربه اللعكي
فقتله (١) .

ثم أمر ابن زياد بسحبه في الاسواق امام اعين عشيرته واحلافه تحدياً
للكرامة العربية وسحقاً للقيم كما أمر بصلب جثته وجثة مسلم بن عقيل
بالكناسر، منكوسين وارسل برأسيهما إلى الشام .

وكان يزيد على أحر من الجهرة وينتظر النتائج ، إذ وافاه البشير
بورود النبا مع هاني بن حية الوداعي، والزيير بن الأروع التميمي يحملان
رأسي البطلين مسلم بن عقيل وهاني بن عروة . ومعها كتاب فيه
ما أراد .

فأجابه يزيد بكتاب قال فيه :
بلغني أن هاني قد فصل من مكة متوجهاً
إلى العراق فاترك العيون عليه وضع الارصاد
على الطرق ، واحترس واحبس على الظنة ،
واقتل على التهمة . وبهذا يفوض ابن زياد من
قبل أميره وسيده أن يتحكم في الأمور وأن
يأخذ على الظنة ، ويقتل على التهمة .

وانتهت المأساة بتلك الصورة التي تبعث على الدهشة والاستغراب
من تلك النهاية المحزنة إذ لم يكتف القوم بقتل مسلم وهاني ولكنهم أمروا
بأن تربط أرجلهم بالحبال ويسحبان في الاسواق .

(١) المجالس ٧٩/١ .

انها حالة مؤلمة ، وحادث عظيم ، فالاسواق مزدحمة ، وإذا بجليلة الغوغاء يخترقون الطريق ، وينفرج الناس سباطين ، وتمر جنازة مسلم ابن عقيل سفير الحسين ومثله وإلى جنبه جنازة هاني بن عروة رئيس مذبح وزعيم الكوفة وهما يجران بارجلهما بالحبال .

هكذا جرت مراسيم تشييع جنازتي هذين المجاهدين في بلد اسلامي ، في الكوفة العربية الثائرة وهكذا فليكن الانتقام والتشفي بالمسلمين من خصومهم ، وفي العرب من اعدائهم من الدخلاء على العروبة .

لقد جاء القدر بما لم يكن في الحسبان ، ويقع ما لم يكن متوقعا ، من سوء الوضع وسرعة التحول بهذه الصورة المفاجئة .

وامام هذه المفاجئة الغريبة ، يقف الانسان متسائلا :

كيف استطاع ابن زياد السيطرة على الموقف وأخذ ذلك الهياج ، الذي غمر الكوفة لتفجير ثورة شاملة ضد سلطان الامويين الفاشم ، فاصبح البلد بعد ذلك الوضع الثوري يستسلم ويفقد كل امكانياته ، للحفاظ على سمعته وكرامته !!؟ .

ولقد كان مسلم بن عقيل تسانده جبهة قوية تضم ألمع الشخصيات العربية وهو سفير الحسين ومثله ، فكيف انهارت الجبهة ؟ وأين الزعماء الذين ساندوه ، فيصبح وحده في ذلك البلد الذي بايعه فيه ثمانية عشر ألفا ، فأين ذهب

هؤلاء ١٢ وابن شيعة الكوفة التي اشتهرت
بأهمها علوية بوجه عام ١١٢
إلى غير ذلك مما يسبق إلى الاذهان التساؤل
عنه ، ومعرفة العوامل التي ادت إلى هذه
النتائج المهزلة .

ويبدو الجواب واضحاً - على ما اعتقد - بتأمل بسيط والقاء
نظرة فاحصة ، مجردة عن كل عوامل الانحراف عن الواقع ، فنلقى
الأضواء على مجتمع الكوفة ، ومعرفة العناصر المختلفة فيها ، والآراء
المتفرقة بين أهلها ، والقوميات المتعددة والقبائل المتناحرة والعصبيات
القبلية التي تحكمت في ذلك المجتمع .

نعم بعد التعرف على ذلك يستطيع الانسان أن يحكم بما هو الواقع ،

* * *

إن ابن زياد لم يدخل بلداً متماسك القوى ، متحد الاتجاه ، متفقاً في
الآراء بل كانت الكوفة مركزاً للتجمع من جميع القوميات ، من عرب ،
وفرس ونبط وغيرهم .

كما أن فيها من أهل الأديان المختلفة ، والمذاهب المتفرقة ، عدد غير
قليل فاصبحت مرتعاً خصباً لدسائس اليهود الذين سكنوا الكوفة أيام
الفتح والتحق فيهم من أجلاهم عمر بن الخطاب من المدينة وفيها للخوارج
مركز اجتماعي ، والعثمانية هم الحزب الحاكم .

اما الشيعة فلمهم مكانة مرموقة اذ هم يمثلون جانب المعارضة للسلطة
فهم قاعدة ثورية ينضم اليهم كل من يسأم الحياة تحت ظل الحكم
الاموي .

وقد انضم الخوارج إلى الشيعة لاتحاد الهدف في بغض الامويين
واشتركوا في مراسلة الحسين ، وعند قدوم ابن زياد استسلموا له خوفاً
منه . فرجحت كفة ابن زياد باستعماله خطة الارهاب ، والقضاء على
المعارضة .

والى جانب الارهاب ، وتطبيق العقوبات عمد الى نشر الدعايات في
البلد ، حتى بلغت الى حد الاساطير ، وهو يقصد التغلب على الوضع ،
وتفتيت معنوية الجماهير .

وقد مر بيان البعض من ذلك، ولزيادة الايضاح ننقل لدراسة مجتمع
الكوفة عسى أن تتضح العوامل التي ساعدت ابن زياد ، فهل هي
عوامل نفسية يتصف بها أهل الكوفة فوسموا بالخيانة والغدر .

أم أن هناك عوامل خارجية واجتماعية وسياسية، وكذلك يبدو بجلاء
مقدار صحة ذلك التقسيم غير العادل : (الكوفة علوية ، والبصرة ،
عثمانية ، والشام اموية) .

الكوفة :

هي من أهم العواصم الاسلامية ، ولها اثرها في التاريخ السياسي ، والحضاري فقد ازدهرت فيها الثقافة الاسلامية ، كما أنها ذات موقع جغرافي له اثره للاهتمام بمرکزها على الصعيدين السياسي والتجاري ، إذ كانت مصدراً لكثير من المواد التي تحتاجها البلدان الأخرى ويرتادها التجار من مختلف الأقطار النائية .

الكوفة انشأت سنة ١٧ ايام الفتح الاسلامي لتكون معسكراً ثابتاً للجيش الاسلامي ، فكان المقاتلون يقدون اليها من ارجاء الجزيرة العربية فيقيمون في المعسكرات كجنود مدربين على ابهة الاستعداد ، لخوض المعارك عندما يداوم البلاد الاسلامية عدو ، فكانت تضم اكبر عدد واقوى جند للحرب وهم ينتظرون صدور الأوامر بالخروج إلى الغزو ، أو امداد غيرهم من الجيوش الاسلامية في مختلف الارحاء ، وقد تدفق الجيش منها إلى بلاد فارس وغيرها من البلدان التي فتحها المسلمون ، ولهذا كان الكوفيون يشددون على الأمويين غضبهم في تصرفاتهم بأموال الأمة ، لأن الكوفيين يعتبرون أنفسهم هم الجيش الفاتح ، وعلى عواتقهم تم انتشار الاسلام ، وبسواعدهم فتحت فارس والروم .

وكانت الكوفة من أول تأسيسها مقسمة الى سبعة كادرات ، وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم ، والاعطيات بعد العودة من قبل رؤساء الأسباع .

والتقسيم لم يكن حسب المحلات من البلد ، بل قطعات قبلية بالنسبة إلى النسب أو الحلف وهي كما يلي حسب ما جاء في تخطيط الكوفة وتاريخها :

١ - كنانة وحلفاؤهم ، وكانوا يلقبون بأهل العالية .

٢ - قضاة وغسان ، وبجيلة ، وخثعم ، وكندة ، وحضر موت ، وهم من اليانين وكانت السيادة فيهم لطائفتين وهما : بجيلة ويرأسها جرير ابن عبدالله البجلي وكان مقرباً للخليفة عمر وقد خصص لقومه عطاء سنوياً .

والقبيلة الثانية كندة وهي تحت امرة الاشعث بن قيس .

٣ - مذحج ، وحير وهدان وهي العناصر اليبانية .

٤ - تميم ، والرباب من العناصر المضرية التي لم يبق منها سوى تميم .

٥ - أسد وغطفان ، ومحارب ، وغير ، من بكر بن وائل ، وتغلب ومعظمهم من ربيعة .

٦ - اياد ، وعك ، وعبد القيس أهل الهجر الحمراء .

فبنو عبد القيس نزحوا من البحرين (الهجر) تحت قيادة رئيس من سلالة ملكية ، هو زهرة بن حوية السعدي أحد اعلام الفتح واقطابه .

واما الحمراء فكانوا حلفاء عبد القيس وهم اربعة آلاف جندي فارسي يرأسهم رجل يسمى ديلم ، ولهذا عرفوا بحمر الديلم ، هم الذين التجأوا

إلى سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية من بقية جيش الفرس وتحالفهم مع عبد القيس بعد معركة القادسية وقد لعب هذا الفيلق دوراً رئيسياً ، وكان هو الجيش المتقدم في عهد زياد وابنه عبيد الله كما انه السابق لحرب الحسين وقد باشر المعركة ، وكان عدد افراده اربعة آلاف وقيل خمسة آلاف تحت قيادة عمر بن سعد .

٧ - وهذا الرقم قد دخلت منه جميع المصادر ، ولعله لقبيلة طي ، ذات الشأن من القدم وقد قل شأنها بعد مرور الزمن .

كان هذا التقسيم أيام الفتح ، وبعد أن دخل الامام علي الكوفة ، وأقام حكومته فيها سنة ٣٦ غير نظام الاسباع في الكوفة ، وعبثها على الترتيب التالي :

١ - همدان ، وحير .

٢ - مذحج واشعر ، ومعهم طي ، ولكن رايتهم خاصة بهم .

٣ - قيس وعبس ، وذبيان ومعهم عبد القيس ، واحلافهم .

٤ - كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة .

٥ - الازد ، وبجيلة ، وخثعم ، والانصار .

٦ - بكر وتغلب ، وبقية بطون ربيعة عدا عبد القيس .

٧ - قریش ، وكنانة ، وأسد ، وتميم وظبة .

وبهذا التقسيم يبدو لنا ظهور بعض القبائل ، وهي اما كانت مندجعة مع غيرها أو انها تزحت بعد عهد التقسيم الاول ، وقد راعى الإمام علي في هذا التقسيم بعض التقارب وامتزاج هذه القبائل من عدة وجوه .

وفي سنة ٥٠ هجرية أي في اماره زياد بن أبيه جعل الاقسام العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث اصبحت الاسباع اربعة :

الربع الاول : أهل العالية .

الربع الثاني : تميم وهمدان .

الربع الثالث : ربيعة وبكر وكندة .

الربع الرابع : مذحج وأسد .

وفي هذا النظام العسكري الجديد حاول زياد تحقيق اهداف سياسية كدمج همدان وهي القبيلة الشيعية مع تميم التي تبغض همدان .

* * *

وعلى هذا استقر التقسيم العسكري في الكوفة ، وله رؤساء مشهورون يعرفون برؤساء الارباع وهم على استعداد دائم للاستجابة عند دعوتها ، وسوقها لميادين القتال ، خوضاً لمعركة جديدة أو امداد لجيش يطلب الاغاثة ، وكان للمقاتلين عطاؤهم الخاص ، ورواتبهم من بيت المال .

فالكوفة اذاً قد اشتهرت بالصيغة العسكرية ، لانها اصبحت مقراً لجند الدولة فكان فيها من الجند في عهد يزيد سنة ٦٠ - ٦٤ وفيها ٢٠ الف جندي على أهبة الاستعداد كلهم من ابناء فارس .

وقد عرفت الكوفة واشتهرت بـ (كوفة الجند) فقد تولت فتح فارس ، ومدت الجيوش الاسلامية بالعون ، واشترك جند الكوفة بحرب

الروم ايضاً ، عندما استعان بهم ابو عبيدة بن الجراح وطلب من عمر أن يمه بجند الكوفة .

فكتب عمر إلى سعد بن ابى وقاص : أن يندب الناس إلى حمص ، فان ابا عبيدة قد أحيط به فتوجه الجيش من الكوفة ، وكسب نصف المعركة ، وتم له النصر .

وكتب اليهم عمر بن الخطاب يشجعهم بقوله : يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمعتها وسهمي الذي ارمى به ، إن أثاني شيء من هنا وما هنا .

كما مدحهم عمر ايضاً بقوله جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ، ويمدون أهل الامصار .

وقال رجل من أهل الشام إلى رجل من أهل الكوفة عندما قدموا على عمر : يا أهل الكوفة انتم كنز أهل الاسلام ، ان استمدكم أهل البصرة مددتموها ، وان استمدكم أهل الشام مددتموها .

* * *

والكوفة كما قدمنا هي مركز للتجمع من جميع القوميات ، فقد كان فيها بقية الفرس الذين زال ملكهم عن العراق والنبط الذين كانوا تحت سيطرة الفرس ، وكان في العراق يهود وصابئة ينتشرون في سواده وقد اجلى عمر بن الخطاب اليهود من المدينة ، فالتحقوا بيهود العراق وكان

هناك جماعة من النصارى ايضاً ، كما انها تضم كثيراً من المذاهب والاديان المختلفة وقد سكنها المسلمون بعد فتح فارس ، ولكن الاضطرابات لم تكن لتهدأ يوماً ما ، ولم تزل الكوفة موضع انتشار الخلافات والمشاحنات التي تنجم عن الاضطراب ، وعدم الاستقرار حتى قال فيهم عمر بن الخطاب للمغيرة بن شعبة : وأي نائب اعظم من مئة الف لا يرضون عن امير ولا يرضى عنهم امير !

واستمرت الكوفة في هذا التبرم بالولاة والتمرد عليهم وقد اشتد الأمر أيام عثمان بن عفان وكان المغيرة بن شعبة والياً من قبل عمر بن الخطاب فشكى أهل الكوفة الى عثمان فعزله وولى مكانه سعد بن أبي وقاص ثم عاد فعزل سعد بن أبي وقاص وولى الوليد بن عقبة ورغم ما كان الوليد يظهر التقرب للكوفيين والتعجب اليهم والرفق في معاملتهم حتى بقي خمس سنوات وليس على داره بواب ولكن الكوفيين شكوا منه اذ حصات منه خلافات ومخالفات للدين والعادات العربية فاضطروا إلى رفع الشكوى عليه عند عثمان وشهدوا عليه بالفسق ، وقد وقعت خلافات بين القبائل بسبب الوليد إذ حكم على جماعة بالقتل كانوا قد ارتكبوا جريمة عظم وقعها على قبيلة من عوقبوا فأظهروا السعداء للوليد ولعثمان واتسعت شقة الخلافات وكثرت الفتن والمشاغبات فكانت غير مستقرة على رأي .

* * *

والأمر الذي لا شك فيه ولا خلاف حوله ، هو أن الجيش الاسلامي

الذي نزل الكوفة نزلها قبائل ، وإن كل قبيلة اختطت لها خطة مستقلة
وأن الحياة الاجتماعية بدأت في الكوفة حياة قبلية .

وتنضي الحياة في الكوفة قبلية ، كما بدأت فيها الاحساس بالقبلية ،
وفيها غلبت روح القبلي ، على كل شيء ومن هنا غلب على الحياة فيها
طابع الجاهلية^(١)

وكان من نتيجة هذا أن اخذت العصبية كل حياة القوم الاجتماعية
في جميع اتجاهاتها ، فقد أمضوا اوقاتهم هناك يثيرونها ويتحدثون بها ،
ويتعقبون باحاديثهم ، ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الاسلام
وكأنما ذهب وصايا النبي (ص) وما دعى اليه من نبذ التفاخر، والتكاثر
مثل قوله في خطبة الوداع :

أيها الناس إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية
وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب^(٢) .

وعلى هذا فالكوفة تتصف بطابع الخلافات لضعف الروابط بين
اهلها ولاختلاف العناصر والقوميات ، وتحكم العصبية القبلية مما جعل
الخلافات بين العرب انفسهم يزداد على مر الزمن ويتسع باتساع البلد
وكثرة السكان .

كما تضاعفت عوامل الفرقة بين الأمويين والكوفيين وتعددت أسباب
الخلافات لعوامل كثيرة واتسعت شقتها ومن ذلك :

(١) شوقي منيف التصور والتجديد في الشعر الأموي ٨١/٨٠ .

(٢) المصدر السابق .

ابعاد جماعة من زعمائهم وعلى رأسهم مالك الأشتر النخعي ، عندما
نقدوا سيرة ولاية عثمان ، فأمر بأخراجهم الى الشام ^(١) .

وان تلك القبائل العربية ذات النخوة والشرف ، والقدم في الحروب ،
قد ساءها ما تتمتع به بنو أمية ، من تلك الاقطاعات الكبيرة ، وتوفر
المال عند رجالها ، دون غيرهم من رجال العرب الذين سكنوا الكوفة ،
وهي القاعدة الحربية التي أعدت للفتح والدفاع ، وقد تعود ساكنوها
على الحرب والفتح أيام عمر بن الخطاب ، فلم يتيسر ذلك أيام عثمان فلا
غزو ولا غنائم ، ولا حرب ولا فتح ، كما ان تولي مهام مناصب
الدولة لبني أمية خاصة وهو من أهم الأسباب التي وسعت شقة الخلاف
بين الأمويين والكوفيين أيام الخليفة عثمان .

فقد كان معاوية على الشام ، وعبدالله بن ابي سرح على مصر ، والوليد
ابن عقبة على الكوفة واعقبه سعد بن العاص ، وعلى البصرة عبدالله بن
عامر وكان ممثله الخاص والمتولي على الأمر باسمه : مروان .

* * *

وعلى أي حال فقد تركز الخلاف بين الكوفيين وبين الأمويين خاصة
ويرجع ذلك لعهد عثمان ، فقد كانت الكوفة حسب وضعها السياسي
ومنهجها العسكري ، أن تقف للولاية الذين تقعد بهم قابلياتهم عن أداء

(١) البلاذري انساب الاشراف ٤٣ .

واجبهم موقف المعارضة بشدة ؛ لأن الكوفيين يرون في انفسهم انهم جند
الفتح وابطال الاسلام ، وهم قوة الدولة وعلى اكتافهم قامت الفتوحات ،
اذ بذلوا كل امكانياتهم في تحقيق النصر ، فلا يقعد بهم عن المعارضة خوف
ولا يمنهم عن شهرة السيف سلطة ، فهم على استعداد بأن يشهروا السلاح
في وجه الحاكم الذي لا يرتضون سيرته ، فقد طعنوا على سعد بن ابي وقاص
أيام عمر بن الخطاب وتبرموا .

وكان الخليفة في المدينة يحس بهذا الخطر ويراقب الاحداث عن
كثب وكانت في ايام عمر مقابلات ومشادة بينهم وبين الحكام تداركها
عمر في تحقيق رغبات الكوفيين بعزل الوالي من ايام عمار بن ياسر فقد
وقع اختيارهم على ابي موسى الأشعري ولكنه لم يسلم من طعنهم .

* * *

وكان للخوارج نشاط في الكوفة ، ولهم مركز اجتماعي وهم يتفقون
مع الشيعة في بغض الأمويين والسعي للإطاحة بحكمهم لأنهم لم يجدوا
في العهد الأموي الا التعذيب والجور في الحكم ، فقد سكن جماعة من
خوارج البصرة ايام زياد بن أبيه فأنزلهم الأذى منه ، وعذبهم انواع العذاب .

وكان زياد بن أبيه شديداً في سياسته قاسياً في حكمه ، وهو على
الخوارج أشد ، منهم على غيرهم فقد أخذهم بعنف وشدة حتى التجأوا إلى
الاختفاء والتشرد ، وذلك انه جعلهم تحت رقابة الرؤساء منهم
فاذا أحسوا منهم بمخالفة قدموهم لينتقم منهم أشد الانتقام .

وخرج الخوارج مرة وكانت معهم امرأة فظفر بها زياد فقتلها ثم عراها فلم تخرج النساء بعد ذلك فهرب اكثرهم إلى الكوفة خوفاً من القتل والتنكيل ، والتحقوا بجماعة الخوارج المقيمين بالكوفة بعد وقعة النهروان وكان لهم نشاط محسوس ، لأنهم أيام المغيرة بن شعبة لم يواجهوا امرأ يدعو إلى تفريقهم لأن المغيرة لم يرغب في منازلهم وتتبعهم فلم يعاملهم معاملة زياد بن ابيه في البصرة حفاظاً للامن والاستقرار الداخلي ومع ذلك فهم يشاركون المغيرة بن شعبة في مهمته التي قام بها في الكوفة والتي أقدم عليها بكل جرأة رغم ما كان يخشاه من سوء العاقبة ولكن الخوارج قد أيدوا جانبه ، لأنهم يشاركونه في ذلك وهو شتم علي ابن ابي طالب على منبر الكوفة إذ هم يشتمون علياً ، في نواديهم والمغيرة يشتمه على المنابر ويخاتلهم ويحتال لجليهم فلم تحصل بينهم وبينه فرقة فقيت شوكتهم .

وحسبي من البيان ما قدمت في هذا العرض لاعطاء صورة عن مجتمع الكوفة التي رسم لنا المؤرخون لها صورة تمثل التقلبات ، ووسموها بطابع الغدر والنفاق والخيانة ، والتذبذب ، والتردد ، وجعلوا ذلك وسيلة للطعن على الشيعة اذ اهل المؤرخون كل جانب من جوانبها الاجتماعية ، ولم يلتفتوا الى تلك العوامل المهمة التي أدت بمجتمع الكوفة الى انحلال الروابط ، وكثرة الفتن ، ونشر الفوضى في الاتجاهات .

واني لا اتكلف اختلاق الادلة ولا انا بحاجة الى التملحات في التوجيه

بل اقول بامانة وإخلاص : إن الكوفة لم تكن شيعية على الإطلاق ، ولم تكن نزعتها العامة نزعة علوية .

نعم ان ذلك الاطلاق في التسمية جاء متأخراً عن ذلك العصر ، يوم اشتد الصراع العقائدي بين المذاهب ، واستطاعت السياسة أن تفصل الشيعة عن المجتمع الاسلامي ، وسار بعض علماء الحديث والفقهاء في ركاب الدولة ، فمنعوا من قبول رواية الشيعي، لأنه مبتدع- كما يقولون- وقسموا الشيعي إلى معتدل ، ومخترق ، ورافضي .

فالاول هو الذي يحب الشيخين ، ويقدم علياً على عثمان .

والمخترق هو النبي يقدم علياً على الثلاثة، والرافضي هو الذي يبغض الثلاثة ويتبرأ منهم .

وبدون جدل ان الكوفة بمجموعها ما عدا العثمانية تقدم علياً على عثمان بل الغالبية يبغضون عثمان وهم الذين اطلقوا الشرارة الأولى عليه. فاطلاق التشيع على الكوفة انما هو اصطلاح استعمله المحدثون ولا نطيل الحديث حول هذا الموضوع فلنسنا بصدد البحث عنه ونعود إلى مسامرة ركب الحسين (ع) والحديث عنه :

نحو العِراق

العراق منطلق الثورات ، ومهد العروبة ، والاسلام ، ومضرب
المثل في شجاعته واقدامه ، كما عرف بطابعه السياسي ، المناوئ لكل
سلطة غاشمة .

عاش العراق في عهد معاوية وهو يرزح تحت نير الاستبداد والتعسف
واصبح يكابد الأم الفرقة ، ومشكلة انحلال الروابط الاجتماعية ، عندما
طبق الامويون سياسة (فرق تسد) لاقامة دعائم سلطانهم في فسحة
التباعد . والعراق يأمل التخلص من ذلك العهد الأسود ، والخروج منه
بين آونة وأخرى .

وكان الحاح الكوفة على الحسين بالقدوم اليهم هو غاية ما يصبو اليه
ذلك البلد ، وقد لاحت في الافق علائم النصر ، إذ بلغهم عزم الحسين
على التوجه إلى العراق ، بعد ورود كتاب سفيره ورائده مسلم بن عقيل
وبعد أن وردت اليه كتبهم ، ونزلت بساحته وفودهم ، وهم يحملون
الرسائل من الرجل والاثنين ، والثلاث ، والاربع ، وكلهم بانتظاره كما
ارسلت الكوفة ستين شيخاً من شيوخ البلد ، واعيان المصر لمرافقة ركب
الحسين عند خروجه من مكة . وقد لازمه ذلك الوفد حتى نزل في كربلاء
وقتلوا معه .

وبأت الكوفة تنهياً لاستقباله بفرح وسرور وكلهم بانتظاره ،
وعلى استعداد لنصرته ، ولم يبلغه (ع) خلاف نشأ في الكوفة عاصمة

العراق ، ضد استدعائه والاستغاثة به ، فالأندية تلهج بذكره ، واكثر القبائل ملتفة حول رسوله مسلم بن عقيل ، يحثونه على الإسراع لدعوة الحسين فالبلد كله مستجيب له .

هذا وكان هو على موعد مع زعماء الكوفة ، منذ وقوع الهدنة بين الحسن (ع) وبين معاوية . كما تقدم .

وشاع نبا عزم الحسين (ع) على الخروج إلى العراق بدون تحديد للوقت وتعيين للزمن .

واهتم يزيد لنبا عزم الحسين على الخروج إلى العراق ، فاتخذ شتى الوسائل للحيلولة بينه وبين العراق ، فاخذ يرسل جماعة من أعيان الصحابة لعرض وجهة نظرهم على الحسين في خروجه إلى العراق، ومنعه عن ذلك .

فكتب إلى ابن عباس كتاباً جاء فيه : وجاءه أي الحسين رجال من أهل هذا المشرق فمتوه الخلافة ، وعندك منهم خبرة وتجربة : فان كان فعل فقد قطع أو اشج القرابة ، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور اليهم ، فاكفهم عن السعي في الفرقة ثم كتب ابناً منها :

يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ سكنت
وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

فأجابه ابن عباس بقوله :
إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه

ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به
أمر الأمة ، وقطفى به النائرة (١) .

وكتاب ابن عباس هذا لا يعبر إلا عن تهدأة لخاطر يزيد حياً
لمعالجة الأمر ، وتدارك الفادحة، وكان رأي ابن عباس هو صرف الحسين
عن اتجاهه للاستجابة لدعوة أهل الكوفة ، ولذلك أشار عليه أن يسلك
طريق الانعزال وان يترك اعلان الحرب على يزيد ، والا فالشخص
إلى اليمن ، ويراسل أهل العراق ، فإذا لم يفعلوا ما يأمرهم ، فهنا ينطوي
على نفسه ، إلى أن يأتي أمر الله ، وهذا ما يدل عليه كلام ابن عباس
للحسين (ع) :

بلغني أنك تريد العراق ، وأنهم أهل غدر ،
وانما يدعونك للحرب ، فلا تجعل وان أبيت
الا محاربة هذا الجبار ، (يعني يزيد) وكرهت
المقام بمكة فاشخص إلى اليمن ، واكتب إلى
أهل الكوفة ، وانصارك بالعراق فيخرجوا
أميرهم ، وان لم يفعلوا ، أقمت بمكانك ، إلى أن
يأت الله بأمره فان فيها حصوناً وشعباً (٢) .

وكان ابن عباس قد جاء بشيء جديد ، وان القضية غير مدروسة
وان الحسين في أمر مبهم فجاء ليوضح الطريق ، أو يحل المشكل بسكوت
الحسين (ع) والإبتعاد عن يزيد ، فأشار عليه بالذهاب إلى اليمن لأن

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢١ التهذيب .

(٢) المسعودي مروج الذهب ٦٤/٣ .

فيها حصوناً وشعاباً ، وهي ارض عريضة طويلة ، وفيها شيعة للإمام علي ، فهو يريد من الحسين أن يكون بعزلة عن هذا العالم ، بعيداً عن المجتمع ومشاكله ، إذ يعيش في البلاد النائية ويلتحق بالجبال ، ويترك واجب الجهاد ، وكان الحسين لا تهمة إلا نفسه ، ولا يخشى إلا من عداه يزيد له ولأهل بيته ، وهو بمنزل عن المجتمع الإسلامي ، الذي اصطدم بعقبة كئود تنذر بأخطار العواقب .

وكان عبدالله بن عمر يشير على الحسين بترك الجهاد ، والدخول في بيعة يزيد بن معاوية ، وهو يمزج أقواله بنوع من النصيحة والاشفاق . دخل ابن عمر مع ابن عباس علي الحسين (ع) وهو يحاول أن يثنيه عن عزمه على الخروج فقال له :

يا أبا عبدالله قد عرفت عداوة هذا البيت لكم وظلمهم أياكم ، وقد ولي الناس هذا الرجل ، يزيد بن معاوية ولست آمن أن يميل الناس اليه .
لكان هذه الصفراء والبيضاء ، فيقتلوك ويهلك فيك بشر كثير ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : «حسين مقتول فلان خذلوه ولن ينصروه ليخذلنهم الله إلى يوم القيامة ، وأنا أشير عليك أن تدخل في صالح ما دخل فيه الناس وتصبر كما صبرت من قبل» (١) .

فقال له الحسين منكراً عليه : يا أبا عبد الرحمن أنا أبايع يزيد وأدخل في صلحه وقد قال رسول الله (ص) فيه وفي أبيه ما قال ؟ !! .

(١) الخوارزمي ١/١٩١ .

ويشتد ابن عمر في المعارضة وهو يحاول أن يثني الحسين عن عزمه ،
وقام يصور الموقف ومخاوفه ، وهو يرى أن دخول الحسين في بيعة يزيد
تضمن للحسين السلامة .

فاجابه (ع) بقوله :

اف لهذا الكلام ابدأ . ثم وجه اليه الأسئلة
التالية :

هل أنا عندك على خطأ من أمري هذا ، فان
كنت عندك على خطأ فردني فاني اسمع !!؟
فقال ابن عمر : اللهم لا . ولم يكن الله تعالى
يحمل ابن بنت رسوله على خطأ ليس مثلك في
طهارته ، وصفوته من الرسول... ولكن أخشى
ان يضرب وجهك بالسيف ، وترى من هذه
الامة ما لا تحب ، وإن لم تحب أن تبابع اقمعد
في منزلك .

فقال له الحسين (ع) بعد كلام طويل :

اتق الله يا أبا عبد الرحمن ، ولا تدعن نصرتي .
واذكرني في صلاتك ، فوالذي بعث جدي محمد
(ص) لو أن أباك عمر بن الخطاب أدرك زماني
لنصرني كنصرته جدي وأقام ، من دوني كما قام
بين يدي جدي .

يا ابن عمر فان كان الخروج مما يصعب عليك
ويثقل فانت في اوسع العذر ، ولكن لا تترك
الدعاء في دبر كل صلاة ، واجلس عن القوم ،

ولا تمجّل بالبيعة لهم ، حتى تعلم إلى ما تؤول
إليه الامور (١) .

فالحسين يوجه نصحه لابن عمر في عدم المسارعة لنصرة يزيد ، وأن
لا يزوج نفسه في المعترك السياسي ، الى جانبهم بعد أن أحجم عن نصرة
الحسين .

كما نصحه (ع) بأن يتجه للدعاء والصلاة ، ويترك معاونة يزيد
حتى ينظر ما يؤول إليه أمر الأمة ، ولو أخذ ابن عمر بنصيحة الحسين
لكان أعود على المسلمين وخير لابن عمر ، والحسين أدري باتجاه ابن عمر
ومناه السياسي ، لذلك نصحه أن يترك مؤازرة يزيد .

وكان محمد بن الحنفية ممن يرى عدم رجحان خروج الحسين إلى
المراق ، ويرى الأرجح بقاءه في مكة ، وهناك يتصل بأنصاره .

وقال له : يا أخي أرأيت أن نقيم فانك أعز من
في الحرم وأمنه (٢) .

فأجابه الحسين (ع) بقوله : يا أخي قد خفت
أن يغتالني يزيد في الحرم فأكون الذي يستباح
به حرمة هذا البيت .

فقال له ابن الحنفية : فان خفت ذلك فسر الى
اليمن فانك أمتع الناس ولا يقدر عليك أحد .
فقال الحسين (ع) : انظر فيما قلت .

وعرض ابن الزبير على الحسين (ع) الإقامة في مكة ، ويبايعه الناس

(١) الفتوح لابن أعثم ٤٣/٥ - ٤٤ .

(٢) الارشاد ص ٣٠٣ .

فاجابه (ع) بقوله : لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ بأن تستحل
بي حرمة مكة .

قال البلاذري : وإنما أراد ابن الزبير بذلك أن لا يتهمه ، وأن
يعذره في القول ^(١) .

وقال لابن الزبير مرة أخرى : لأن أقتل خارج مكة بشبر أحب
إليّ أن أقتل فيها ، ولأن أقتل خارجاً منها بشبرين أحب إليّ أن أقتل
خارجاً منها بشبر ^(٢) .

وعبدالله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين في الحجاز
ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الخلافة ، وعلماً بأنه لا يتم
له أمر إلا بعد خروج الحسين (ع) ^(٣) .

ويؤيد هذا قول ابن عباس لابن الزبير عندما آيس من منع الحسين (ع)
من الخروج إلى العراق ، ولقيه ابن الزبير على
الباب قال ابن عباس : يا ابن الزبير قد أتى
ما احببت قرت عينك هذا ابو عبدالله يخرج
ويتركك والحجاز ثم قال :
يا لك من قبرة بممر

خلا لك الجو فيضي واصفري

ايس ابن عباس من اقناع الحسين (ع) والاستجابة لرأيه وكيف

(١) انساب الاشراف خط .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أبو الفرج : المقاتل .

يستجيب لأمر فيه انتصار خصمه عليه وضياع الحق الذي من أجله أعلن ثورته ؟

فلو أقام الحسين بمكة ، فإن الأمويين لا يرون للبيت حرمة ، ولم يسلم الحسين من غدرهم وهو في حِمى البيت كما تقرر في خطة الإغتيال ، ومن أجل ذلك أسرع في اليوم الذي يتوجه فيه الناس لمشاعر الحج .

ولأن لم تنجح الخطة في الاغتيال فلا أقل من حصره بمكة ، وصده عن الخروج لاية جهة، فاما أن يعلن الحرب في الحرم ، وهو المحرم فيه سفك الدم ، أو يستسلم لعوامل الضغط والإرهاب ، أو يقتل عند خلو البيت من وفوده ، فكان إصراره وهو أعلم بهذه العوامل وأن الأمر يتد إلى عوامل أخرى .

فكان عليه السلام في إسراره رعاية للمصلحة العامة ، ومحافظة على حرمة البيت وتحقيقاً لأهدافه البعيدة المدى . وعندما سئل (ع) عن أسباب خروجه يوم التروية قال : لو لم أعجل لأخذت أخذاً .

فهو (ع) على بينة من أمره ، وأما المخذلون له فإنهم يحسبون للأمر حسابه حسب ما توحى اليهم دوافعهم النفسية . وكان هؤلاء الذين أشاروا عليه أكثر خبرة وتجارباً عندما يرى له بعضهم العزلة عن المجتمع ، والآخر يرى له أن يكف عن المعارضة ، وذلك يدعوه للبيعة وكأنه صنع جيلاً وأسدً معروفاً !!! .

ان الحسين (ع) كان عالماً بتلك التحركات ووضع الأمور في ميزان

الحكم ، وقدر للظروف حسابها ، فلم تكن معارضته يشوبها تردد بين إقدامه إن ساعدته الظروف ، أو رجوعه عن ذلك إن خذله أنصاره ، ولم يدر في خله أن يترك يزيد على دست الحكم يتحكم في أمة محمد كيف شاء ، وهو في قيد الحياة ، فكان (ع) مستعداً منذ البداية للتحمل في المجابهة والمواجهة .

ولقد لمس أثناء إقامته في مكة ما يحمله المسلمون من التحسس بواجب الجهاد ضد يزيد وحملهم مسؤولية نشر الدعوة ومناصرة الإسلام وأوضح لهم منهج ثورته وغاية مسيرته .

وبمزيد الأسف أن الذين ألحوا على الحسين بعدم الخروج لم يقفوا الموقف الذي يحتمه عليهم واجب الاسلام من نصره الحق ، فقد كانوا يقفون امام الحسين لمنعه عن الخروج ، لأنهم ينصرونه لو مكث في مكة ، ولكنهم راحوا يلحون عليه في مبايعة يزيد والدخول في طاعته .

فهذا أبو سعيد الخدري من اصحاب رسول الله (ص)، قد أجهد نفسه باقناع الحسين في ترك الخروج من مكة إلى الكوفة لا شيء هناك يعود لمصلحة الأمة ، أو انه يقوم بما يحتمه واجب الصلابة ، ولكنه أراد أن يلزم الحسين بالبيعة ليزيد وأن يدخل فيما دخل فيه الناس . وما ذلك من ابي سعيد إلا استجابة ليزيد عندما ندبه لهذه المهمة .

والغريب كل الغرابة أن يقوم ابو سعيد باقناع الحسين بعدم الخروج

على يزيد ويعتبر يزيد اماماً فيدعو الحسين لمبايعته إن صح (*) ما روي عن ابي سعيد انه قال غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له إتق الله ولا تخرج على امامك (١).

وكانت هذه المواقف من الناصحين - كما يقولون - هي مثار جدل وحوار طويل وأخذ ورد، ووضع علامات استفهام حول هذا الموضوع. وهي أول حجر يضعه المغرضون في طريق نهضة الحسين وإخفاء معالم ثورته ، فذهب البعض من المؤرخين والكتاب ينتزعون من هذه المواقف صورة اسفاف وبعد غور في معرفة نتائج المعركة وكان الحسين ارتجل نهضته فوقع في الخطأ الذي أخطأ اولئك الكتاب في تصويره .

ولعل أشد ما يبعث عليه من الدهشة والاستغراب ، هو ما يجابهنا به بعض الكتاب من أقوال يرددونها مرة بعد أخرى ، وهي بعيدة عن الواقع ، بل هي تحامل مكشوف ، ونزعة أموية حاكمة .

(*) غريب كل الغرابة أن يصدر هذا القول من ابي سعيد الحدادي !! وهو المعروف باستقامته وقد عرف بحبه للامام علي وموالاته له . يقول الاستاذ كرد علي في خطط الشام ج ٦ - ٢٥١ : عرف جماعة من كبار الصعابة (ح) بموالاة علي في عصر رسول الله ، مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله، على النصح للمسلمين والائتمار لعلي بن ابي طالب، والموالاة له. ومثل ابي سعيد الحدادي الذي يقول : أمر الناس بخمس ، فعملوا بأربع ، وتركوا واحدة . ولما سئل عن الأربع قال : الصلاة . والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل له فما الواحدة التي تركوها .

قال : ولاية علي بن ابي طالب .
قيل له : وانها مفروضة . قال : نعم هي مفروضة معين .
ولمحن نستغرب من ابي سعيد رضي الله عنه مناصرته ليزيد اللهم إلا من باب التقية . المؤلف

(١) تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٤٢ .

انهم يرددون قولهم : ان الحسين لم يأخذ بقول الناصحين له عند خروجه الى العراق ، وانه لم يأخذ بقول شيخ الصحابة عبد الله بن عمر .

وقد أشرنا الى أقوال الناصحين - كما يقولون - وانه لا تتعدى حدود لإزام الحسين بعدم المعارضة لحكم يزيد ، أو يدخل فيما دخل فيه الناس ، يعني المبايعة ليزيد .

وقد صرح بعضهم^(١) بما هو أفظع وأبعد من حدود التعقل وموازين الآداب فنسب الخطأ إلى الحسين بخروجه الى العراق وانه شق عصا المسلمين .

ولا تتكلف هنا بالرد على هذا الشيخ الذي يعيش في أوهام الطائفية ، ويخضع لسلطان التعصب الأعمى ، فالأمر أوضح من أن نجهد أنفسنا بالبيان :

فالشمس لا تنفك ناصعة وإن سمجت محاسنها بعين الأرمم
وهلم معي لنقف على قول محيي الدين بن العربي لنعرف مقدار ما يتمتع به هذا الشيخ من عقلية وما يحمله من معرفة بالأمور .

يقول ابن العربي في قواصمه :

وما خرج إليه (أي الحسين) ع) إلا
بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوه من جده

(١) هو الشيخ محمد الحضري المصري في محاضرات تاريخ الامم الاسلامية .

المهيمن على الرسل ، المخبر بفساد الحال ، المحذر
من الدخول في الفتن ، وأقواله في ذلك كثيرة
فمنها :

انه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن
أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع ،
فاضربوه بالسيف ، كائنًا من كان . فما خرج
الناس إلا بهذا وأمثاله ^(١) .

* * *

بهذه الصورة يبرز ابن العربي على مسرح شطحاته ، وبهذا الشكل
الغريب يمثل دور خرافاته ومفتعلاته .

انه يمثل على المسرح أي دور مضحك ، ويظهر أمام القراء بشكل
غريب من المهازل والسخرية ، والاستهزاء بعقول الناس ، فهو بدوره
هذا يحاول أن يسحر القراء ، فيبرز أولئك الفسقة الفجرة ، قتلة أولاد
الأنبياء ، بأنهم مجتهدون ، فلهم حسنة ، أو انهم من الصحابة حسب
تعبيره : انهم سمعوا من الرسول . وقد اعترف ابن العربي بما ينقض هذا
الرأي ، فوصف قتلة الحسين بأنهم الفوغاء من الناس ، فهنا قد ناقض
نفسه بنفسه . ثم يأتي بحديث أحدثه يد الوضعين والكذابين ، الذين
ساندوا حكام الجور وأئمة الضلال .

(١) القواصم لابن العربي ٢٣٢ .

ان قول ابن العربي يحتم علينا الوقوف مدة لرده ونقضه ، ولكننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى ضياع الوقت معه ، فقد كشف بنفسه عن جهله - وعلى أهلها دلت براش - بما صدر من شذوذه في شطحاته الفكرية ، ورموزه السحرية .

وحسبنا في رده بهذا الموضوع ، ما ثبت من حقائق ، تدل على الموجات العصبية الطاغية ، والتي دلت على شذوذه الفكري ، وانحرافه عن الواقع .

ولا نكلف أنفسنا بإيراد مستند على رده ، بعد أن وقفنا على كثير من آرائه وأوضحها شذوذاً ، وأعظمها تجنياً : هو ما ذهب اليه في براءة فرعون ، وانه مؤمن ولقي ربه راضياً مرضياً طاهراً مطهراً .

وجاء قوله في فصوص الحكم (قولاً جازماً في إيمان فرعون ، إيماناً لازماً ، فانه قد لقي ربه طاهراً مطهراً ، سالماً من العيب ، بريئاً من الذنب) . هذا هو قول ابن العربي .

وهكذا جاء في مقدمة كتاب (إيمان فرعون) لجلال الدين الدولاوي ، والرد عليه للملا علي القاري ، فان الرجل قد خالف القرآن واعتقاد المسلمين فلا يستبعد مخالفته هنا . وبعد إيراد هذا ، ندع ابن العربي وهذيانه ، ونتجاوزة فاركين تقدير ذلك للقراء .

كما نترك لهم غيره ممن يلقون الأقوال بدون تعقل وتفكير .

إننا ندع الرد على الجميع لحل آخر إن شاء الله ، ولنتابع مسيرتنا مع
ركب الحسين (ع) فالمسافة بعيدة ونحن في بداية الطريق !

المعارضة بالقوة

ولا شاع نبأ توجهه الحسين إلى العراق في تلك اللحظة الحرجة ،
والسرعة الغريبة أصبحت السلطة امام امم مشكلة تقف امام نفوذها وذهبت
المحاولة التي اتخذوها في مكة إذ فشلت المؤامرة التي دبروها لقتله غيلة ،
فلم يكن امامهم إلا حصر الحسين أو صده عن الخروج بالتهديد والتوعيد
إذ لم يمكنهم المقابلة العلنية ، واعلان الحرب عليه ، مراعاة للمجتمع
وجرياً مع الظروف .

وبادر عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة وامير الحج وقائد كتيبة
الاغتيال ، فأرسل للحسين مع يحيى بن سعيد بن العاص جيشاً ، وحاول
جاهداً أن يصرف الحسين عن التوجه إلى العراق ، وطلب منه أن يقيم
بمكة آمناً سريه ، وليس عليه شيء ..

فكان رد الحسين ليحيى بن سعيد ولجنده المحيطين به رداً بالقوة
عندما حاول ارجاع الحسين وهدده بالتمنع من التوجه إلى العراق ، ولكن
الحسين واصحابه وقفوا موقف البطولة، وبلغ الأمر إلى التدافع والضرب
بالبساط دون أن يشهر السلاح^(١) .

(١) البلاذري : انساب الاشراف خط ص ٢٤٠ .

ورجع يحيى بن سعيد إلى أخيه خائباً وذهبت الجهود التي بذلها
لحصر الحسين في مكة أو صده عن السفر إلى العراق ، وبهذا فشلت خطة
الاغتيال وسار الحسين متجهاً إلى العراق ، فان الكوفة بانتظاره لتحتضنه
اعتزازاً به ودفاعاً عنه وأن تقيم باسمه دولة اسلامية تسير على العدل
وتحكم بالكتاب والسنة فهو ابن رسول الله وأبوه علي وقد عاش معه أهل
الكوفة مدة بآمن واستقرار .

* * *

ترك الحسين مكة المكرمة وودع بيت الله وكعبة المسلمين وقبلتهم ،
وانطلق ركبه المكون من صفوة أهل بيت النبوة وحملة الرسالة ، وقد
رافقته ابطال العراق الذين قدموا اليه ليلغوه دعوة الثوار واستنھاضهم
به وهم يحملون اليه رسائل الدعوة ، ومواثيق البيعة وكان عدد هؤلاء
ستون شيخاً من أعيان الكوفة وزعمائها .

كما التحق به عدد كبير من حجاج بيت الله الحرام فكان حدث
خروجه عليه السلام هو أعظم حدث في تاريخ الاسلام كما انه في الوقت
نفسه اعظم عقبة تصطدم به الدولة الأموية .

وهذا الحادث هو أقوى وسيلة اعلام للثورة ضد الامويين ولم يكن
ذلك من باب المغامرة السياسية ولا وسيلة عاجز عن ادراك ما يصبو
اليه في مهمته ، ولا حركة من حركات التجارب التي يأمل القائمون بها
الوصول إلى نتائج الصواب وان كان الخطأ يكتنفها .

انما هي حركة اصلاح دينية ، وابتداء مسيرة اسلامية تتجه نحو هدف معين ، وغاية يتحقق فيها للمسلمين أعظم عوامل الظفر .

كانت انطلاقة الحركة من مكة تحمل للامة كل خير ، وتجسد لهم كل حقوقهم في الحياة ، وسيرتهم في الزمن .

لقد ترك الحسين مكة تموج لحادث خروجه بهذه السرعة بعد أن أعلن السبب الذي من أجله سارع في الخروج ، وذلك لصيانة البيت ، ورعاية حرمة ، ولا يستغرب من عهد يزيد أن ترتكب جريمة قتل الحسين في الكعبة ، ولو لم يخرج لوقع الحادث الذي صم عليه الأمويون وارسلوا من ينفذ لهم خطتهم .

* * *

وبعد أن انفصل الركب عن مكة ، ولقيه الحجاج المتوجهون اليها لأداء فريضة الحج كان ذلك مثار استغراب للوضع ، وطرح الأسئلة عن اسباب هذه المبادرة ، وتساءل الناس عن ذلك فكانت الحقيقة هي مضايقة الامويين له ، وعزمهم على اغتياله ، ولو في المسجد الحرام ، وحمل كل ركب الى بلده ذلك النبأ الحزن ، وبقي حديث الناس ، في جميع الاقطار الاسلامية ، هو حديث الحسين وغضبه على الحكم القائم ، فانه نهض للاصلاح ، ونصرة الحق ، وناهيك بما تحمله هذه الانباء من أثر سيء على الوضع السياسي ، وفتح باب المؤاخذة على العهد الجديد .

فكان ركب الحسين يحوب الفيا في وقلوب المؤمنين تشايعه ، وأذانهم

صاغية لأخباره ، وعيونهم شاخصة لطلائع النصر ، وعلامات الظفر ،
وباتت الأيام حبلى ولا يعلم أحد ما تلد في الغد .

وبمزيد الأسف جاء ما لم يكن بالحسبان فانطوت صحيفة ذلك الأمل
وانقلب الوضع وتغيرت الحالة وإذا بالكوفة تنتظر الحسين لتسقي
سيوفها من دمه ، وتطعم نبالها من لحمه ، تريد ان تحتضن جسد الحسين
لتوزعه السيوف ، وتطعنه الرماح وتسحقه الخيول بجوافرها ، لتطحن
اضلاعه .

الكوفة تنتظر الحسين لتشب عليه وثبة الأسد وتنشب أظفارها
بذلك الجسد الطاهر .

الكوفة تنتظر الحسين لتسي عياله بدل أن تحميمهم ، وتروع أطفاله
بدل أن تؤويهم .

الكوفة تنتظر الحسين (ع) الذي قدمت له الدعوة واستصرخت به
ولكنها لا تقيم له ما يجب من الضيافة وبدلاً من ذلك فقد ضرب الحصار
عليه ، ومنع من الماء والغذاء ، وقابلوه بوجه لا يعرف الحُجل ، جرى في
علم الله ذلك وقضي الأمر فلا راد لقضاء الله « فانا لله وإنا اليه
راجعون » .

كانت الكوفة تنتظر الحسين وتلهج بذكره وتستعد لاستقبال ركه
الذي انفصل من مكة ، فكان الواجب الحتم كما يقتضيه الحال أن تستقبل
هذا الركب المقبل بجيش يعبر عن قوتها واستعدادها ويعطي صورة

الولاء الصادق وتصديقاً لما سبق من الدعوة ، والاستعداد للنصرة ، وبذل النفوس في القضاء على الحكم الأموي وإقامة حكم عادل ، كان هذا هو الأمر المتوقع والشئ الذي أدت اليه نتائج الهياج الشامل ضد الحكم القائم .

* * *

وسار الحسين نحو العراق لا يـلـوـي على شئ ، وكان في مسيرته ترافقه آمال غالبية من الناس الذين ساء لهم وضع المجتمع ، فهم يركزون على دخول الحسين الكوفة أهدافاً بالغة الأهمية ؛ من حيث إصلاح الوضع الاجتماعي والسياسي .

وقد رافق ركبـه كثير من الحجاج وغيرهم لينضموا الى جانبه عندما يصل الكوفة والأوضاع كما هي من دون تبدل وتحول .

ولما بلغ وادي العقيق ، فنزل ذات عرق لقيه رجل من بني أسد يسمى بشر بن غالب وارداً من العراق ، فسأله عن أهلها فقال : القلوب مملكتك والسيوف مع بني أمية . فقال (ع) : صدق أخو بني أسد ويحكم الله ما يريد .

وهنا تظهر امارات بعض التبدل في الموقف ، ولكن لننفوذ شخصية الحسين وهيمنته على الأمور لم يتأثر بتلك المؤثرات التي طرأت ما دامت القلوب معه ، وهو على ثقة بأن تلك الظاهرة التي جعلت من المجتمع

من يخالف ضميره ووجدانه ، لا بد أن تزول بسرعة ، أمام شخصيته وأهدافه السامية في التوجيه ، والإصلاح ، والرعاية ، وما دامت الجهة التي استدعته متمسكة ، وهي تحت رعاية سفيره وابن عمه مسلم بن عقيل .

ومن بطن الحاجر وجه اليهم كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي الى اخوانه من المسلمين والمؤمنين ؛ سلام عليكم فلاني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فإن كتاب مسلم بن عقيل قد جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملتكم على نصرتنا ، والطلب بحقنا ، فسألت الله أن يحسن الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت اليكم من مكة يوم الثلاثاء لثلاث مضين من ذي الحجة ، يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي ، فأنكشوا في أمركم ، وجدوا فلاني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأرسل الكتاب مع قيس بن مسهر الصيداوي .

* * *

ونلص هنا ان الأمر أصبح يدعو الى مزيد من الاهتمام لمواجهة صراع قد يحدث مما كان يخشى حدوثه ، فهو (ع) يأمر أصحابه بالثبات

ويذكرهم بوجوب الاحتراس ، والحذر من أن تنفصم وحدتهم ، حتى يقدم اليهم ، وهناك تفتي كل خلافات المجتمع من ذوي النفسيات اللثيمة ، والهزيلة في بنائها الأخلاقي ، وهو (ع) باستطاعته أن يثير الحماس الديني ، ويلتف المجتمع حوله .

وسار قيس وهو يحمل كتاب الحسين (ع) ، فلما وافى القادسية ، وقد أُقيمت على الحدود شرطة ابن زياد تحت قيادة الحصين بن تميم ، فاراد أن يفتشه ، فأخرج الكتاب ومزقه ، وحمل الى ابن زياد ، فلما مثل بين يديه قال له :

من أنت ؟

قال : أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين هلي
ابن أبي طالب .

قال : فلماذا مزقت الكتاب ؟

قال : لئلا تعلم ما فيه .

قال : ومن الكتاب وإلى من ؟

قال : من الحسين إلى جماعة من أهل
الكوفة لا أعرف أسمائهم .

فغضب ابن زياد وقال : والله لا تفارقني
حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم ، أو تصعد
المنبر فتسب الحسين بن علي ، وأباه وأخاه ،
وإلا قطعتك إرباً إرباً .

فقال قيس : أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم

وتظاهر بالطاعة ، لما يطلبه من السب .
ثم صعد المنبر بقلب أقوى من الصخر ،
وألقى على الجموع المحتشدة في القصر نظرة
وابتسامة ، والكل يرمقه ببصره ، ثم حمد الله
وأثنى عليه وقال :

أيها الناس إن الحسين بن علي من خير خلق
الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله
اليكم ، وقد خلفته بالحاجر فأجيبوه وانصروه ،
وان الكذاب ابن الكذاب هو عبيد الله بن
زيد فالعنوه ، والعنوا أباه .

* * *

انه مشهد بطولي يفوق حد الاطراء والتمجيد ، انه وحي الايمان
ورسوخ العقيدة ، ومنطق الحق .

لقد كانت كلماته صواعق تنهال على رأس ابن زياد لما البسه من
خزي واذلال .

لقد جن ابن زياد كالكلب المسعور ، وراح يلعن ويرجم شياطينه ،
لأنهم امهلوه حياً حتى أكمل عباراته وأدى رسالته .

ثم أمرهم أن يلقوا به من أعلى سور القصر ، فقفذوا به حيث
اندقت عظامه وغربت حياته ^(١) .

(١) آل الرسول في كربلاء ١٢٠ .

نبا المأمة

ولقي الحسين بعض الاعراب قادمين من جهة الكوفة فسألهم عن أمر الناس؟ فقالوا: لا ندري غير اننا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج .

ولما نزل الثعلبية بلغه نبا الفاجعة بقتل مسلم وهاني بن عروة فتلقى ذلك بصبر وقال : إنا لله وإنا اليه راجعون .

والتفت إلى آل عقيل قائلاً :

ما ترون فقد قتل مسلم ؟ فقالوا : والله لا نرجع حتى نذوق ما ذاق مسلم . فقال : لا خير في الحياة بعد هؤلاء .

وبعد قليل من ورود نبا مسلم جاء نبا قتل عبدالله بن بقطر ، وهو رسوله ايضاً إلى أهل الكوفة ، وكان موقفه موقف قيس في البطولة والثبات ونهايته كنهائته فقد أمر بإلقائه من القصر فكسرت عظامه ؛ وبقي به رمق من الحياة فأثاه عبد الملك قاضي الكوفة ، فذبجه بمديّة فعيب عليه فقال : اردت أن اريجه ^(١) .

وهنا يعلن الحسين للملا بمجرى الحوادث ، وتقلب الأوضاع فيلقي بيانه التالي :

(١) اعيان الشيعة ٤ قسم الاول ٢٢٢

أما بعد؛ فإنه قد أتاني خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهاني بن عروة وعبدالله بن بقطر ، وقد خذلنا شيعتنا ؛ فمن أحب منكم الإنصاف فليصرف من غير حرج ، ليس عليه مني ذمام .

وهنا يقع الاختبار والتمحيص ، فتفرق من ساقته المطامع الدنيوية ، ويبقى المؤمنون ذوو البصائر ، ورسوخ العقيدة .

لقد أعلن (ع) الماضي في أداء رسالته ، وصمم على مواصلة مسيرته ولم تنه تلك الأنباء المحزنة ، فهو أقوى عزماً ، وأربط جاشاً عند الكوارث فلن تنهار عزيمته ولم يقعد به انهيار الجبهة التي كانت تسانده ، ولم يستول عليه اليأس من مناصرة الحق .

طلائع الخطر:

وأشرف الركب على شراف ، وقبل أن يحطّ الرحل ويضع الثقل ، بانّت طلائع الخطر ، وظهرت كتائب الجيش الذي عهد إليه مهمة عرقله سير هذا الركب ، والوقوف في طريقه بكل قوة .

لقد التقى بجيش ابن زياد ، وهو جيش يجوب الفياقي والقفار لا يهدأ ولا يستقر ، يطلب العشور على ركب الحسين لتنتهي بلاقاته مهمة الدولة بإلزام الحسين عليه السلام على التسليم ، والإتيان به إلى الكوفة ، وصدّه عن الاتجاه إلى أي جهة .

هذه مهمة الحر ، وهذه طلبية ابن زياد ، والجيش مكدود منذ مدة

لهذا الغرض ، وفي هذا اليوم طال سيره ، ونفذ زاده ، وفقد ماءه ، وقد تحكم العطش فيهم ، وكان من المنتظر أن يقضي عليهم .

وعندما التقوا بركب الحسين ، وهم ذهول من العطش كانوا على أتم استعداد للحرب ، ولعل الفرح غمرهم ، إذ وجدوا بغيتهم ، ولكنهم شغلوا بأنفسهم من شدة العطش الذي كاد أن يقضي على غالبيتهم ، وكان وقت الظهيرة فلما نظر الحسين (ع) لحالتهم قال : لفتياناه « اسقوا القوم ، وأرووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً » .

وعندما تحقق الحسين عليه السلام من إقدام الحر وجيشه على صده ، أراد أن يختار الموقع الملائم له ولأصحابه ، ومن المعروف أن الموقع الملائم هو نصف المعركة ، فتوجه برحله إلى هضاب ذي حسم ، ليحيط الرحل وراءه ويلقى القوم من وجه واحد ، وبهذا يكون لإحكام خطة الدفاع لها أثرها .

وأقبل الحر بمن معه من جيشه . فكانت مقابلة ومشادة بعد أداء صلاة الظهر ، وقد انتمت الحر وأصحابه بالحسين . وقام الحسين عليه السلام فكشف الحال لذاك الجمع وأنه لم يقدم اليهم محارباً أو طامعاً ، وإنما قدمت اليه الكتب والرسل و عرض الحال للمجتمع ، بخطابه لهم :

أيها الناس اني لم آتكم حق أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس

لنا إمام لمل الله أن يجمعنا بك على الهدى
والحق فإن كنتم على ذلك فقد جئتم فاعطوني
ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم وإن لم
تفعلوا وكنتم لعدومي كارهين انصرفت عنكم
إلى المكان الذي جئت منه اليكم .

فسكنوا عنه ولم يتكلموا بكلمة واحدة^(١) .

وارتحل الحسين عليه السلام فأنعه الحر فلم يمتنع . وقال له الحر :
إني لا افارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد .

وكانت هذه الكلمة قاسية وتمر على مسمع الحسين بن علي فلا يتحملها
فقال (ع) : الموت أدنى اليك من ذلك .

ثم أمر الحسين (ع) أصحابه بالركوب وكان الوضع ينذر بالخطر
وشعر الكل بدنو كارثة الحرب وكان الطرفان على أتم استعداد لتلقي
الأوامر في المصادمة .

وهنا لأول مرة تعرض امام العائلة تلك المناظر المروعة فقد بدت
من جيش الحر تحركات ، وظهرت على الوجوه علامات الاستعداد
للمقاومة ، وتقدم أنصار الحسين وأيديهم على قوائم سيوفهم .

وعاد الحر الى المطالبة بالحجر على الحسين ، ومما نعته عن الحركة ،
فقال له الحسين (ع) ثكلتك أمك ما تريد منا ؟!!

(١) الارشاد ص ٢٠٧ .

فقال الحر : أما لو غيرك من العرب يقولها لي ، وهو على مثل هذه الحالة ما تركت ذكر امه ، بالشكل كائناً من كان . والله مالي الى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما تقدر عليه .

وبعد أن اشتدت المشادة ، قال الحر : خذ طريقاً نصفاً بيننا لا يدخلك الكوفة ، ولا يردك الى المدينة . حتى أكتب الى ابن زياد ، فلعل الله ان يرزقني العافية ولا ينتابني بشيء من أمرك .

ثم قال : إني اذكرك الله في نفسك فاني اشهد لأن قاتلت لتقتلن .

فقال عليه السلام : أبالموت تخوفني !! وهل يمدو بكم الخطب إن تقتلوني ، وسأقول ما قال أخو الأوس لابن عمه : (١) .

سامضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى رجلاً صالحين بنفسه وخالف مشوراً وفارق مجرماً
فان عشت لم أندم وان مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً

* * *

وتنحى الحر عن الحسين (ع) حتى وصل الى عذيب الهجانات ، وكانت مسابرة للركب انتظاراً لأمر ابن زياد ، فقد ارسل اليه يخبره بالتقائه مع الحسين ومسابرة له .

(١) المهرم ص ١٩٧ .

وبينما كانت الحر يساير الحسين وهو غارق في تفكيره يدير وجوه الحيل ، ويتحسس الآراء في حل هذه المشكلة وكيف يكون المخرج من هذا المازق ، أيصدر الأمر من ابن زياد بمضايقة الحسين ، وإلزامه بدخول الكوفة ، والخضوع لأمر ابن زياد ؟ وهل من الممكن ان يترك ابن زياد ، أمر الحسين ويخلي سربه فيتجه الى أي مكان شاء ؟ أم يأمره بقتاله ؟

هذه الآراء كانت تراوده والأفكار تخامره ، وبينما هو في هذا وذاك إذ أقبل رجل من جهة الكوفة . فسلم على الحر ولم يسلم على الحسين .

هذا هو رسول ابن زياد الى الحر ، إنه يجمل أمراً صادراً بالزام الحر في مضايقة الحسين أينما وجدته وان لا يتجه الى اي جهة وان يفرض عليه الإقامة الجبرية في المكان الذي يصل الكتاب فيه فتقدم الحر بكتاب ابن زياد للحسين (ع) بهدوء وأدب .

ولما قرأ الحسين كتاب ابن زياد قال للحر : تقدم بنا قليلا الى هذه القرية التي هي منا غلوة ، وهي الغاضرية . أو هذه الأخرى ، وهي التي تسمى السقبة فانزل في أحدهما .

ولم يدع الحر مجالاً لاختيار الموقع الملائم الذي يساعد على إحكام خط الدفاع وكان بإمكان الحسين المضي بالمسير الى الموقع الملائم ، وقد أشار عليه بعض أصحابه في مناجزة الحر لأنه في عدد قليل ، ويمكن

القضاء عليهم ، ولكن الحسين ليس من شأنه أن يقاتل من لا يقاتله ، وقد سلك الحر طريق السلم من التأدب مع الحسين ولم يتقدم بإثارة حرب ، أو إيقاد نار فتنة والحسين بنظره الصائب وعلمه بما وراء الحوادث ، لا يرى في المسارعة فائدة ، ولا في المبادرة للحرب وحصوله الغاية المطلوبة.

مع ركب الحسين في كربلاء :

وفي عشية اليوم الثاني من المحرم نزل ابو عبدالله الحسين (ع) أرض كربلاء في محل بعيد عن الماء، فضرب هناك خيامه وابتعد الحر بمعسكره، بعد أن نفذ أمر ابن زياد ، وهو ينتظر ما سيكون فيما بعد ، وكتب الى ابن زياد بخاتمة المطاف ، وأداء ما كلف به ، من مهمة حصر الحسين (ع). وصدّه ، وما كاد أن يصل الخبر الى الكوفة ، حتى ساد فيها قلق شامل ، وعصفت بها هزات فكرية عنيفة ، واصبح الكل باتجاه أمر واقع، وكانت العناصر الموالية للحسين تعوزها القيادة ، فان زعماء الحركة قد سيقوا إلى السجن وساحات الإعدام ، وأصبح هؤلاء الأفراد امام أمر لا يمكن حله، إلا بقيادة ثورية .

إذ القيادة ظاهرة أساسية في الجماعة ، وهي من حيث كونها قوة تنفيذية تعتبر من أهم العوامل التي تؤثر في الروح المعنوية ، التي تؤدي بها الجماعة نشاطها .

والقائد مثل الجنوده ، وأن جزءاً كبيراً من شجاعتهم ، وتماسكهم كوحدة محاربة مستمدة من شخصيته ، وهيمنتها على الأمور . ونحن نقرأ

في التاريخ عن معارك هزمت فيها جيوش كبيرة ، وانسحبت وهي على وشك الانتصار لمجرد موت القائد الذي يقودها في المعركة ، إذ أن شخصية القائد ومن يعمل تحت إمرته من الضباط عامل مهم ، لا إثارة روح المعنوية سواء أكانت عالية أو منخفضة ، إذ أن جهاز القيادة، إنما هو رمز السلطة ، التي تدفع بالجنود إلى القتال ^(١) .

وقد استعان ابن زياد على تحقيق مهمته بتعيين القيادات من الفئات المناوئة للدعوة ، إذ وجد فيهم نشاطاً ضد تلك الحركة ، ولم تشهد الكوفة على كثرة ما حل بها من أحداث كما شهدته في تلك الفترة القاسية إلى جانب ما ظهر على مسرح الأحداث من عصيات قبلية ، وأحقاد سالفة .

التعبئة :

أصدر ابن زياد أمره بالنفير العام والتجنيد الشامل ، للتعبئة الكاملة، فانتشر الجند في البلد يحوسون خلال الديار يلقون القبض على من تأخر عن الالتحاق بساحات العرض كما وعد بتطبيق أشد العقوبة بمن يتأخر وقال :

لأن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه
وعريفه ووليه ، ولأخذن الأدنى بالأقصى ،

(١) علم النفس العسكري ٣٦/١ للدكتور عباس الحسني .

حق تسمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ،
ولا شاق وأنا ابن زياد أشبهته من بين من
وطأ الحصى (١) .

أنيطت هذه المرحلة الراهنة من مراحل تاريخ الدولة الأموية ،
بعبيد الله بن زياد ، وأصبح هو المسؤول عن تقرير مصيرها وكتب اليه
يزيد بن معاوية :

بلغني أن حسيناً قد فصل من مكة
متوجهاً إلى العراق فترك العيون عليه وضع
الأرصاد على الطرق ، واحبس على الظنة ،
واقتل على التهمة (٢) .

وكتب اليه عمرو بن سعيد الأشدق كتاباً يقول فيه :

أما بعد يا ابن زياد فقد توجه الحسين اليك
وفي مثلها تعتق او تكون عبداً تسارق كما
تسارق العبيد (٣) .

ثم كتب يزيد بن معاوية اليه كتاباً آخر يحثه
على أخذ الحيلة وأخذ التدابير ويجعله أمام
أمر واقع إذ يقول في كتابه :
أنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة
وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان ، وبلدك

(١) الحسين بن علي ص ٦١ لعمر ابو نصر .

(٢) الكامل ج ٤ ص ١٩ والطبري ج ٦ ص ٢١٥ .

(٣) تهذيب ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٢ .

من بين البلدان ، وابتليت به من بين العمال
وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعود العبيد .

فقام ابن زياد بكل ما في وسعه من اتخاذ التدابير ، وجعل كتاب
يزيد كدستور يسير عليه في هذه المرحلة ، لأنه يفوض اليه كل شيء ،
ويقرر النقاط التالية .

١ - اتخاذ الجوايسيس بكثرة .

٢ - وضع المعسكرات المؤدية الى الكوفة .

٣ - شدة الحراسة والحذر والأخذ على الظنة والتهمة .

٤ - القتل بدون مهلة .

٥ - مواصلة الأخبار ، والإتصال بيزيد بكل ما يحدث . وهذا
الكتاب مرسوم يجب تنفيذه . فقام بكل قوة ونشاط ووضع الخطط التي
تضمن له النجاح ، فأغلق الطرق المؤدية للكوفة ووضع عليها حصاراً
فلا داخل ولا خارج ، وعهد بحراسة الحدود الى الحصين بن تميم رئيس
الشرطة ، فنزل القادسية وأعطى الحر بن يزيد الرياحي قيادة قوة
سيارة قوامها ألف فارس وهم يتجولون في البادية ، يراقبون الحدود ،
وهو مكلف بالقاء القبض على الحسين أينما التقى به . وأصدر ابن زياد
أمره للناس فعسكروا في النخيلة ، ولا يتخلف أحد منهم .

وصعد المنبر فتمرض لمعاوية وذكر احسانه
واداراه الأعطيات وعنايته بالثغور ، وذكر
اجتماع الالفة على يده ، وقال : ان يزيد ابنه

السالك لناهجه ، وقد زادكم مائة مائة في
اعطياتكم ، فلا يبقى رجل من العرفاء
والتجار ، والسكان إلا خرج فعسكر معي ،
وابا رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً
عن العسكر برأت منه الذمة .

ثم خرج فعسكر بالنخيلة وبعث الى الحصين بن تميم وكان بالقادسية
في أربعة آلاف فقدم النخيلة في جميع من معه ، ثم دعى كثير بن شهاب
الحارثي ، ومحمد بن الأشعث بن قيس ، والققعقاع ، وسويد بن عبد الرحمن ،
وأسماء بن خارجة الفزاري ، وقال طوفوا في الناس . فروهم بالطاعة ،
والاستقامة ، وخوفهم عواقب الأمور ، والفتنة والمعصية ، وحشوم
على العسكرة .

فخرجوا وداروا في الكوفة ثم لحقوا به غير كثير بن شهاب ، فانه
كان مبالغاً يدور في الكوفة يأمر الناس في الجماعة ، ويحذرهم الفتنة
والفرقة ويخذل عن الحسين .

قطعان الجيش :

اختلفت أقوال المؤرخين في احصاء الجيش الذي خرج لحرب
الحسين (ع) وقد تناقضت أقوالهم ، وجد اكثرهم على احصاء أربعة آلاف
جندي فقط وهم الذين خرجوا مع عمر بن سعد ، وكانوا قد عسكروا
للسفر الى حملة لبلاد فارس تحت امرة عمر بن سعد ، وقبل أن يتحركوا

ورد نبأ توجه الحسين ونزوله في كربلاء، وكان هؤلاء من بقية الفرس أيام الفتح وهم المعروفون بحمر الديلم .

ومن الغريب اهمال بقية ذلك الجيش الذي تدفق الى أرض كربلاء وماجت به صحراؤها ، وملا شعابها وسهولها وجاء في وصفهم : كأن راياتهم اجنحة الطير ، وركبوا الحمير والبقر لقلة ما يستعملون من وسائل .

والواقع ان عدد الجيش الذي باشر الحرب ثلاثون الفا وقيل أكثر وبدون شك ان التعبئة العامة فوق هذه الأرقام ، إذ امتلأت ساحات النخيلة عند العرض الى كربلاء ، وهي تمر أمام ابن زياد ، يوم خرج هو وجميع أصحابه الى النخيلة .

جاء في الوثائق الرسمية لثورة الحسين إحصاء الجيش حسب ما ورد في المصادر التاريخية القديمة كما يلي :

القائد	العدد
الحر بن يزيد الرياحي	١٠٠٠
عمر بن سعد	٤٠٠٠
شمر بن ذي الجوشن	٤٠٠٠
يزيد بن ركاب الكلبي	٢٠٠٠
الحسين بن تميم	٤٠٠٠
مغاير بن رهينة المازني	٣٠٠٠

٢٠٠٠	نصر بن حريشة
٣٠٠٠	كعب بن طلحة
١٠٠٠	شبت بن ربعي
١٠٠٠	حجار بن أبيجر
<u>٢٥٠٠٠</u>	المجموع : خمس وعشرون ألف مقاتل

ولم يدخل في الإحصاء هنا عدد الرماة الذين كانوا مع الحصين ، وعددهم خمسمائة ، وكذلك لم يدخل عمر بن الحجاج الزبيدي ، وهو قائد حملة قوامها أربعة آلاف ، ولم يدخل عزرة بن قيس الذي كان يترأس خمسمائة فارساً لحراسة الطريق ، ثم التحق بعمر بن سعد ، فيكون هنا عدد المقاتلين فحسب ثلاثون ألفاً ، ما عدا كتائب الرماة بالحجارة وهم الجواله ، وسلاحهم المقاليص .

وهنا لا بد من نظرة فاحصة ، ووقفه بعيدة عن كل تمحل في محاولة هي خلاف الواقع فلا تتجاوزه أو تتعدى حدود المعقول ، ولا نفرض آراءنا بل الحقيقة هي التي تفرض نفسها .

* * *

ان ذلك الجيش الجرار قد ملأ البادية ، وقد حدث التاريخ ان وسائل النقل على كثرتها في الكوفة قد وقفت أرقامها عن سد الحاجة لحمل الجيش وأثقاله حتى ركبوا البقر والحمير ، ونفر الباقون مشاةً ، وكان الاستعداد لسد حاجات هذا الجيش من سلاح ودروع مسبقاً قبل حركته الى

كربلاء ، فقد بقي الحدادون في الكوفة يعملون ليل نهار ، في صقل
السيوف ، وبري النبال ، وقدرت مدة العمل عشرة أيام متواصلة ، لم
تخمد نار الحدادين فيها لحظة واحدة .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، أن الكوفة منطقة عسكرية وهي
أكبر قاعدة للملكة الاسلامية ، وكانت تعد الجيوش المحاربة ، ولا يقل
عدد الجيش المعد للحرب عن ستين ألفاً في جميع الأوقات .

وكان تقسيمها العسكري حسب وضعها السياسي والاجتماعي
مقسمة الى سبعة كادرات وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات
والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم ، والاعطيات بعد العودة
من قبل رؤساء الاسباع . وفي ايام زياد بن أبيه في سنة ٥٠ هـ من الهجرة جعل
الأقسام العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث أصبحت
الاسباع أربعة وعلى هذا استقر التنظيم العسكري وقد اشتركت جميع
الأرباع في هذه المعركة . كما تقدم (١) .

فكان على ربع أهل المدينة عبدالله بن زهير الازدي ، وعلى ربع
مذحج وأسد عبد الله بن ابي سبرة الحنفي ، وعلى ربع ربيعة وكندة
قيس بن الأشعث ، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي ، فشهد
هؤلاء كلهم حرب الحسين ما عدى الحر فقد تحول الى الحسين
كما سيأتي .

(١) انظر ص ١٧٢ من هذا الكتاب .

وعلى هذا نتساءل أكانت كل هذه القبائل والمقاتلين من الارباع متمثلة في جيش الديلم المكوّن من أربعة آلاف فارس وهم حلفاء عبد القيس من بطون ربيعة ، وقد عرفوا بحمر الديلم ، باسم رجل يسمى ديلم وكان يترأسهم وهم الذين التجأوا الى سعد بن ابي وقاص بعد معركة القادسية ، من بقية جيش الفرس فكانوا في معركة الطف تحت إمرة عمر بن سعد ، وقيل انهم كانوا خمسة آلاف. فالكوفة تلك القاعدة العسكرية التي عرفت بكوفة الجند يشملها الارهاب في التعبئة والتجنيد الاجباري ، والنفير العام ، واصدار الأوامر بحمل السلاح على كل محتلم ومن له قابلية حمله ^(٢) .

لقد اصبحت الكوفة في نطاق ضيق وهي مقفلة في وجوه القادمين اليها فلا يقدر أحد ان يلج اليها أو يخرج منها ^(٢) وأغلقت جميع الطرق المؤدية اليها إلا من طريق واحد، وقد أقام عليه خمسمائة فارس تحت إمرة عزرة بن قيس .

وقال الطرماح عندما التقى بالحسين (ع) في الطريق : رأيت قبل خروجي من الكوفة اليك بيوم على ظهر الكوفة ، وفيه من الناس ما لم تر عيناى في صعيد جمعا أكثر منه فسالت عنهم : ف قيل : اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرحوا الى حرب الحسين ^(٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٣٠ والبلاذري خطي .

فهذه الصورة التي يعطيها الطرماع وهو العربي المشهور ، ومن له خبرة بالحروب فهو يصف كثرة ذلك العدد الذي يعرض للتجنيد .

فاذا اردنا احصاءً للجنود المشتركة في ساحات الحرب ، والمباشرة لقتال الحسين فأقل احصاء لهم على وجه التحقيق أنهم عشرون ألفاً ، وقد نص ابن حجر على ذلك ^(١) .

وقال بعض المؤرخين ان جملة من أرسله ابن زياد لحرب الحسين كانوا أربعين ألفاً .

ونحن اذا أردنا أن نأخذ بما هو مجمع عليه وما لا يقبل الرد فهو :
أن عمر بن سعد خرج في أربعة آلاف .

وكان الحصين بن غير التميمي يترأس جيشاً مرابطاً على الحدود خوفاً من دخول الحسين الى الكوفة ، وفي ذلك الجيش خمسمائة من الرماة فقط ماعدا الفرسان والمشاة وكانت احصاؤهم أكثر من ثلاثة آلاف .

والتحق هذا الجيش بعمر بن سعد عندما خرج الى كربلاء ، وانضم اليه جيش الحر وعددهم ألف فارس ، ثم التحق عزرة بن قيس وهو على رأس خمسمائة مقاتل كانوا يحرسون الطريق المؤدي الى الكوفة .

فهذه الأعداد التي كانت تحت السلاح وهي على أتم استعداد لملاقاة الحرب توجهت كلها الى كربلاء ، فيكون عددها عشرة آلاف بين فارس وراجل .

(١) شرح همزية البوصيري لابن حجر .

وعلى هذا كيف استساغ بعض المؤرخين وتبعهم أكثر الكتاب بسهولة الى القول بان الجيش الذي حارب الحسين هم أربعة آلاف فارس فقط ، فأين ذهب الستة آلاف فارس ؟ على هذا التقدير .

* * *

ونتساءل أيضاً : اين ذهب شبت بن ربعي القائد القديم ، والذي تقلب في عدة حروب ، وقد دعاه ابن زياد للخروج ومعه ألف فارس ، فتمارض ، ولكن ابن زياد ألزمه بالخروج ، فخرج هو وجيشه ؟

وكذلك نتساءل عن ابن ذي الجوشن ودوره في معركة كربلاء ، أكان جندياً أم قائداً لألف فارس كما ثبت في الإحصاء الصحيح ؟

ثم أين حجار بن ابجر ، وأسماء بن خارجة ، وعمر بن الحجاج ، وغيرهم ، أكانوا جنوداً أم قادة ؟

ولا يقول أحد بعدم قيادتهم لكثائب من الجند ، لا يقل عدد كل كتيبة عن ألف فارس .

ونعود فنقول إذا كانت القضية لا تحتاج الى أكثر من سوق جند الديلم ، فما معنى حضور أولئك الرجال من زعماء القبائل ، ورؤساء الأرباع ؟ وما معنى هذا العرض العام بقوة ؟ وما معنى خروج ابن زياد للنخيلة وإقامة عمر بن حريث مكانه ؟ وما هذا التضييق على الأهلين بتطواف الجنود في الشوارع وجلب كل من تأخر عن السوق الى

المعركة ؟ حتى وجدوا شامياً جاء لميراث له بالكوفة فلم ينفع اعتذاره وقتل تاديباً للغير ^(١) .

* * *

وهلم لنرى تكافؤ القوى في القتلى ، إذ يقول أكثرهم انه قتل من جيش ابن سعد ٨٤ ويقابله من أصحاب الحسين ٨٤ فلم يزد بعضهم على الآخر ، وما أدري من أين جاء هذا التقابل ، والمساواة ، وكيف يصح ؟ ولكن الجهالة أو التحيز الذي يخفي ١٦ ألفاً من المقاتلين الذين يشغلون حيزاً في الفضاء كيف لا يدفن آلافاً من القتلى الذين سقطوا في المعركة بسيف اولئك الأبطال إذ تفوقوا بمواقفهم العسكرية وظهروا بمعنويتهم التي جعلتهم يكسبون التفوق في المعركة رغم قلتهم وكثرة من أحاط بهم اذ الروح المعنوية لها أثرها .

الروح المعنوية :

للروح المعنوية أثر كبير في تفوق الجيش وبسالته ، عندما يتمتع بها الجندي المحارب فهي التي يتفوق بها العدد القليل من المحاربين على الكثرة من يفقد الروح المعنوية في الحرب .

ومن أجل ذلك تتخذ جميع الوسائل لتقوية الروح المعنوية كالدعاية في ورود امدادات عسكرية تساند الجيش ، وإشاعة تنازل الخصم أو التحاق

(١) الدينوري الأخبار الطوال .

بعض قطعاته فيهم و.و. وغير ذلك مما يعبر عنه بالحرب النفسية
لاضعاف معنوية الجندي وقد اثبت التاريخ ما لهذا السلاح من اثر في
كسب المعركة .

ولا نذهب بعيداً عن تاريخنا الاسلامي ، فكم اكتسبت حروبه النصر
لتفوق الجندي المسلم بالروح المعنوية .

ومتى ما كان الجيش يندفع بالقوة قهرآ لا لهدف يحققه فهو يتوارى عن
الاشتراك في الحرب إذ لا يملك معنوية يتفوق بها ونستطيع ان نقول ان
الجيش الاموي كان يفقد معنويته . وجيش الحسين متفوق عليه لان
الجيش الأموي مدفوع بالقهر .

قال الدينوري ، كان ابن زياد اذا وجهه الرجل الى قتال الحسين
في الجمع الكثير يصلون الى كربلاء ، ولم يبق منهم إلا القليل ، وكانوا
يكرهون قتال الحسين ويرتدون ويتخلفون . وذكرنا ان ابن زياد اتخذ
ثلة من الجند يمنعون كل من عاد من الجيش الموجه ، ويرغمون الناس على
الخروج الى هناك ولم يبق فيها محتلم^(١) .

فهذا العدد الذي يعود من الناس إنما هو مدفوع بدافع نفسي ، ولو كان
بعضاً من اقدام يستمد من الروح المعنوية لما خضعوا لذلك .

* * *

وللمثال نذكر موقف عامر بن ابي سلامة عندما أراد الخروج الى الحسين
لنصرته اعترضه عزرة بن قيس ، وكان موكلًا برذكل من يحاول الخروج
(١) أنساب الأشراف للبلاذري .

الى جهة الحسين ، فلما نظر الى عامر بن سلامة منعه من ذلك ، وقال له :
عرفت حيث تريد ، فارجع . فحمل عامر عليه وعلى أصحابه ، وقاتلهم
فهمزهم ومضى ولم يجسر أحد من الدنو اليه .

لان المقابلة هنا بين بطل يحارب دفاعاً عن عقيدته باقدام لا يعرف
التردد ، وبشجاعة لا يراودها خوف .

وبين أناس تنكروا للحق ، وتظاهروا بالتحلل عن عقيدتهم ، فهم
مرغمون على القتال خوفاً على أنفسهم ، فلا يعرضونها للقتل في الحرب ،
فكما حرصوا عليها من الوقوف بوجه المستبد ، فهم بأشد ما يكون من
الحرص هنا ، فغريزة الجبن التي دفعتهم لهذه الجريمة النكراء هي التي
جعلتهم يتوارون في المعمة ويفرون فرار الأغنام .

كما ان الجيش الاموي اكثرهم متفرقون في العقيدة ، ولا تجمعهم
قومية واحدة وهم متفرقون في الآراء والأفكار : فاثوية ومزدكية ،
ومجوسية ، ويهودية ونصرانية بالاضافة الى تعدد القوميات ، فاكراد ،
وأرمن وآشوريون وأتراك ، وغيرهم .

وكانت الصلة بين هذه الفئات هي المصلحة : إما مادية ، أو لهدف
في نفوس بعض الفئات وهؤلاء كانوا يمثلون نوعاً من الثبات في المعركة
والاقدام في المبارزة .

لِحَصَّارٍ

وهو الحرب الاقتصادية في وقتنا الحاضر ، الذي له اكبر الاثر في تقرير مصير الحروب ، وهو سلاح كانت تستعمله العرب من قبل وجميع الدول اليوم ، لأنه يقرب الغاية المنشودة ، ونتائجه خير من نتائج الهجوم وخسائره، فاذا ضرب الحصار على جيش فانقطعت عنه الامدادات العسكرية ومواده الغذائية ، فان الاضرار الاقتصادية ليست دون الاضرار العسكرية بالعدو ، اضعافاً لروحه المعنوية ، فنع الماء ومنع الطعام انما هو سلاح من اسلحة الحرب ، وهناك لا بد أن تحصل الهزيمة من الجيش الذي يعوزه الماء والطعام ، وذلك الحصار يضرب على المحاربين فحسب اما على الذين لم يباشروا حرباً ، من أطفال ونساء فضرب الحصار عليهم يعدُّ من العار يقول الشاعر العربي :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الحصنات جر الذلول

وقد استعمل ابن زياد تلك الحرب الاقتصادية ، بأبشع صورها ، وأقصى ما يتصور من معاملة وحشية ، وخطة همجية ، فطوق جيش الحسين لمنع الامدادات الخارجية ، وقطع الاتصال معه ومع العالم الخارجي ، كما أصدر أمره لقائد الحملة بمنع الماء عن معسكر الحسين بصورة شديدة كما جاء في كتابه لعمر بن سعد :

أن امنع الحسين من شرب الماء فلا يذوقوا
منه حسوة كما فعلوا بالتقي عثمان .

ومن هنا يتضح لنا ما وصل اليه حقه وتحكم أوامر الجوسية
فتجسدت في سلوكه وطيشه حتى انه منع عن حفر الآبار في الصحراء ،
فقد جاء في كتابه لعمر بن سعد أيضاً :

اما بعد فقد بلغني ان الحسين يشرب الماء هو
وأولاده وقد حفروا الآبار ونصبوا الاعلام
فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنهم
من حفر الآبار ما استطعت ، وضيق عليهم ،
ولا تدعهم يشربون من ماء الفرات قطرة
واحدة ، وافعل بهم كما فعلوا بالتقي النقي
عثمان (١)

وبهذه الأوامر الصارمة وخضوعاً لعنف ابن زياد وتزولاً عند
ارادته فقد امتثل ابن سعد فشد الحصار .

وقد لعب منع الماء دوراً في تلك المعركة وبدأ الأعياء في جيش
الحسين كما اشتد أثره في خيل أصحابه عند قيام المعركة ، فكان أكثرهم
يقاتل راجلاً .

* * *

لقد امتثل ابن سعد لأمر سيده ، وشد الحصار على الفرات ، وأقام

(١) الفتوح ١٦٢/٥ .

حراساً أقوياء ، واشتد العطش بآل رسول الله ، مما دعى أصحاب الحسين الى الحملة على الفرات قبل وقوع القتال ، فتمكنوا من الوصول وملأوا قريهم^(١) .

قال البلاذري : فلما اشتد على الحسين العطش بعث العباس بن علي في ثلاثين فارساً ، وعشرين راجلاً ، وبعث معهم بعشرين قرية فلما دنوا من الماء ، تقدم أمامهم هلال بن نافع البجلي ، فقال له عمر بن الحجاج ، وكان على موضع الماء :

من الرجل ؟

قال : نافع بن هلال .

قال : ما جاء بك .

قال : جئنا لشرب من هذا الماء ، الذي خلأتمونا منه .

قال : اشرب هنئاً .

قال : أفأشرب والحسين عطشان !!؟

ومن ترى من أصحابه .

قال : لا سبيل إلى سقي هؤلاء : إنما وضعنا بهذا المكان لمنعهم من هذا الماء .

فأمر هلال أصحابه باقتحام الماء ليملئوا قريهم ، فثار عليهم عمر بن الحجاج وأصحابه فحمل عليهم العباس ، ونافع بن هلال فدفعهم ثم انصرفوا إلى رحالهم وقد ملأوا قريهم .

(١) انساب الاشراف مخطوط . وسمط النجوم العوالي ٢٧/٣

واشتد الحصار وتضاعفت الحراسة ، خشية ان يتسرب الماء الى الحسين وأطفاله الذين لم يعد يطاق مشهدهم من وطأة الظمأ القاتل ولم يكن قصد ابن زياد هو التشفي لعثمان فحسب ، وإنما يقصد ان يسارع في النتائج وعسى ان يستسلم الحسين ، وقد رفع هذا الشعار في معسكر ابن سعد ، فان المناادي ينادي : يا حسين انك لن تذوق من هذا الماء قطرة واحدة ، حتى تذوق الموت غصة بعد غصة أو تنزل على حكم الأمير يزيد ، وحكم عبيد الله بن زياد ^(١) .

ومناد آخر ينادي : يا حسين ألا تنظر الى الماء كأنه كبذ السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا ^(٢) .

المفاوضات :

كانت الآمال تراود خصوم الحسين في مسالته عندما يشددون الحصار عليه وعزله عن الإتصال بالناس وقطع جميع المؤن عنه .

وكانت الأيام الأربعة الأولى من نزول الحسين (ع) أيام مشاورات ومبادلة آراء بين قواد المعركة بغية الوصول الى الهدف المطلوب وكان في تلك الأيام حصل اجتماع بين الحسين وبين عمر بن سعد فقد أرسل الحسين إليه يطلب حضوره لإلقاء الحججة عليه

(١) الفتوح ١٦٣/٥

(٢) الطبري .

وظن ابن سعد ان الحسين سيرسم خطة تكون فيها مصلحة
الطرفين من دون قتال .

وجاء ابن سعد ومعه نحو من عشرين فارساً من أصحابه ، واجتمع
مع الحسين ما بين المعسكرين .

فقال: الحسين مؤنباً له : يا ابن سعد أقتالني ؟
أما تتقي الله الذي اليه معادك ؟ فأنا ابن من
علمت ، ألا تكون معي وتدع هؤلاء ، فانه
أقرب الى الله تعالى .

قال عمر : أخاف أن تهدم داري .

فقال الحسين : أنا أبنيها لك .

قال : أخاف أن تؤخذ ضيعتي .

فقال الحسين : أنا اخلف عليك خيراً من
مالي في الحجاز .

قال : إن لي عيلاً في الكوفة وأخاف عليهم
من ابن زياد القتل ثم انصرف .

* * *

وتكرر الاجتماع وكان الغموض يكتنف الموقف ، وظنوا بأن
الحسين سيتراجع عن عزمه ويرجع من حيث أتى .

وأصبح ابن سعد في دائرة ضيقة ، فكان كل جهده اقناع ابن زياد
بوسيلة يتوصل بها الى حل القضية سلمياً ، وأراد أن يؤكد للملاحب
الحسين للسلامة ظناً منهم أن الحسين يتركهم لو تركوه ، وهذا الظن خطأ

فان الحسين ثائر ولو تركوه فلن يتراجع عن ثورته ، ومطالبته بالحق وإعلان المعارضة للسلطة الجائرة ، إذ لم تكن ثورته حفاظاً على نفسه ، وهرباً من يزيد ، إنما هو ثائر وطلب حق ، فهو مع الحق كما أن آماله لن تنقطع من تيقظ المسلمين وكان ظنه فيهم حسناً .

وعاد ابن سعد لمراجعة الحسين فأرسل رجلاً
يعتمد عليه في مهمة الاستطلاع على رأي
الحسين وموقفه ، فجاء الرسول وسأل الحسين
عن لسان ابن سعد فأجابه :

قد كتب إليّ أهل مصركم يدعونني اليهم ، أما
إذا كرهتم ذلك فإنا انصرف عنكم (١) .

وكان استنتاج ابن سعد من هذا الجواب بأن الحسين مستعد للرجوع
أو أن يذهب الى ثغر من ثغور الأرض ، حسب ما تقرره السلطة إن
رأت ذلك . وهنا يعمل بعض المؤرخين بأن استجابته للرجوع والترك أنه
مسألة ليزيد أو أنه يذهب ويضع يده في يده .

وكما افتعلت يد الوضاعين من الذين يعيشون على الأكاذيب والخرافات
قضية مكذوبة وافتعلوا أمراً لم يقع تقريباً للسلطة ، فهذا أبو معشر
نجيح قد أورد : بأن الحسين طلب من ابن سعد أن يذهب الى يزيد فيرى

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٥ .

رأيه فيه ^(١) . وهو كذب صريح لا يمت الى واقع أبداً .

وكتب ابن سعد الى ابن زياد كتاباً يخبره بنتائج المفاوضات وأن الحسين سيترك ما صمم عليه .

فحصل عند ابن زياد اقتناع ، وأراد أن يحول مجرى القضية ، وقال عندما قرأ الكتاب : هذا كتاب ناصح لأميره ، مشفق على قومه . وأجاب بالقبول ^(٢) .

ولما علم شمر بذلك قام إليه فقال : أتقبل هذا منه وقد نزل بارضك وإلى جنبك ؟ لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ، ليكونن أولى بالقوة ، وتكونن أولى بالضعف والهمز ، ولكن لينزل هو وأصحابه على حكمك ، والله لقد بلغني أن الحسين وعمر بن سعد يتحدثان عامة الليليين لمعسكرين .

فقال ابن زياد : نعم ما رأيته ، فأخرج الى عمر ، فليعرض علي

(١) روى ابو معشر عن بعض مشايخه : ان الحسين (ع) قال لعمر بن سعد: اختر مني احدى ثلاث خصال : إما تتركني أرجع كما جئت .

فان أبيت فسيري الى يزيد ، فأضع يدي في يده ، يحكم في ما يرى .

وإن أبيت هذا فسيري الى الترك ، فاقاتلهم حتى اموت .

هذه الاسطورة يوردها ابو معشر في مغازيه ، وأبو معشر رجل امي

لا يفهم ما يرويه ، وكان يحيى بن سعيد يضحك عندما يذكره ، وهو مشهور بالافتعال والوضع .

(٢) الكامل ج ٥ ص ٢٨ .

الحسين وأصحابه النزول على حكمي ، فإن فعلوا فليبعث إليّ بهم مسلماً ،
وإن أبوا فليقاتلهم . ثم زوده بكتاب .

وقال لشمر : فإن فعل فاسمع له وأطع ، وإن أبى فانت الأمير عليه
وعلى الناس ، واضرب عنقه ، وابعث إليّ برأسه ^(١) . وأقبل الشمر
وهو يتمنى لو يسبق الريح لتنفيذ مهمته وحصول غايته .

الزحف المباشر :

قدم شمر بن ذي الجوشن من الكوفة وهو يحمل أمر الهجوم على
الحسين ، والمفاجئة في القتال ، ويحمل بذلك كتاباً من ابن زياد يقول
فيه :

أما بعد فاني لم ابعثك إلى الحسين لتطاوله
وتمنيه السلامة ، وتكون له عندي شافعاً ،
فانظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم
فابعث إليّ بهم مسلماً ، وإن أبوا فازحف
إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك
مستحقون وإن قتلت حسيناً فأوطىء الخيل
صدره وظهره ، لنذر نذركه ، وقول قلته ،
فانه قاطع ظلوم فان فعلت ذلك جزيناك
جزاء السامع المطيع ، وإن انت أبيت
فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن
ذي الجوشن وبين المسكر وأمر الناس
فانا قد أمرناه فيك بأمرنا والسلام .

(١) الكامل ج ٥ ص ٢٨ .

فلما أوصل شمر الكتاب إليه قال عمر : يا أبرص ويلك ! لا قرّب الله دارك ! وقبحك وقبح ما قدمت له ، والله اني لأظنك ثنيته عن قبول ما كتبت به ، فقال له شمر : امض لأمر الأمير ، وإلا فخلّ بيني وبين العسكر^(١) .

وحدث سعد بن عبيدة قال : إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجل فسارّه وقال : بعث اليك ابن حويزة بن بدر التميمي وأمره إن أنت لم تقا تل أن يضرب عنقك^(٢) .

وهذا الأمر تأكيد للأمر السابق ، مما يدل على شدة الاهتمام للاسراع بالمفاجئة . وقد فزع ابن سعد واستجاب لأمر ابن زياد ، وأعلن بالزحف على معسكر الحسين ، وذلك بعد هلاة العصر ، وأمر الرماة بالتقدم ، وكان جيش الرماة على أكمل استعداد . فتقدم امامهم ابن سعد ليعلن عن ولائه في إطلاق الشرارة الأولى لإيقاد نار الحرب ، برمي أول سهم يوجهه الى معسكر الحسين .

وهكذا صرّح الشر ، وبدأت الحرب المجرمة بهذا السهم الجائر وهو أول مرحلة من مراحل المعركة . وأطلق الرماة ، فأقبلت السهام نحو معسكر الحسين كشأبيب المطر ، أو كقطع الليل المظلم ، وهي تنذر بوقوع الحرب ، بل هي رسل أهل الكوفة ، في دنو المعركة ، وانتهاء

(١) انساب الاشراف .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٤ .

كل محاربة اتخذها الحسين معهم لإبعاد غائلة الحرب . فلا أمل بعد
هذا برجوع القوم عن غيهم ، وليس من المستطاع لأكثر من هذا ،
فليس بعد من شيء إلا الاستعداد للمواجهة المسلحة .

فاستقبل الحسين وأصحابه هذه الرسل برحابة صدر ، وطلاقة
وجه . إنها علائم النصر الى الأبد . إنها تبشر بقيام سوق المتاجرة بينهم
وبين الله ليقدموا أرواحهم ثمناً لنصرة الحق والإسلام ، ودنت الساعة
المحتمة ، ولاح في الأفق شبح الخيانة والغدر بأوضح صورة .

* * *

كان هذا الزحف عصر يوم التاسع من المحرم ، ولما اقتربوا من مخيم
الحسين تقدم اليهم العباس بن علي في عشرين فارساً ، وسألهم : ما الذي
تريدون ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول أو ننازلكم
الحرب . وجرت بينهم وبين العباس محاورة ومشادة .

فاستمهلهم الحسين عشية تلك الليلة ، وقال : لعلنا نصلي الى ربنا
الليلة وندعوه ونستغفره ويعلم الله اني احب الصلاة وتلاوة كتابه ، وكثرة
الدعاء والاستغفار فاستجاب ابن سعد بعد عرض الأمر على الشمر ،
فقال له ابن ذي الجوشن : أنت الأمير والأمر اليك .

وكان غرض ابن سعد هذا هو إظهار الولاء وإخلاصه في القضية إذ
أصبح الشمر عيناً عليه ومنافساً له .

ثم وجه الاستشارة الى الزعماء من حوله فقال عمرو بن الحجاج
الزبيدي :

سبحان الله لو كان من الديلم لكان ينبغي ان تجيبه .

واعترض قيس بن الأشعث وقال: لا تجيبهم لما سألك فلعمري
ليصبحنك بالقتال غدوة . فقال عمر: والله لو أعلم أنهم يفعلون ما أخرتهم
العشية .

ان المخاوف تراودهم ، من عاقبة تأخير القتال ان يحدث انشقاق في
المعسكر الأموي ، عندما لمسوا التحسس بالخطأ من بعض الأفراد ،
ومقتضي سير الحوادث، وظهور القضية بالشكل الذي سار ، عليه خط
التجمع ، يقرب هذا ، ويوقع الاحتمال .

وكما قدمنا أن التعبئة كانت بشكل غير اختياري ، فلا بد أن يضم
ذلك الجيش من يصطدم بالواقع فيحاول الانضمام اليه .

والحسين (ع) شخصية منفردة بجميع صفات الكمال . والقيادة
الصحيحة متجسدة فيه ، والمجتمع يميل له من الولاء أكثر من غيره،
والحق لا بد أن ينتصر وان قل أعوانه فهو لم يقطع حسن ظنه بالأمة ،
ولم يهمل معالجة الوضع لتوعية الناس ، فواصل بذل نصائحه ، وألقى
الحجة بعد الحجة الى آخر ساعة من حياته ، وقد تيقظت ضمائر جماعة
من أتباع ابن زياد فالتحقوا بمعسكر الحسين في جوف الليل .

وكان بعض من ساعد على تأخير الحرب يمتنون أنفسهم بأن الحسين

سيجيئهم الى ما يطلبون، وقد صرح بعضهم عندما وافق ابن سعد بتأخير القتال الى غد ، صاح رجل من أصحابه : يا أصحاب الحسين بن علي قد أجلناكم يومكم هذا الى غدٍ ، فان استسلمتم ونزلتم على حكم الأمير ، وجهنا بكم اليه ، وإن أبيتُم نأجزناكم “).

وهكذا أُرجىء القتال وبات معسكر الكوفة ينتظر الصباح عساه يحمل بشارت الاستجابة أو الانشقاق في معسكر الحسين .

ليلة العاشر :

بات المعسكران على أهبة الاستعداد للحرب ، وكان بينهما بون شاسع من حيث الكم والكيف وتحصين المواقع والعدة ، فالجيش الأموي كثير العدد ، قوي العدة ، فقد كان آخر احصاء للقوة المرابطة في كربلاء أنها ثلاثين ألفاً ، ما عدا قوات الاحتياط في النخيلة التي اتخذها ابن زياد مركزاً للقيادة ، كما أن جمع الحشود في الكوفة ، وسواها على أتم استعداد للحركة .

وكان معسكر الحسين لا يتجاوز الخمسمائة ما بين فارس وراجل ، وقيل أقل من ذلك وقد حوصر فنموا عنه جميع الامدادات حتى الماء وحيل بينهم وبين وروده ، وتحت ستار الظلام التحق بمعسكر الحسين جماعة من أصحاب ابن سعد ، تيقظت ضمائرهم ، فقبل كانوا ثلاثين وقيل أكثر من ذلك .

ورغم كل الاجراءات التي اتخذها الأمويون لايقاع الوهن في أصحاب الحسين ، فلم يتمكنوا ، فقد كانوا يتمتعون بمعنوية تحوّلهم بأن يتفوقوا على تلك الكثرة الهائلة ، وكانت مواقفهم لهيباً من البطولة ، توج فيه الذخوة والإقدام وشعاعاً من الإيمان ، تتجلى فيه عظمة العقيدة الصحيحة ، وقد

وصفهم الحسين (ع) بقوله : لقد خبرتهم وبلوتهم ، فلم أجد فيهم إلا
الاشوس الأقعس ، يستانسون بالموت دوني استيناس الطفل بمحالب أمه ،
وذلك بعد أن جمعهم ليلة العاشر من المحرم ، وألقى عليهم خطابه التاريخي
الذي عبر فيه عن موقفه تجاه أعدائه ، وقد رفع المسؤولية عن أصحابه ،
وأذن لهم بالانصراف عنه :

قال عليه السلام : اثني على الله أحسن الثناء
وأحمد على السراء والضراء ، اللهم اني أحمدك
على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن
وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وأبصاراً
وافئدة ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد؟ فاني لا أعلم اصحاباً أوفى ولا خيراً
من اصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل
من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً^(١) .
ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ،
وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ
ليس عليكم مني ذمام ، وهذا الليل قد غشاكم
فاتخذوه جلاً وليأخذ كل رجل منكم بيد
رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً
وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، فإن القوم

(١) الطبري ٢٣٨/٦ .

إنما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب
غيري (١) .

* * *

وتلقت الصفوة المؤمنة هذه الكلمات من زعيمهم وقائدهم أبي عبدالله
الحسين ، فها هو يرفع عنهم مسؤولية الجهاد ، ويفتح أمامهم أبواب الحياة
ويجعل لهم الاختيار بين الموت والسلامة ، ويخبرهم بتقرير المصير .

وهنا تبدو على وجوههم علامات التأثر ، ويجري في عروقهم دم
الحماس الديني ، وتلهب مشاعرهم فيتسابقون للإعراب عما تنطوي عليه
ضائرتهم ، وما صمموا عليه في هذه المرحلة الراهنة .

وبدأ العلويون الكلام بحماس يعبر عن الاستماتة والتضحية في سبيل
الله ، وإن ذلك أقصى ما يتمنونه وقالوا : ولم نفعل ذلك ؟ النبى
بعدك !! لا أرانا الله ذلك أبداً (٢) .

وبعدها التفت إلى بني عقيل وقال : حسبكم من القتل بمسلم
أذهبوا فقد أذنيت لكم .

فقالوا بأجمعهم إذن ما يقول الناس وما
نقول لهم ؟ أفا تركنا شيخنا وبني هومتنا
خير الأئمة ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن
برمح ، ولم نضرب بسيف ولا ندرى ما
صنعوا ، لا والله لا نقبل ذلك ، ولكن

(١) إِبصار العين ص ١٠

(٢) الطبري ٢٢٨/٦

نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا ، نقاتل معك
حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك^(١) .

ثم تكلم الأنصار وأعربوا عن إخلاصهم وأول من تكلم منهم مسلم بن
هوسجة وقال :

وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك ؟ آمم
والله لا افارقك حتى أظعن في صدورهم برحبي
وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو
لم يكن بيدي سلاح اقاتل به لقدفتهم بالحجارة
حتى أموت معك .

وتبعه سعيد بن عبد الله الحنفي قائلا :

والله لا أتخلى عنك حتى يعلم الله اننا قد حفظنا
وصية رسوله فيك أما والله لو علمت اني أقتل
ثم أحيأ ثم أأحرق حيا ثم أذري يفعل بي
سبعين مرة لما فارقتك حتى ألقى حمامي
دونك . وكيف لا أفعل ذلك وانما هي قتلة
واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء
لها أبدا .

وقام زهير بن القين وقال :

والله وددت اني قتلت ثم نشرت حتى اقتل
كذا الف مرة وان الله عز وجل يدفع ذلك

(١) الكامل ٢٤/٤ .

القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيّة من
أهل بيتك (١) .

وتكلم باقي اصحاب الحسين بما يشبه بعضهم بعضاً فجزاهم الحسين
خيراً (٢) .

وقال لهم : اني غداً اقتل وكلكم تقتلون ولا يبقى منكم أحد .

قالوا باجمعهم : الحمد لله الذي اكرمنا بنصرك وشرفنا بالقتل معك
أو لا نرضى ان نكون معك يا ابن رسول الله (ص) .

(١) ارشاد المفيد ومقتل الحسين للمقرم ٢٣٥

الاتجاه الى الله

وبعد أن انتهى هذا الاجتماع العظيم الذي تمثل فيه الاخلاص في التضحية في سبيل الله ، ذهب كل لعمله في بقية الليل ، فهذا يقوم باكمال ورده ، فيعود لمصلاه ، مقبلاً على ربه ، يناجيه بقلب قد رفض حب الدنيا واشتاق إلى لقاء ربه وقد وصفهم الرواة في تلك الليلة : انهم باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد ، وراكع وساجد . ومنهم من يجتمع بأصحابه لمبادلة الرأي في لقاء الأعداء ، عندما تقع الحرب ، وكيف تكون خطة الهجوم وخطة الدفاع .

وذاك يتفقد البيوت ويمر بالشغرات ، لرد الهجمات الارهابية التي استعملتها فرق الجواله في الليل .

وذاك يجتمع بأهل بيته يوصيهم بالصبر ، وتحمل المتاعب والقيام بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم ، بعد أن تقتل الرجال في ساحات المعركة . وبعد أن بقي من الليل شطره ، اتجهوا جميعاً الى الله يناجونه ويتضرعون اليه ، ويطمعون في رحمته ، فهم وفوده في الغد وحماة دينه وصفوته من خلقه اليوم .

وبأت العوائل في تلك الليلة على وجل واضطراب ، فالحالة مؤلمة والوضع رهيب والجيش يحيط بهم من كل الجهات، وهم يرددون ويبرقون ويرددون أهازيج الحرب المخوفة ، والتهديدات المزعجة ، ولقد كانت الحالة تبعث على الألم من حال تلك العوائل المخدرة والأطفال الكثيرة الذين تختلف أعمارهم ، فمنهم الرضيع في مهده والدارج في مقتبل عمره ، ومنهم أكبر من ذلك ، وقد باتوا جميعاً بلا زاد ولا ماء ، فقد ذبلت شفاههم من الظما ، وذوى عودهم ، وانحنت رقابهم ونبحت أصواتهم ، أما الرضيع ففي اغناء من العطش فقد جف اللبن من المراضع وذبلت الشفاه من الحرارة ، وشدة الظما ، والدارج يستمسك في سيره عندما يرى تجمع أطفال هناك عسى أنهم سعدوا بلقاء فيشاركهم ، وبعضهم ازال الرمال عن وجه الأرض ووضع صدره على التراب لبرودته ، وكانت العقيلة زينب ترعى بحسن رعايتها ذلك الجمع من النساء والأطفال .

فهي تحمل عبء المعركة وثقل الرعاية ، ومسؤولية تنفيذ نتائج الثورة كما أنها تقوم في تلك الليلة بأعظم مهمة من رعاية النساء ، وتهتدئ روع الأطفال .

* * *

وعاد الحسين الى خيمته. قال الامام زين العابدين: اعتزل أبي في خباء له وهو يعالج بسيفه ويصلحه ويقول :

يادهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل

من صاحب وطالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الأمر الى الجليل وكل حيّ سالك سبيل

وعندما طرق هذا الكلام سمع العقيلة توجهت نحو الحسين وقالت :
واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ، ماتت أمي فاطمة ، وأبي علي ،
وأخي الحسن ، يا خليفة الماضين ، وثمان الباقيين ، فنظر اليها الحسين وقال :
يا اختاه لا يذهبن بحملك الشيطان تمزي
بعزاء الله واعلمي ان أهل الأرض يموتون وان
أهل السماء لا يبقون وكل شيء هالك إلا وجهه
ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة .

فقال عليها السلام : أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟ فذاك أقرح لقلبي
وأشد على نفسي .

كانت هذه أول وصية من الحسين لاخته ، اعلماً لها بتحمل المسؤولية
وان تكون امام الكوارث المقبلة ، كالجبل الأشم ، والصخرة الصماء ،
تتكسر عليها كل عوامل الذلة والإنكسار ، ولا تستولي عليها دوافع
الضعف ، وعوامل الإنهيار ، وأن تناسي مجدها رسول الله ، وتتعزى
بعزاء الله .

* * *

انه عبء ثقيل في تحمل مسؤولية الكفاح المتواصل لربط الثورة

بأهدافها المتوقعة وعواملها المنتظرة ، وقد تجسدت لها الحوادث بعد أن
أطلعها الحسين على كثير من مهباتها ، وفتح أمامها نوافذ مهمة مهّدت لها
طرق التسلية عما تلاقيه فيها من بلاء وما تصطدم بها من نكبات .

ولقد كانت على موعد مع هذا الحدث العظيم ، حدثها أمها فاطمة
الزهراء وسمعت من أبيها علي ، ما يدل على وقوع ذلك ، وكما لمّح لها
أخوها الحسن بآثار الفاجعة ، وصرّح لها الحسين بدنو ما كانت تخشاه ،
وحلول ما كانت تتوقعه .

ولقد تحملت مسؤولية اتمام الرسالة التي قام بها الحسين (ع) فأوضحت
للعالم عوامل الثورة ، فنبهت الغافل ، وفضحت تلك الدعايات المضلّة .
لقد مثلت زينب دور البطولة في ميدان الجهاد ، وثبتت أمام
الحن والمكاره ، ثبوت الجبل أمام العواصف .

واحتسبت ما أصابها من بلاء في جنب الله؛ طلباً لرضاته وجهاداً في
سبيله ، واعلاء لكلمته .

لقد أدت واجبها في ساعة الحنة ، فهي تسلي الثاكل وتصرّ الطفل ،
وتهدئ روع العائلة .

وسنرى في مسيرتنا لركبها الحزين، كيف وقفت أمام مجتمع الكوفة
فحملتهم مسؤولية هذه الجريمة الكبرى، ووسمتهم بالذل ، وألبستهم العار،
كما سنرى كيف قابلت يزيد الماجن المستهتر الطائش ، فأوضحت للملأ
لحاده وكفره ، وسلبته مواهب التفكير، فوقف أمام قوة الايمان
موقف ذلة وانكسار ، فكان النصر حليفها ولا زال إلى الأبد .

وعند الصباح

وطلع فجر اليوم العاشر من المحرم . وكان يوم الجمعة ، واصحاب الحسين مستقبلين القبلة ، يؤدون فرضهم ، وهم يرفعون اكفهم للسما يستنزلون الرحمة ، ويسالون الله النصره ، يرمقون السماء بعيون تترقق بين اجفانها دمة الفرح ، انها دمة فرح لقاء الله والفوز برضوانه ، والموت بساحات الجهاد في سبيله .

انهم قد تجردوا عن كل شاغل ، وابتعدوا عن كل ما يبعدهم عن حظيرة القدس ، فهم مشغولون بذكر الله ، يرددون آياته ويتحملون مسؤولية الجهاد ، والدفاع عن الحق ، فلم يعبثوا بكثرة الجيش ، ولم ترهبهم قعقة اللجم ولا استكك الأسنة ، وخفق الرايات وأراجيز الحرب .

انهم أقبلوا على الله واتجهوا بكل مشاعرهم ، وقد ملك الايمان قلوبهم وتجسدت المسؤولية الملقاة على عاتقهم أمام أعينهم ، فهانت عليهم الدنيا لعظم الهدف ، فلم يشغلهم شاغل إلا انتصار الحق ، وإزهاق الباطل ، وقد وصفهم الامام الصادق بقوله :

إن أصحاب جدِّي الحسين ، كانوا لا يحسون بآلم الحديد .
وذلك لاتجاه شعورهم في اداء مهمتهم ، وعلم النفس يقر هذه الظاهرة ،
والتجارب تؤيد ذلك .

* * *

وقبل أن يتموا تعقيب الصلاة تهباً الجيش الأموي للحرب ، ودنت
الساعة الحرجة التي يفصل فيها التاريخ بين قوتين قاهرتين ، هما قوة
الخير ، وقوة الشر التي اصبحت الجولة الحاسمة بينهما في ميادين الطف ،
إذ التقى الاسلام والعناصر المعادية هناك لتصفية الحساب .

ولأن انتصرت قوى الشر في تلك المعركة فانما هو انتصار مؤقت
وظفر محدود ، ففي تلك الجولة الحاسمة ظهرت العناصر المندسة وازيلت
البراقع التي كان يتستر بها اعداء الاسلام ، وبقي يوم الحسين تهتز له
عروش الظالمين وتهوي بصرخته المدوية تيجان المستبدين . وبقي الحسين
وسيرته الخالدة ، سيرة البطولة والفداء ، سيرة التضحية والعقيدة ، سيرة
العزة والكرامة . ولقد كتب بدمه المسفوح أسمى معاني التضحية في سبيل
نصرة الحق واقامة العدل . والنصر حليفه على مر الزمن وتعاقب
الأجيال .

فِي أَنْظَارِ الْقِتَالِ

وقف المعسكر الأموي على أهبة الاستعداد للهجوم وانتظار أوامر القيادة في الزحف ، وقام الجيش باستعراض عام فقد جالت الخيول على كثرتها أمام معسكر الحسين ، وقاربوا مخيم عياله لادخال الرعب وإظهار القوة ، وبيان العدة وكثرة العدد الذي ازدلف ذلك اليوم والذي يقدر عدده بثلاثين ألفاً على أصح الأقوال .

فقد جاء عن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) وهو من شاهد المعركة ووعى أخبارها على ما به من شدة المرض ، أنه قال : ما من يوم أشد على رسول الله من يوم أحد قتل فيه عمه حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله ، وبعده يوم موتة قتل فيه ابن عمه جعفر ، قال ثم لا يوم كيوم الحسين ازدلف اليه ثلاثون ألفاً يزعمون أنهم من هذه الامة ، وهو يذكرهم بالله فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً ، وظلماً ، وعدواناً .

* * *

لقد تقدم ذلك الجيش وهم يرفعون شعار النزول على حكم الأمير عبيد الله ابن زياد ، وكانت هذه التحركات بعد طلوع الفجر ، وقد توقف الهجوم لانتظار جواب الحسين ، في تقرير المصير لأنه استمهلهم عصر يوم الخميس تاسع محرم لمدة ليلة .

والكل ينتظر النتائج بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة التي يطلبونها .
اما الصلح وهو الزول على حكم ابن زياد ، أو القتال . وقد سيطر على
الموقف غموض والجيش بحيرة وارتابك وإذا بالحسين يخرج على ذلك الجمع
بتلك الطلعة التي بهرت العقول هبة وجلالا ، وقد احاط به أخوته
وأنصاره ، كما تحيط النجوم بالقمر .

خرج (ع) وهو معتم بعامة رسول الله (ص) ومتقلد سيفه .
خرج (ع) بتلك الطلعة التي جللتها قدسية الامامة ، وعلتها أنوار
النبوة ، وهو يحمل المصحف بين يديه لاتمام الحجة ، وانقاذ هذه الجموع
الغفيرة التي ساقها الجهل ، وحدى بها الطمع ، الى هوة الملكة .
إنه يريد ان يعلن للملأ دفاعه عن الحق ، وملازمته القرآن
قولا وعملا .

إنه يريد أن يترك للأجيال القادمة خطة المسير على أهداف
الرفعة والسمو .

ها هو يقف امام ذلك الجيش العظيم ، بعد أن علم إصرارهم على
قتله وامتناعهم عن الاستجابة لكل حلّ دون اعلان الحرب .

وها هو يلقي بحجته ، ويذكرهم بوعد الله ووعيده على خيانتهم
وغدرهم له ، ونبذهم تعاليم الاسلام وراء ظهورهم .

إنه يريد أن يعري ادعاء الاسلام ، ويزيل براقع التستر في صفوف
المسلمين وهم يعملون على هدمه

إنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الشيطان هي السفلى .
 إنه يتقدم نحو أعدائه وقد احاطت به الصفوة من أهل بيته وخلّص
 أصحابه وكتاب الله بين يديه رافعاً صوته بالدعاء إلى الله والتضرع
 بين يديه .

ونادى بأعلى صوته : أيها الناس أويا أهل العراق اسمعوا قولي ، ولا
 تعجلوا بي حتى اعظم بما يجب لكم عليّ ، وحتى أعتذر اليكم من مقدمي
 عليكم ، فان قبلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وانصفتُموني ، كنتم بذلك
 أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر فاجمعوا
 أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم افضوا إليّ ولا تنظرون
 إن وليّ الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، ثم قال :

« اما بعد ؛ فانسبوني ، من أنا ، ثم ارجعوا
 الى انفسكم فعاتبوها ، وانظروا : هل يصلح
 لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ »

ألست ابن بنت نبيكم (ص) وابن
 وصيه ، وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله ،
 والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه ؟
 أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ، أو ليس
 جعفر الشهيد الطيار عمي ؟

أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول
 الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي :
 « هذان سيدا شباب أهل الجنة ، فان

صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما
 تمعدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه
 أهله ، ويضرب من اختلقه ، وإن كذبتوني
 فإن فيكم من أن سألتموه عن ذلك أخبركم :
 سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد
 الخدري ، أو سهل بن سعد الساعدي ، أو
 زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك يخبروكم
 أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله
 عليه وآله لي ولأخي ، أفما في هذا حاجز
 لكم عن سفك دمي ؟ .

فقال له شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف إن كانت
 يدري ما تقول .

فقال له حبيب بن مظاهر : والله إني لأراك تعبد الله على سبعين
 حرفاً !! وأنا أشهد أنك صادق ما تدرك ما يقول قد طبع الله
 على قلبك .

ثم قال لهم الحسين : « فإن كنتم في شك من هذا
 القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم ؟ فوالله
 ما بين المشرق والمغرب ، ابن بنت نبي غيري
 منكم ولا من غيركم ، وأنا ابن بنت نبيكم
 خاصة . أخبروني اطلبوني بقتيل منكم
 قتلته ، أم مال لكم استهلكته أو بقصاص
 من جراحة ؟

فاخذوا لا يكلمونه فنأدى : يا شبت بن ربعي ، ويا حجار بن ابجر
ويا قيس بن الاشعث ويا يزيد بن الحارث و . و . ألم تكتبوا إليّ ، أنت
قد أينعت الثمار ، واخضر الجناب وطمت الجمام ، وانما تقدم على جند
لك مجندة فاقبل .

قالوا له : لم نفعل . فقال سبحان الله بلى والله لقد فعلتم ، ثم قال :
ايها الناس إذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم إلى ما من من الأرض .
فقال له قيس بن الاشعث : أولا تنزل على حكم بني عمك فانهم لن
يروك إلا ما تحب ولن يصل اليك منهم مكروه ؟
فقال له الحسين : انت اخو اخيك تريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر
من دم مسلم^(١) .

* * *

لا والله لا اعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا
أقر اقرار العبيد عباد الله اني عدت بربي
وربكم أن ترجون اعوذ بربي وربكم من
كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

* * *

ألقى الحسين هذا الخطاب العظيم بلهجة قوية وحجة قوية ، فقد

(١) الطبري ج ٦ والكامل ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

أوضح الموقف ورفع الستار عن كل ما يختلج في القلوب ، من تشكيك حول موقفه وقد ابان بأقواله منهج ثورته وبيان نهضته ، وانه مصمم على مواصلة القتال لنصرة الحق والعدل ، ولو تركه القوم لم يتركهم لأنه. تأثر للحق ، وقد تركوا العمل به وأقبلوا على الباطل كما أوضح لهم .

إنه لم يقدم أرضهم إلا بعد أن دعوه ، ومنهم أولئك القوم الذين أصبحوا قواد جيش وزعماء حركة ، وقد كاتبوه بالأمس ، ولكنهم قابلوه اليوم بكل صلافة ، وبدون استحياء ، وأجابوه بجواب ليس للتعقل فيه من أثر ، ولا للتفكير فيه من صلة .

فقالوا: انا لا ندري ما تقول. انزل على حكم بني عمك وانا لسنا تاركيك. وهنا اتضح الموقف عن خطين متساويين ، إما التنازل من الحسين وإما الحرب معه. والحسين (ع) صمم على خطين لا ثالث لهما. إما أن يستسلموا لدعوته والوفاء بما عاهدوه ، أو التضحية بإعلانها كلمة خالدة ترددها الأجيال وتسير على نهجها الأبطال، وأبادة الضيم، وترك تلك الأجسام الثقيلة على الأرض لا تستقيم عليها فهي تموج حيرة وذهولا .

نادى (ع) وأعطى دروسه الأخيرة ، ورفع شعار الثورة ، وأعلن عن وقوعها بقوله : والله لا أعطي بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر أقرار العبيد. ثم قال: ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر . وأكد ذلك بقوله : لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما. وتيقظت ضمائر جماعة من أعيان جيش ابن سعد فالتحقوا بمعسكر

الحسين (ع) وهم من أبطال الكوفة ابو الشعثاء ويزيد الكندي وغيرهم
عدد يربو على الثلاثين رجلا كما التحق به ليلة العاشر من المحرم جماعة
تسللوا تحت جناح الظلام .

وأشهر من التحق بالحسين يوم العاشر الحر بن يزيد الرياحي لمكانته
الاجتماعية ومهمته العسكرية .

الحمر بن يزيد الرياحي

بقي الحر ينتظر العواقب ، فجاءه المدد من جيش الكوفة ، فكان أهم تفكيره انه هو السبب في ائزال الحسين ، والحجر الاول لبناء هذا التجمع العظيم ، ونظر الى الاجراءآت التي اتخذها ابن زياد لمضايقة الحسين ، حتى ادى الأمر إلى حرب لا بد منها وسمع خطاب الحسين واصراراه على المضي في نهجه .

وهنا يتقظ ضميره ، وجاء الى عمر بن سعد قائلا : - أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال ابن سعد : إي والله قتالا أيسره ان تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي .

وهنا يعود الحر الى تفكيره العميق ، ويلازم صمته ، ويجيل النظر في من حوله ، ويفاوض بعض اصحابه في الالتحاق بالحسين ، فتهيبوا من ذلك ، ثم انعزل عن اصحابه في حالة تجلب الانتباه لكل من يراه لأنه كان يرتعد كالسعة إذ يلاعبها الهوى ، مضطربة اعضاؤه مصفر وجهه .

إنها حالة غريبة ، فالحر بعد من شجعان العرب ، وهو اليوم من

أكبر قواد الجيش ورئيس لعشيرة ذات نفوذ وقوة ، ولكنها الحقيقة التي لا بد له من الاعتراف بها فهو مخطيء فكيف يتدارك خطاه والاعتراف بالخطأ فضيلة .

هو في صراع مع نفسه الأمانة بالسوء ، ويحاول التغلب على عنصر الشقاء وعوامل الهلكة ، فاستنكر عليه كل من رآه بتلك الحالة ، فقال له المهاجر بن أوس : أتريد أن تحمل ؟ فسكت واخذته الرعدة ، فارتاب المهاجر من حالته وقال : لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك ، فما هذا الذي أراه منك ١١٢

فقال الحر : اني اخير نفسي بين الجنة والنار ، والله لا اختار على الجنة شيئاً . ثم ضرب جواده نحو الحسين ، وتقدم وهو يرفع صوته بالدعاء ويقول اللهم اني اليك تبت فتب عليّ فقد اربعيت قلوب أوليائك وأولاد نبيك .

ويدنو من الحسين ومعه ولده ، وهو يتعثر بأذيال الخنجر وقد خالجه اليأس من قبول التوبة ، ويخشى من الرد الفاضح ، ان لم يرضَ الحسين عنه ، ولم يقبل توبته .

ووقف امام الحسين معترداً ، وقد غيّر الندم نبرات صوته :

أيا ابن رسول الله انا صاحبك الذي حبسك
عن الرجوع ، والتحرك ، وسأترك ، وجمعتمك
في هذا المكان ، ووالله ما ظننت ان القوم
ينزلون منك هذه المنزلة ابداً . حتى أصبحوا

اليوم يريدون قتلك ، ولو علمت انهم يلتهمون
إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ،
واني قد جئتكم ثائماً ، بما كان مني إلى ربي ،
وجئت مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين
يديك ، وقد حاولت أن احضر من القوم
جماً منهم فتمنموا وتخوفوا فجئت بنفسي
فهل تقبل مني هذه التوبة .

قال الحسين : 'تب' يتوب الله عليك . والتحق به أخوه مصعب ،
وعروة مولاه وقتل بين يدي الحسين .

وأحسن ابن سعد بهذه الظاهرة وان الخطر يحيط بجيشه ، فلو
استدام الحسين في بيانه ولم تقع الحرب بسرعة لمدة من الوقت لحدث
انقسام في جيشه وانضم الأكثر إلى جانب الحسين ، ولرجعت كفة
معسكره ، وخسر ابن سعد تلك المعركة ، وقد حثه الرقباء عليه بتدارك
الأمر ، ودرء هذا الخطر ، ولأجل ذلك أسرع ابن سعد في إيقاد
نار الحرب ، إذ لم يترك الحسين (ع) طريقاً يأمل فيه إرشاد ذلك الجمع
الذي اضله الشيطان إلا سلكه .

لقد كلمهم بالحكمة ، وطرق اسماعهم بالموعظة ، جادلهم بالتالي هي
أحسن وأوضح لهم ما كان معمى عليهم ، وحاول أن يدفع بكل جهده
عنهم كارثة جريمة قتله ، إذ وجدهم مصممون على ذلك .

لقد كان (ع) حريصاً على هدايتهم فهو يعظهم ، ويقدم لهم الحجة
أثر الحجة ، وقيم الدليل أثر الدليل .

وقد شاركه أصحابه في تلك اللحظات بأمر منه فقد أمر (ع) برير
ابن خضير الحمداني وقال له : كلم القوم واحتج عليهم .

فتقدم برير حتى وقف قريباً من القوم ، وكانوا على أهبة الزحف
للقتال فقال لهم برير :

يا هؤلاء اتقوا الله فان تسل محمد (ص) قد
أصبح من اظهركم وهؤلاء ذريته وعترته
وحريمه فهاؤا ما الذي عندكم وما تريدون
أن تصنعوا بهم .

فقالوا : نريد أن نمكن عبيد الله بن زياد فيرى رأيه فيهم .

فقال برير : ولا تقبلون منهم ان رجعوا الى
المكان الذي اقبلوا منه ؟!

يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم اليه وعهودكم
الذي أعطيتموها من أنفسكم وأشهدتم الله عليها
وكفى به شهيداً ، يا ويلكم دعوتهم أهل بيت
نبيكم وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم حتى
إذا أتوا عليكم اسلمتموهم الى عبيد الله بن زياد
وحلتم بينهم وبين الماء الجاري وهو مبذول
يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس ومردة
الكلاب والخنازير فبئس ما خلفتم محمداً (ص)
في ذريته (١) .

ولم يكن لكلام برير جواب إلاّ طلب النزول على حكم بن زياد. وكان موقف برير امام القوم وهو يدعو الى كشف أوهام سيطرت عليهم وتخفيف حدة الدعاية ضد الحسين ، لأن بريراً مشهور بالكوفة بصلاحه ومن القراء المبرزين ، وشيخ كبير عرف بالصدق ، واتباع الحق .

وتقدم الحر بن يزيد الرياحي وهو البطل المشهور ، والزعيم المبرز والقائد المحنك ، ومن عرف بالرأي وحسن السيرة ، وله في الجيش أبناء عمومة ، وهو أحد رؤساء الأرباع ، فكان يأمل أن يؤثر بموقفه على ذلك المجتمع ، عندما خاطبهم بقوله :

يا أمل الكوفة لامكم الهبل ، أدعوتكم هذا
العبد الصالح حتى إذا جاءكم اسلمتموه ،
وزعمتم انكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم
عليه لتقتلوه ، وأمسكنم بنفسه ، وأخذتم
بكظمه واحطتم به من كل جانب ، لتمنعوه
التوجه في بلاد الله العريضة ، فصار كالأسير
في ايديكم ، لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع
عنها ضرراً ، وحلّتموه ونساءه وصبيته من
ماء الفرات الجاري ، يشربه اليهود والنصارى
والجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ،
فها هم قد صرعهم العطش ^(١) .

فكان جواب أولئك القوم أن رموه بالنبل .

رسل الحرب وبدا القتال

وقف الجيشان على أتم استعداد للملاقاة فقد تم تنظيم جيش الكوفة في أخذ مواقعه ، وقسم ابن سعد القيادات ميمنة وميسرة ، ووقف هو في قلب المعركة ، تحوط به آلاف الجند من الرماة وغيرهم ، وأعطى رايته دريد موله .

ووقف جيش الحسين كما نظمهم (ع) إذ جعل زهير بن القين على الميمنة ، وحبیب بن مظاهر على الميسرة ، وأعطى الراية أخاه العباس ابن علي (ع) .

وجعلوا يتسابقون الى التضحية ، فالبيت تسابقوا للوقوف في الصف الأول من الميدان ؛ ليسارعوا قبل الأنصار لميدان الحرب .
ولكن الأنصار لم يسمحوا بذلك ، وأرادوا أن يكونوا هم السابقون ؛ دفاعاً واستماتة دون أهل البيت ، ويقولون :

مماذ الله ان تموتوا نحن احياء نشهد مصارعكم
فأخذوا مكانهم في الصف الأول وراء قائدهم
الحسين (ع) .

واستمرت المقابلة مدة من الزمن والحسين يواجه القوم ويعظمهم ويرشدهم إلى ما فيه نجاتهم من الهلكة ، وخشى ابن سعد واعوانه من استمرار الحسين بعظمه وارشاده فاصدر أمره إلى قواد عسكره واعيان جيشه بالتقدم، وتقدم بنفسه ونادى : يا دريد (أو يا زيد) وهو حامل الراية : أذن رايتك ، ثم وضع سهمه في كبذ قوسه ثم رمى بها نحو معسكر الحسين وقال : اشهدوا اني اول من رمى "" . فاطلق أول سهم وتابعه الرماة ، فاقبلت السهام نحو معسكر الحسين وهي كما قيل : كأنها شآبيب المطر ، أو كقطع الليل المظلم . فقال الحسين - وهو ينظر إلى السهام وإلى اصحابه - :

(قوموا يا كرام هذه رسل القوم اليكم) .

وهنا لم يبق بعد من صباة أمل في هداية القوم ، ودفع غائلة الحرب ، فقد استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله .

* * *

وتأهب أصحاب الحسين (ع) ، فقد دنت الساعة المنتظرة وابتدأ القتال في المبارزة .

المبارزة

وهي مفاعلة من الظهور ؛ يقال : برز بمعنى ظهر ، وتقع قبل التحام الجيوش ، أو في فترات متقطعة كما هي العادة في الحروب ، وذلك أن يخرج الفرسان يطلبون أقرانهم . وابتدأ جيش ابن سعد بطلب المبارزة .

وأول من برز منهم : يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله ، وهما مشهوران بالشجاعة والإقدام ، فطلبنا من أصحاب الحسين المبارزة فتقدم عبد الله بن عمير الكلبي وقال : يا أبا عبد الله رحمك الله إئذن لي ، فأذن له الحسين وتقدم اليهما ، وقال له يسار : من أنت ؟ فانتسب لهما .

فقالا : لا نعرفك ، ليخرج الينا زهير بن القين ، وحبيب بن مظاهر .

فقال له عبد الله : وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ؟!

ثم برز اليه وضربه عبد الله بسيفه ، وأنه كان مشغولاً بضربه ، إذ شد عليه سالم مولى عبيد الله بن زياد ، فصاحوا به : قدر هتك العبد ، فلم

يشعر به حتى غشيه فبدره بضربة اتقاها ابن عمير بيده اليسرى فاطارت
أصابع كفه ، ثم شد على يساره حتى قتله وعاد الى معسكر الحسين .

وتبارز الفرسان وتقدم الأقران ، وظهرت البطولات ، وتفوق
أصحاب الحسين (ع) في تلك الجولة التي برز فيها أبطال المعركة وفرسان
الميدان .

* * *

وربما يبرز الرجل الشجاع من الصف ، ويطلب أن يبرز اليه أحد
من أقرانه فيحجمون عن إجابته خوفاً منه ، وحفاظاً على انفسهم .

وكان عابس بن شبيب الشاكري من أولئك الشجعان الذين يحجم
الأبطال عن مبارزتهم ، لشهرته ومواقفه البطولية ، وقد عرفت عشيرته
بنو شاكر بالشجاعة ، والبسالة ، وفيهم يقول أمير المؤمنين علي (ع) :
(لو تمت عدتهم ألفاً لعبد الله حق عبادته) . فكان عابس مرهوب
الجانب وله مشاهد بطولية ، تخافه الأقران وتتحاماه الفرسان .

وحينما تقدم ذلك اليوم وعرفه الناس ، سبق الرعب الى قلوبهم قبل
أن يطلب منازلهم .

يقول الربيع بن تميم الهمداني - وهو خصم لعابس وعدو لدود - :
لما رأيت عابساً مقبلاً عرفته ، وكنت قد شاهدته في المغازي والحروب
وكان أشجع الناس فصحت : أيها الناس ! هذا أسد الأسود ، هذا ابن أبي
شبيب الشاكري ، لا يخرجن أحد اليه . فابتعد الناس عنه .

كان موقف عابس موقفاً مشهوداً وهو رجل واحد يقف امام جمع
غير ، فلا يجسر أحد على الدنو منه ، وحين رأى إحجامهم عن الدنو اليه
احتقرهم ، واستهان بهم ، فرمى المغفر ، وألقى الدرع ؛ فقبل له :
أجنت يا عابس ؟ قال : حب الحسين أجني .

قال ابن كثير : فتحاماه الناس لشجاعته ، فقال لهم عمر بن سعد :
ارموه بالحجارة ، ورموه من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقى درعه
ومغفره ، ثم شد على الناس .

قال الربيع بن تميم : فوالله لرأيته يكر على أكثر من مائتين منهم ثم
انعطفوا عليه من كل جانب فقتل .

قال : فرأيت رأسه في أيدي الرجال ذوي عدة منهم ، هذا يقول :
أنا قتلت ، وذاك يقول : أنا قتلت . فجاء عمر بن سعد فقال : لا
تغتصبوا ، هذا لم يقتله انسان . ففرق بينهم بهذا القول (١) .

* * *

وقد تكون المبارزة من باب المباهلة ، فقد جرى ذلك بين برير بن
خضير الهمداني ، وبين يزيد بن معقل بن عمير بن ربيعة ، وذلك أن
معقلاً برز فقال : يا برير بن خضير كيف ترى صنع الله بك ؟
قال : صنع الله بي خيراً وصنع بك شراً .

(١) ابن كثير ج ٨ ص ١٨٥ .

فقال : كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً . أتذكر وأنا أماشيكي في سكة بني دودان وأنت تقول إن عثمان كذا وإن معاوية ضال مضل وإن علي بن أبي طالب إمام الحق والهدى .

قال برير : أشهد أن هذا رأيي وقولي .

فقال يزيد : فاني أشهد أنك من الضالين .

قال برير : فهل لك أن أباهلك ، ولندعو الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل الحق المبطل ، أخرج لأبارذك .

فخرجوا ورفعاً أيديهما بالمباهلة يدعوانه أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل الحق المبطل . ثم برز كل واحد منهما لصاحبه ، فاختلعا ضربتين فضرب يزيد بريراً ضربة خفيفة لم تضره شيئاً ، وضرب برير يزيد ضربة قدت المغفر ، وبلغت الدماغ ، فخر يزيد بن معقل كأنما هوى من حالق ، وان سيف برير لثابت في رأسه وهو ينضنضه حتى أخرجه وهو يقول :

أنا برير وأبي خضير وكل خير فله برير

ثم بارز القوم فحمل عليه رضي بن منقذ العبدي ، فاعتنق بريراً ، فاعتركا ساعة ، ثم انت بريراً صرعه ، وقعد على صدره ، فجعل رضي يصيح بأصحابه : أين أهل المصاع والدفاع ؟ فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي وحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره ، فلما وجد بريراً مس الرمح ، برك على رضي فعض أنفه حتى قطعه ، وأقبل عليه بالسيف ليضربه حتى برد .

فلما رجع كعب قالت له أخته النوار بنت جابر : أعنت على ابن فاطمة ، وقتلت سيد القراء ، وقد أتيت عظيماً من الأمر ، والله لا أكلّمك من رأسي كلمة أبداً !!

* * *

وقد تكون المبارزة في أثناء الحملة ، والتقاء الفرسان في حومة المعركة ، والغرض من ذلك فك ارتباط الفرسان ، عندما يسند بعضهم بعضاً ويشغل أحدهم عن الآخر ، كما جرى ذلك عندما تقدم الحر بن يزيد الرياحي الى المعركة وأخذ يقاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً ، فكان إذا شد أحدهما واستلحم القتال شد الآخر حتى يخلصه ، فلما نظر اليه يزيد بن سفيان الثغري من بني الحرث بن تميم قال : أم والله لو رأيت الحر لأتبعته السنان ، فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدماً ويتمثل بقول عنتره :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

وان فرسه لمضروب على أذنيه ، وحاجبه ودماؤه تسيل ، فقال الحصين بن تميم التميمي ليزيد بن سفيان : هذا الحر الذي كنت تتمناه . قال : نعم . وخرج اليه فقال : يا حر هل لك في المبارزة ؟

قال : نعم قد شئت . فبرز له .

قال الحصين : وكنت أنظر اليه ، فوالله لكأن نفسه كانت في يد الحر ، خرج اليه فما لبث أن قتله ^(١) .

(١) ابصار اللعين ص ١٢٠ - ١٢١ .

كما برز له رجل آخر من بني زبيد يقال له مزاحم بن حريث فقتله .
 فقال عمرو بن الحجاج : يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ؟ إنما تقاتلون
 فرسان أهل المصر ، وقوماً مستقتلين ، فلا يبرزن لهم منكم أحد ^(١) .
 ومرت الحر يقاتل وجال على فرسه ، فرماه أيوب بن مشرح فاصاب
 فرسه ، واضطرب وكبا ، فوثب عنه الحر ، فكأنه الليث والسيف في
 يده .

قال أيوب : فما رأيت أحداً قط يفري فريه ، وأخذ يقاتل راجلاً
 وهو يقول :

آليت لا أقتل حتى أقتلا ولن أصاب اليوم إلا مقبلا
 أضربهم بالسيف ضرباً مفصلا لا ناكل فيه ولا مهلاً
 وكان يواصل حملاته ويغوص في أوساط الجموع كالليث ، ويضرب
 فيهم بسيفه ويقول :

إني أنا الحر وماوى الضيف أضرب في اعراضكم بالسيف
 عن خير من حل بارض الخيف
 ثم شدت عليه جماعة فقتلوه ، فلما صرع وقف عليه الحسين (ع)
 وأبته بقوله : أنت كما سممتك أمك الحر حر في الدنيا ، وسعيد في
 الآخرة .

* * *

(١) انساب الاشراف خطي ص ٢٢ .

وربما تكون المبارزة بين فرد واحد أو أكثر ، فتكون مبارزة جماعة في مقابل جماعة ، أو كتلة تتألف من عدة أشخاص يحاربون جنباً الى جنب يشد بعضهم بعضاً ، ويدافع بعضهم عن البعض الآخر .

وقد كان أصحاب الحسين كلهم ككتلة واحدة متماسكة وحلقة دفاع في ثبات قلب ، واتجاه واحد ، وقد تقدم من أصحاب الحسين جماعة وهم متماسكون يشد بعضهم عضد الآخر بثبات وإقدام يُرهبون عدو الله .

إن أولئك الجماعة جمعهم داعي الحق ، وهتف بهم صوت الدفاع المقدس ، فخرجوا من الكوفة عندما علموا بتوجه الحسين بعد أن قتل مسلم بن عقيل ، وانهارت قوة الدعوة ، وتبدلت الأوضاع ، خرج هؤلاء النفر وهم :

١ - عمرو بن خالد الأسدي ، وكان من أشرف الكوفة ، المواليين لأهل البيت ، وقد ناصر مسلماً ووازره .

٢ - مولاہ سعد ، وكان شريف النفس عالي الهمة ، تبع مولاہ في توجهه الى الحسين وقتل معه .

٣ - مجتّع بن عبد الله العائذي ، وهو من التابعين ، ومن أصحاب عليّ ، خرج الى الحسين مع ولده عائذ ، وقتلا معه .

٤ - جنادة بن حرب المذحجي المرادي .
فهؤلاء النفر الخمسة استطاعوا الوصول الى الحسين ، رغم الحواجز

التي ضربها ابن زياد على الكوفة ، إذ ساعدهم الحظ ووجدوا الطرماح
يمتار لاهله ، وهو من أعراب البادية ، وله علم بطرقها وكهوفها ، وأوديتها
وسهولها ، فخرج بهم متنكباً الطرق المرصودة ، والمزدحمة بالخيـل
والرجال ، حتى التحقوا بركب الحسين ، ولما وقعت الحرب وبدأت
المبارزة ، كوّن هؤلاء الجماعة جبهة متماسكة ، تخوض ساحة القتال
كأنهم رجل واحد ، وتقدموا يسند بعضهم بعضاً ، وهناك حاول جيش
ابن سعد أن يحيط بهم ويفرق جمعهم ، فعطف عليهم الناس فأخذوا
يحوزونهم حتى فصلوهم عن الاتصال بأصحاب الحسين ، وابتعدوا عنهم ،
فلما نظر الحسين (ع) اليهم ندب اليهم أخاه العباس ، فنهـد اليهم
واستنقذهم ، فجاءوا وقد أنخنوا بالجراح ، وفي أثناء الطريق تعرض لهم
الناس ليقطعوا عليهم الطريق ، فانسلوا الى الحرب ، وشدّوا على القوم
بأسيافهم شدة واحدة على ما بهم من الجراح ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى
قتلوا عن آخرهم .

* * *

قال ابن كثير : وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين والنصر في ذلك
لأصحاب الحسين (ع) لقوة بأسهم ، وانهم مستميتون ، لا عاصم لهم إلا
سيوفهم ، فأشار بعض الأمراء على ابن سعد بعدم المبارزة ^(١) ، فقد كان
الرجل من أصحاب الحسين (ع) يصرع الكثير من أبطال الكوفة ،
فقال عمر بن سعد : صدقت ، الرأي ما رأيـت . أرسل الى الناس فمرهم
بعدم المبارزة

(١) المصدر السابق .

وأحجم أصحاب ابن سعد عن إجابة أصحاب الحسين الى المبارزة فلم يستجيبوا لمن دعاهم اليها ، وبذلك خالفوا أهم شرط من شروط الحروب عند العرب .

كما انهم خالفوا كل القواعد والشروط ، وأكثرهم في ذلك الجيش يعد نفسه في سجن ، ويلازمه القلق والحيرة ، وقد ملك الخوف مشاعره فهو يود الخلاص من هذا المازق .

لقد كان أثر المبارزة بين الأقران في معنوية الجيش الأموي واضحاً ، فإن تلك اللحظات قد تجلت فيها أمور ترفع غشاوة التضليل والخداع ، في ربط تلك الحرب بالدين ، ولكن الوقائع أثبتت زيف ذلك الإدعاء .

فالحسين (ع) كشف الستار ، وأزال حجب التمويه ، كما شاركه أصحابه بالوعظ والإرشاد ، وكانت الصور التي مرت أمام مناظر اولئك كافية لوعيهم ، وردعهم ، ولكن أنى لهم ذلك .

فمنذ بدء المبارزة تقدم للقتال رجال من أصحاب محمد الذين رأوه وسمعوا حديثه ، ومن التابعين ومن القراء ومن عرفوا بالصلاح والتمسك بالدين تجلّى الموقف بصورة لا مجال الى التشكيك فيها بأن المعركة في أقرب وقت ستكون في غير صالح الانتهازيين وذوي الأطماع والذين انطوت نفوسهم على الخبث فساندوا الموتورين من أعداء الإسلام .

الحملة الأولى؛

والتحم الجيشان ووقعت الحرب وجالت الخيل واستكتت الأسنة وثار الغبار، وحمي الوطيس، وكانت الحملة الأولى التي خاضها أصحاب الحسين هي حملة جماعية ضارية، اشترك فيها معسكر الكوفة بكامل قطعاته، وقد خاض أصحاب الحسين تلك المعركة الضارية بعزم يستمد من العقيدة، ويشق من نفس مفطورة من الإخلاص والتضحية دفاعاً عن الإسلام، وجهاداً في سبيل الله، وقد برزت معنويتهم العسكرية للعيان، فكانوا يهزمون الجمع، ويخترقون الجيش. ولقد اخترقوا جيش ابن سعد عدة مرات بقلوب أقوى من الصخر، وقد وصفهم مشاهدوا المعركة من جند ابن سعد بقولهم :

ثارت علينا عصاة ايدها في مقابض سيوفها
كالأسود الضارية، تحطم الفرسان يميناً
وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت لا تقبل
الامان، ولا ترغب في المال ولا يحول حائل
بينها وبين الورود على حياض المنية، لو كففنا
عنهم رويداً لأتوا على المجموع بمحذا فيهما (١).

(١) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٠٧ .

ويفضهم كعب بن جابر ، وهو الذي قتل برير بن خضير الهمداني
بقوله :

ولم ترَ عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كل من يحمي الدمار مقارع
وقد صبروا للطعن والضرب حسراً وقد نازلوا لو أن ذلك نافع^(١)

تقدموا للحرب وهم ينشدون أشعاراً هي لهيب من البطولة ، وشعلة
من النخوة والإقدام . انهم أبوا إلا أن يخوضوا تلك المعركة الحاسمة من
أجل الحق ، وأرادوا أن يضربوا مثلاً على التمسك بالحق ، والاستماتة في
سبيله .

كانوا يتسابقون للذود عن الحسين ، والدفاع عن مبادئه ، وهم يتلقون
سهام أعدائه وهي تهوي عليهم كشأبيب المطر ، فكلما صرع واحد منهم
حل مكانه آخر ، يدفع عنه بصدرة ويجود من أجله بروحه . قد أوقدوا
نار الحرب ، وعلا الضجيج في المعركة ، وكانوا يخوضون في ذلك الجيش
وهم يرفعون أصواتهم بأراجيزهم المعبرة عن طيب المعتقد ، وصدق النية
وصلاية الإيمان ، فهذا يحول في الميمنة ويرتجز :

قد علمت كتيبة الانتصار اني ساحمي حوزة الدمار
ضرب غلام غير نكس شاري دوت حسين مهجتي وداري
وأخر يرتجز ويقول :

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٤٨ .

إن تنكروني فانا ابن الكلبي حسي بيتي من عليم حسي
إني امرء ذو مرة وعصب ولست بالخواار عند النكب
وآخر يغوص في أوساط القوم وهو يقاتل ويقول ويوجه خطابه
للحسين :

أقدم هديت هادياً مهدياً فاليوم نلقى جدك النبياً
وحسناً والمرضى علياً

وآخر يعتز بحسبه دون نسبه فهو يقاتل ويرتجز :

كيف ترى الفجار ضرب الأسود بالسيف صلتاً عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليد أرجو به الجنة يوم المورد

* * *

لقد وقف انصار الحسين موقفهم المشرف في الدفاع والتضحية دون
المبدأ والعقيدة ، وكانوا بمعنوية سامية ، وعزائمهم تبعثهم بالاستماتة بالحياة ،
ولقد أبوا إلا أن يخوضوا تلك المعركة الحاسمة ، فكانت موقفهم موقف
الاعتزاز بالنفس ، والثبات في الشدة ، وأرادوا أن يضربوا لأنفسهم
مثلاً في التضحية والفداء ، وراحوا يقتحمون عدوهم كالأسود الضارية ،
وأخذت خيلهم تجول وعلى صهواتها أبطال العرب وفرسان مصر ، فلم
تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفتهم ، فلما رأى ذلك عروة
ابن قيس وهو قائد كتائب الخيالة ، بعث الى عمر بن سعد يقول له :

ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه
العدة اليسيرة ؟ ابعث إليّ الرجالة والرماة^(١).

فبعث عمر بن سعد الرماة وعليهم الحصين بن تميم ، فتقدم اليهم أبي
يرشقوا أصحاب الحسين بالنبل ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم ، وجرحوا
الرجالة ، ولكن أصحاب الحسين ترجّلوا وخاضوا المعركة وقاتلوا
أشد قتال حتى انتصف النهار .

وكان في أصحاب الحسين من الرماة الذين هم مضرب الأمثال في
الإصابة ولم يسبق لهم مثيل في الرمي ومنهم يزيد بن مهاجر أبو الشعثاء ،
وكان من شجعان الكوفة وفرسانها ، وهو ممن تيقظ ضميره ، والتحق
بجيش الحسين وتقدم بين يديه وقاتل فارساً ، فلما عقرت فرسه جثا على
ركبتيه بين يدي الحسين ، وكانت معه مائة سهم فرمى بها ما سقط منها
إلا خمسة سهام ، وكان الحسين يقول له : سدّ الله رميتك ، فلما نفذت
سهامه قام على قدميه وقاتل حتى قتل شهيداً^(٢) .

* * *

ونظراً لحراجه الموقف وأهمية القتال وكثرة الرماة كان بعض
أصحاب الحسين قد التزموا الوقاية بأنفسهم دونه ، وشكلوا في ذلك اليوم
حلقة دفاع ودرع وقاية من أجسادهم ، ووقفوا يتقنون السهام والسيوف
عنه .

(١) الطبري ج ٦ ص

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨ .

منهم : حنظلة بن سعد الشبامي ، وعمرو بن قرصة الأنصاري ،
وسعيد بن عبد الله الحنفي ، فكان لا يأتي سيف للحسين إلا اتقوه دونه ،
ولاسهم إلا تلقوه عنه ، فإذا أُتخن أحدهم بالجراح وأثرت فيه كثرتها
أثراً عظيماً أدى إلى ضعفه عن الوقاية يلتفت للحسين ويقول :
أوفيت يا ابن رسول الله ؟ فيجيبه الحسين بقوله : نعم أنت أمامي
في الجنة فاقراً جدي السلام وأعلمه اني في الأثر ^(١) .

ولما أقام الحسين (ع) صلاة الظهر في ذلك الموقف ، واستمهل أعداء
الله بأن يكفوا عنه إلى حين انتهاء الصلاة ، ولكنهم لم يفوا بذلك ، فلم
يمنع أولئك القوم احترام الموقف ، وحرمة الفرض ، ورعاية العهد ،
فكانوا يرمون الحسين وهو مشغول في الصلاة ، فوقف سعيد بن عبد الله
الحنفي يتلقى السهام دونه ، فلما نزف دمه من كثرة النبال خراً صريعاً
وهو يقول :

اللهم أبلغ نبيك عني السلام وبلغه ما لقيته من الجراح ^(٢) .

* * *

ورأى عمر بن سعد أن أصحابه لا يقدرّون على اتيان أصحاب الحسين
إلا من جهة واحدة ، لاجتماع مضاربهم ، وتقارب أبنيتهم ، فأرسل رجالاً
من جنده ، فهجموا على البيوت يقوضونها عن اليمين والشمال ، فانكفاً

(١) كاشف الغطاء مقتل الحسين ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق .

أصحاب الحسين للدفاع عن المضارب ، فكان الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض أو ينهب ويرمونه من قريب أو يصرعونه ، فأمر عمر بن سعد بحرق البيوت ، فأحرقت . فقال الحسين : دعوهم يحرقونها فانهم لا يجوزونها . واستمر القتال وأدت الصفوة المؤمنة واجبها المقدس ، وسقطوا في ساحة المعركة يرتدون أبراد الشهادة موشحة بدمائهم الطاهرة ، فسلام الله عليهم ورحمته وبركاته .

بين العقيدة والمأطفة

صراع مر وموقف حرج ، ونهاية خطيرة ، عندما يقف المرء بين العقيدة والعاطفة ؛ فالعاطفة سلطان قاهر وحكومة قاسية تسير بالإنسان على غير الواقع في كثير من أدوار تحكمها ، وقليل من الناس من يفلت من سلطانها ويتحرر من عبوديتها .

وقد ظهر في أنصار الحسين أجلى مظاهر الانتصار على العاطفة فكان الحكم للعقيدة ، فساروا على بصيرة من أمرهم ، وهدى من دينهم ، وكان علمهم لله وحده جهاداً عن دينه . ودفاعاً عن مقدساته ، فلا نخوة ولا تعصب ، ولا عاطفة تذهب بهم مذاهب منحرفة عن الواقع .

فهذا يقدم ولده بين يديه ليراه صريعاً متشطحاً بدمه في سبيل الله ، وهذا يقدم مولاه ، وهذا يقدم أخاه ، ينظر إليه ويسره ذلك الموقف إذ يعده نجاحاً في هذه المعركة .

وكان محمد بن بشير الحضرمي وسط المعركة في تلك الساعة الحرجة جاءه نبأ بأن ابنه أسر بشعر الري ، فقال له الحسين : أنت في حلٍّ من بيعتي فاعمل في فكك ولدك . وهنا يقف الرجل بين عاملين : عطفه على ولده ، ودفاعه عن عقيدته . وقد حصلت له الرخصة من امامه . فكان جوابه : لا والله لا أفعل ذلك ، أكلتني السباع حياً إن فازتكم .

فقال الحسين : إذا اعطى ابنك هذه الآثواب الخمسة ليعمل في فكك أخيه . وكان قيمتها ألف دينار^(١) .

(١) الطبري ٦

وتجلت في معركة الطف صور من الصراع بين العقيدة والعاطفة ،
وكان الانتصار للعقيدة ، وقد ظهر في مواقف النساء ، فكان للمرأة
المسلة دور في ذلك المعترك ، فقد انتصرت هنا العقيدة ووقفت المرأة
موقفاً بطولياً لم يشهد التاريخ مثله ، فكان واجب العقيدة فوق العطف
والحنان .

هذه أم عمرو بن جنادة الأنصاري التي ضربت أروع مثل بطولي إذ
وقفت موقف حزم وثبات ، فإنها بعد أن قتل زوجها وشاهدت مصرعه
ازدادت قوة وثباتاً فأمرت ولدها عمرو بن جنادة أن يتقدم للدفاع عن
الحسين (ع) ، وكان عمره احد عشر عاماً ، فلما نظر اليه الحسين رق له ،
فهو غلام صغير مات أبوه وبقي مع أمه ، فشكره الحسين وقال : ارجع
الى أمك تتسلى بك .

عاد الولد ودمعه تسبق أنفاسه ، وكانت أمه تنظر لساحة المعركة
عسى أن يأذن الحسين لولدها فيبرز في المعركة وهو فلذة كبدها تود أن
تراه بين جموع ليس للرحمة والرقّة مكان في قلوبهم وهم وحوش في هياكل
إنسان ، ولكن ولدها عاد اليها ، فارتاعت لخبية الأمل . أكان رجوع
ولدها حباً بالسلامة وفراراً من الموت لأنه صغير السن وفي مستقبل العمر
فقالت :

بُني ! لماذا رجعت ؟ !

فقال : الحسين لم يأذن لي ويقول : ارجع الى أمك تتسلى بك .

قالت : نعم ؛ إنه رأى صغر سنك فعظم عليه ذلك ، ونظر الى حائل سيفك يخطان في الأرض فاشفق عليك وعلم بحالتي فرقاً لما بيني وإرجع الى الحسين وقل له : إن أمي هي التي أمرتني .

عاد الغلام وهو يحوم في أفكاره ويتعثر في أذيال الخوف من الحسية إذ يرد الحسين طلبه وهو يحسب للرد ألف حساب .

دخل على الحسين وهو مصفر اللون وقال وهو مضطرب :

سيدي ، إن أمي أمرتني بالجهاد دونك .

قال الحسين (ع) : جزاكم الله خيراً ! ابرزيا ولدي . فتهلل وجه الغلام فرحاً وتقدم نحو الحسين يقبّل يديه .

خرج الغلام بكل ثبات وقوة ، وهو يرمق السماء بعينيه . انها نظرة استعطاف وعبودية لخالقه وشكراً لما منحه من هذه المنزلة .

وكانت الأمّ الأرملة التي فقدت زوجها قبل لحظات ، ولم تحف دماؤه ولم ترقأ دمعها عليه بعد ، تنتظر النتيجة وتود أن ترى ولدها يتقدم لساحات الجهاد ، وبلغت نبرات صوته مسامع أمه وهو يؤدي التحية للحسين ، وكانت عادة أصحابه أن يسلموا عليه قبل المبارزة . ووقفت المرأة تنظر ولدها وهو يتقدم للموت راجلاً وهو صبي لم يبلغ الحلم . وانه لموقف عظيم ومنظر مؤلم .

انها وقفت بين العقيدة والعاطفة، وانه لصراع حاد مؤثر، فانتصرت

العقيدة . وإذا بها تتحفز لشد عضد ولدها ولترافقه الى المعركة جنباً الى جنب لتثير فيه روح الحماس ، وتلهب قلبه بالبطولة . زحفت نحوه ويدها عمود الخيمة وهي كاللبوة الهانئة وتقول :

اني عجوز في النسا ضعيفه خاوية بالية نحيفه
أضربكم بضربة عنيفه دون بني فاطمة الشريفه

وقبل أن تصل الى المعركة وتلتحق بولدها ، استقبلها رأس ولدها
يُشد حرج ، فقد قتلوه ورموا برأسه نحو الحسين ، ففتحت ذراعيها
مرحبة به وحملته والدماء تسيل من منحره ، فمسحت الدم

يا لهول المنظر وفداحة الوقع ! فأسرع اليها الحسين وردّها الى
الحميم تاركة رأس ابنها بين أعدائه يتحكمون فيه لأنها رمت فيه رجلاً
منهم فأصابته .

* * *

أما بقية النساء فكانن على وجل ، وما من واحدة منهن إلا ونظرت
بعينيهما مصرع من تشكل به من زوج عطوف أو أب رءوف أو ولد بار
أو ذي رحم ماسة .

وربما تضاعفت المصائب ، وتتابع الأحزان بتعدد مصارع الأحبة
فصب أعينهن ، ولكن الصبر والسلوان كان أقوى من العطف والحنان .

ولما برز عبد الله بن عمير الكلبي وقتل يساراً مولى زياد وسالماً مولى
عبيد الله ، وهما من شجعان الكوفة كان يرتجز ويقول :

إن تنكروني فانا ابن الكلب حسبي بيتي في عليم حسبي
اني امرء ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند الحرب
اني زعيم لك أم وهب بالطنن فيهم مقدماً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب^(١)

وأم وهب هي زوجته ، برزت لساحة الحرب تشجع زوجها
وتنادي : قاتل ، فذاك أبي وأمي ، دون الطيبين ذرية محمد .

وأخذت بيدها عموداً من خيمة ، وهي كلبوة الأسد تهدر بصوتها ،
وانها على وعي في اداء رسالة زوجها وجهاده في نصرة الحق والدفاع عن
حماته .

وهنا يحاول زوجها أن يرجعها لتعود نحو النساء ، فأخذت تجاذبه
ثوبه ثم قالت له :

لن أدعك دون أن أموت معك^(٢) .

ولم يتمكن من إرجاعها لأن يده اليمنى جمد عليها الدم ، فلزمت
بالسيف ، ويساره مقطوعة أصابعها ، فلم يستطع ردها ، فاستنجد

(١) المحاسني شعر الحرب في ادب العرب .

(٢) المصدر السابق .

بالحسين فجاء اليها وقال : جزيتم من أهل بيت خيراً فإنه ليس على النساء قتال^(١) .

ولما قتل زوجها وقفت عليه تؤبنه عن عقيدة صادقة وتقول : أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك .

فعظم ذلك على شمر بن ذي الجوشن ، فأمر غلامه رسم أن يقتلها ، فضربها بالسيف حتى ماتت .

وهكذا يؤدي أولئك الأبطال واجبهم بصمود أمام التيارات الملحدة دفاعاً عن الإسلام ، وقد انخرست عن نفوسهم كل عوامل حب البقاء ، وترفعوا عن الانحطاط في مهلوي هلكة الاندفاع وراء تيارات شهوات النفس ، فنالوا رضا الله ، فهم أولياؤه وأحباؤه ، وبقيت صفحة سيرتهم بيضاء ناصعة ، لا يدنو اليها الدنس ، فكانوا مضرب المثل في الشجاعة والإقدام وصدق النية .

ووقف عليهم الحسين وهم صرعى في ميادين الجهاد ، وقام يناديهم واحداً بعد واحد إعلاء لشأنهم ، واعتزازاً بمواقفهم يؤبّنهم بكلماته الخالدة التي مرت مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال ، وهي تعطي صورة واقعية عن تلك الصفوة التي لازمتها في جميع مراحل النهضة الراهنة ، وقد خيروهم بين الحياة والموت ، فكان اصرارهم على اختيار الموت مع

(١) ابصار العين ١٠٦ وابن كثير ٨/ ١٨٦ .

الحسين على رغد الحياة ، أعظم مثل للمخلصين من رجال الدعوة الى الله ،
ورجال الاصلاح في الامة .

* * *

لقد خطبهم الحسين عدة مرات وهو يفتح أمامهم أبواب الحياة ،
وفسحة الأجل وقال :

«أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون ، وأن الدنيا قد تغيرت
وتنكرت ، وأدبر معروفها ، ولم يبق منها إلا صباة كصباة الإثاء ،
وخسيس عيش كالرعى الوبيل ، ألا ترون الى الحق لا يعمل به ، والى
الباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً ، فاني لا أرى
الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برماً».

وهنا يتقدم أولئك الأبطال ليعربوا للحسين عما صمموا عليه من
التضحية معه ، والفداء دونه ، فقال زهير بن القين :

سممنا يا ابن رسول الله مقاتلك ، ولو كانت
الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلصين ، لآثرنا
النهوض معك ، على الإقامة فيها .

وقال برير بن خضير :

يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا ، ان
نقاتل بين يديك ، تقطع فيك اعضاؤنا ، ثم
يكون جددك شفيحاً لنا يوم القيمة .

وقال نافع بن هلال :

سر بنا راشداً معافى مشرقاً ان شئت أو ،
مغرباً ، فوالله ما اشفقنا من قدر الله ، ولا
كرهنا لقاء ربنا ، وانا على نيابتنا وبصائرنا ،
نوالي من والاك ونعادي من عاداك (١) .

هكذا جسد هؤلاء القادة صدق العزيمة ، واخلاص النية في الجهاد ،
بهذا السلوك الذي يصور للانسان أجلى صورة ، عن اختيار الموت حفظاً
على الكرامة ، ونبذ الحياة وان كانت دائمة ، وكلما اشتد الموقف ،
وتضاعفت مشاكله ، زادهم إيماناً وهم يستبشرون .

* * *

انهم قابلوا فئة استولى الشيطان على قلوبهم ، وملك مشاعرهم ،
فاندفعوا مع التيارات المنحرفة ، فكانوا يسرون على غير هدى ، معصية
عيونهم فهم لا يعتدون .

ولقد عظم على الحسين ما حل بهم من بلاء ، وحاول أن يرفع عن
العيون ما يحجب عنها النور ، ويزيل ظلمة الخداع والتضليل ، ولكن
لم يجد نفعا إلا مع قليل بدأ رد الفعل يعمل في نفوسهم ، فتيقظت
ضمائرهم ، وارتفعوا عن ذلك المستوى المنحط ، وفتحوا عيونهم على

(١) المصدر السابق .

مساوى، ذلك السلوك ، الذي ساقهم إليه استسلامهم للدعايات المضللة ، فتحولوا عما كانوا عليه :

فمنهم من التحق به بعد أن أدركته الهداية قبل نشوب القتال ، وأدى ما عليه ومضى شهيداً مع تلك الصفوة التي رافقت الحسين .

ومنهم من التحق به بعد أن وقعت الحرب ، وهناك رفع الغشاوة عن عينيه ، فسلك طريق النجاة ، إذ وجدوا أنفسهم أمام الواقع وجهاً لوجه ، واتضحت الحقيقة أمام أعينهم ، فلا يمكنهم إلا التسليم أمام الواقع ، والاعتراف بالحقيقة .

* * *

ان ذلك الانحراف الذي تمثل في جيش الكوفة فسيطر على الأكثرية منهم حتى أصبح من المستحيل رفع تلك الغشاوة فيتحرروا مما سيطر على شعورهم ، ووجدانهم ، ليبعث على الدهشة والاستغراب ، من تحكم تلك السيطرة بمؤثرات لم يتمكنوا من الانفصال عنها ، وتحرير أنفسهم منها ، وقد تجلت الحقيقة ، وبدا الواقع للعيان ، مما لا يمكن التغاضي عنه ، بما أظهره الحسين في معالجته للمشكلة .

وإذا كان هناك نوع من التفكير فلا بد أن يحسبوا لما يعود عليهم بأسوأ النتائج ، ولأن كانت الدعايات النشطة أو السياسة تحول المجرى الى ما ترتأيه ، فلا بد هناك من مراعاة الموازين ، التي تسند ذاك التحول وإن كان عكس ما يقتضيه الواقع .

وهنا في ساحة معركة الطف عندما تقدم الرجال منهم للموت ، فهل حسبوا لهذه التضحية من حساب ، وكيف استطاع شيطان السياسة أن يبرز تلك الأعمال الإجرامية في إطار الدين ؟

وكيف استطاع التضليل أن يصل بالعقول الى حد غير معقول ، عندما أوجد من يزيد حاكماً شرعياً ، وخليفة مسلماً ، يوجب الشرع طاعته ، وأن حرب الحسين كان من الفروض الدينية .

ولنضع صورة من ذلك لنرى كيف أثر الضلال اثره في أدمغة اولئك القوم الذين حملوا راية الضلال وهم يظنون انهم على الحق .

فهذا أحد قواد المعركة يتقدم لأصحابه ويدنو من أصحاب الحسين وهو ينادي : يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم ، وجماعتكم ولا تقاتلوا في قتل من مرد عن الدين ، وخالف الامام .

فقال له الحسين (ع) : يا عمر بن الحجاج اعليّ تحرض الناس ، نحن مرقنا ، وانتم تبتم !! اما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم ومتم على اعمالكم اينما مرق من الدين ومن اولى بصلى النار^(١) .

وتقدم رجل الى الحسين فقال : يا حسين يا حسين ، فسكت ، فأعادها ثالثة ، فقال الحسين : قولوا له نعم . فما حاجتك ؟

(١) الطبري ٦/ ٢٤٩ .

فقال : يا حسين ابشر بالنار فقال له الحسين (ع) :
كذبت ألما اقدم على رب غفور مطاع ،
فمن أنت : قال ابن حوزة .
فرفع الحسين يده فقال : اللهم 'حزه إلى
النار :

فغضب ابن حوزة فذهب ليقحم اليه الفرس
فعلقت قدمه بالركاب ، فالتقطت فخذه .
وساقه وقدمه وبقي الجانب الآخر معلقاً
بالركاب .

وهذه الصورة من النعمة العاجلة كانت سبب نجاة بعض الحاضرين
ن الاشتراك في المعركة وانعزال القتال ^(١) .

ولما قتل عمر بن قرصة مع الحسين وكان أخوه مع ابن سعد فنادى :
يا حسين ... أضلت أخي حتى قتلته قال :
ان الله لم يضل أخاك ولكنه هداه واضلك .
قال : قتلني الله ان لم اقتلك أو أموت دونك ،
فحمل عليه فاعترضه نافع بن هلال المرادي
فطمعنه وصرعه فاستنقذه اصحابه فعولج
بعد وبرىء ^(٢) .

ولما طلب أصحاب الحسين إيقاف القتال لكي يؤدوا الصلاة ،
ناداهم الحصين بن تميم : انها لا تقبل منكم .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ٢٤٨ .

فقال له حبيب بن مظاهر : زعمت ان الصلاة لا تقبل من آل رسول
الله وتقبل منك ...

الى غير ذلك من صور الشذوذ في الاعتقاد والانحراف في السلوك ،
وهكذا تمرّ هذه المرحلة بعجائب وغرائب من جميع جهاتها ، وفي كل
أحداثها ومجرى حوادثها ، والقضية لم تكن من الأمور المرتجلة بل هي
ذات تخطيط مسبق وعوامل اتخذ لها ألف حساب .

* * *

ونستطيع أن ندرك مدى التفاضل عن رؤية الواقع ، والتعدي
للعالم الحقيقة ، عندما نجد من أولئك المتمردين من يعيش على مائدة
الاطماع ، ويندفع في تيار الانتهازية .

وأبرز مثال يظهر في شخصية لها أثرها في ذلك المعترك ، وهو
شيث بن ربيعي ، فقد تشاقل عن الخروج لحرب الحسين ، ولكنه
امتلأ أمر ابن زياد ، وتوجه مع جيشه وهو يعرف الحق فقد
صرح بقوله :

لا يمطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ،
ولا يسددم لرشه ، ألا تعجبون أنا قاتلنا
مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده
آل أبي سفيان خمس سنين ، ثم عدونا على
ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل

معارية وابن سمية الزانية ، ضلال ويا لك من
ضلال !! (١)

وكثير أمثال شبت، ولكنه الشخصية التي امتازت بالتحول والتقلب،
فقد كان من أسلم ثم ارتد ، وأصبح مؤذناً لسجاح ثم عاد للإسلام ،
واشترك مع الثائرين على عثمان ، وحضر مع علي في صفين ، ثم شارك
الخوارج في حروبهم ، وكان من كاتب الحسين ، ثم انضم لابن زياد
واشترك في حرب الحسين ، ثم كان مع المختار ، وتحول إلى ابن الزبير
ورافق مصعب ابن الزبير في حربه للمختار (٢) .

ولما قتل مسلم بن عوسجة تنادى أهل الكوفة فرحاً ، قتلنا مسلم بن
عوسجة ، فقال شبت بن ربعي لمن حوله من أصحابه :

تكنكم امهاتكم انما تقتلون انفسكم بأيديكم
وتذللون أنفسكم لغيركم ، تفرحون أن يقتل
مسلم بن عوسجة . !!

أما والذي اسلمت له لرب موقف له رأيت
في المسلمين كريم ، لقد رأيت يوم سلق
آذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن
تلتأم خيول المسلمين ، فيقتل مثله
وتفرحون (٣) . !!٢

(١) تاريخ الامم والملوك ٢٥٠/٦

(٢) التهذيب لابن حجر .

(٣) الطبري ٢٤٨/٦ .

وكثير من أمثال شبت بن ربمي ممن غلب على دينه واستسلم لأطباعه وهواه ، فرضي بالالتحاق بجيش ظلوم يتحرك في طاعة أعداء الله ، وحرباً لأوليائه .

إنهم يقاتلون ، وفي سبيل من يقتلون أنفسهم ، أذفاعةن بلد هاجمه عدو ؟ أم عرض تعرض لهتك ؟ أم مال مهدد بالنهب ؟

لماذا وفي سبيل ماذا ؟؟

إنه في سبيل باطل يرونه رأي العين ، وفي سبيل اسطورة تُسمى خلافة يزيد .

ومن العجب ، كما يحدثنا التاريخ ، أنهم خرجوا لجرميتهم بعد أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح ..!! أصبح أنهم صلوا وقرأوا في آخر صلاتهم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ؟. ، إذن ما بالهم ينفلتون من صلاتهم ليحصلوا بسيوهم آل محمد .^(١)

* * *

وقبل أن نلتقي مع الطالبين في حملتهم الجماعية ، عندما وقع عبء المعركة عليهم ، نود أن نشير إلى الخلاف بين المؤرخين في حصر عدد أصحاب الحسين ، فقد اختلفت أقوالهم لاختلاف الروايات. فمن قائل :

(١) الرسول في كربلا ١٦٠ .

انهم نيفاً وسبعين ، وآخر : انهم أكثر من ثمانين وأقل من المئة ، هذا ما عدا أهل بيته .

والواقع الذي تمليه علينا ظروف الحادث ، وواقع الأمر في مسيرة النهضة ، أن العدد كان أكثر ؛ لأن الحسين قدم من مكة ومعه جمع من الناس يسايرون ركبته ، وفيهم من كانت مرافقته منوطة بنتائج نجاح الدعوة في الكوفة ، وليس في نيته التضحية ، إن اقتضى الأمر ذلك .

ومنهم من هو مصمم على الموت مع الحسين لأنه آمن به إيماناً صادقاً ، فوطن نفسه على التضحية في سبيله .

وقد أجرى (ع) التمهيع في زبالة حين علم بمقتل سفيره مسلم بن عقيل فكشف الأمر ليظهر ما انطوت عليه ضمائر الجميع فقال :

« أما بعد فقد أتنا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة ، وعبدالله بن يقطر ، وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف ليس عليه منا ذمام^(١) .

فتفرق عنه كل من لم يصمم على تحمل الكوارث التي تعترض سبيل الثورة ، وهؤلاء هم غير الذين التحقوا بالحسين ورافقوه حتى آخر لحظة من حياتهم .

وما ورد على لسان بعض الرواة تعقيباً على ما ذكر آنفاً : من كشف الحسين الحالة للناس وجعل الاختيار اليهم في الانصراف وفي البقاء .

(١) الطبري ٢٢٦/٦ .

فقالوا : وتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين جلسوا معه من المدينة .

وهذا خلاف الواقع فان جملة من التحق بالحسين في الطريق أو الذين رافقوه من مكة لم يتفرقوا عنه ، بل واصلوا مسيرتهم وبذلوا نفوسهم حتى آخر قطرة من دماهم امثال : زهير بن القين وعابس بن شبيب وبرير بن خضير الهمداني وغيرهم .

* * *

وعلى أي حال فالمصادر التي تحدثنا لم تكن مجمعة على احصاء واحد فالمسعودي في مروجه وهو أقدم مصدر يقول :

عدل الحسين إلى كربلاء وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل^(١) .

ومصادر أخرى ذكرت أن ستين شيخاً من أهل الكوفة رافقوا ركب الحسين^(٢) ليوصلوه الى الكوفة وبعد أن تبدل الوضع لم ينفصل منهم احد بل قتلوا كلهم معه .

وهناك جماعة التحقوا به أثناء المعركة بعد أن التحق الحر هو وأخوه ، وولده ، ومولاه وكان عدد هؤلاء يربو على الثلاثين .

(١) ٧٠/٣ .

(٢) ابن عساكر في تاريخه الكبير خط .

كما ان جماعة تسللوا من عسكر ابن سعد والتحقوا بالحسين ، ومنهم
ابو الشعثاء وجماعة آخريين ، وقد أحصى العلامة السيد الامين عدد من عرف
من اصحاب الحسين (ع) بـ (١١٤) .

والعلامة المعاصر السيد ابراهيم الزنجاني ذكر منهم عدداً يربو على
ثلثائة بتراجهم وعشائرهم^(١) ولعل سرعة اللحاق وحراجة الموقف لم
يسمحا للتعرف على من انكشف له الزيف الديني الذي موه به الامويون
على الناس ، فانثار عندهم الشعور بالاثم مما ارتكبوا في مقابلة أهل البيت ،
فالتحقوا بالحسين ليتداركوا انفسهم من خطر ما ارتكبوه فكان نصيب
اكثرهم أن يهمل اسمه ولم يثبت في سجل تاريخ الشهداء .

ولعل ذلك عن قصد متعمد من قبل السلطة عندما قدمت لهم قوائم
الجيش المفقود لنيل الجائزة أو التعويض عن حياتهم لأهلهم .

وان الموقف مهما رافقه من عوامل التمويه والدجل والخداع ، فانا
لا نظمئن إلى الاقوال التي تجعل ذلك المجتمع خالياً ممن يشعر بالاثم ،
ويتحسس بقبح العمل .

واذا كان المجتمع الكوفي قد خضع لسلطة الارهاب عندما اصبحت
القيادات بيد الذين يعيشون على موائد الدولة ، فهو لا يخلو من عوامل تبعث
بعض الافراد على الشعور بالاثم ، اذ يتقاعدون عن نصره الحسين بعد أن

(١) وسيلة الدارين في انصار الحسين خط .

وعدوه النصره ، وعاهدوه على الثورة كما فعل البعض في الخروج اليه
مكتماً فالتحق قبل بدء القتال .

وعلى أي حال فالموضوع بحاجة إلى بحث شامل موسع يكشف بعض
الحقائق التي نحن بحاجة الى معرفتها .

الطَّالِبُونَ

ووقع عبء المعركة على أهل البيت من أبناء علي ، وجعفر وعقيل .
ودارت رحى الحرب على الصفوة من الطالبيين ، عندما خلى الميدان
من الفتية المجاهدين دونهم ، بعد ذلك الموقف الذي سجلوا فيه دروساً
للأجيال في الولاء لأهل البيت ، والتضحية للحق الذي وجب عليهم
أن ينصروه .

لقد خاض أهل البيت معركة ضارية ، تستمر آثارها بصلابة إيمان ،
ونفاذ بصيرة ، وثبات عزيمة ، ورفعوا شعار الجهاد في سبيل الله ،
والدفاع عن دينه .

إنهم فتية ما على وجه الأرض لهم من مثيل ، في شرف النسب
وطيب المحتد .

استمرت نار الحرب ، وتتابع جيوش ابن زياد وأوامره المشددة
في المبادرة والسرعة ، للقضاء على الحسين وأهل بيته ، إن لم يستسلموا .
فاشتدت المضايقات من الجيش ، وأحاطوا بمعسكر الحسين من كل
جانب ، فهذا يحاول أن ينهب رحله ، وهذا يريد أن يحرق فسطاطه ،
وهو في سبعة عشر من أهل بيته ، فتبادروا للحرب وحملوا حملة
واحدة ، يشد بعضهم إزر بعض ، وهم كالصقور الكواسر ،
والأسود الضارية .

* * *

لقد برز إلى الميدان أبناء علي وهم : عبدالله وجعفر وعثمان ، وقال

لهم أخوهم الأكبر العباس بن علي : تقدموا يا أبناء أُمي .

* * *

لإنهم أشقاء من أم وأب ، أبوهم علي بن أبي طالب ، وأُمهم فاطمة بنت حزام الكلبيّة ، المعروفة بأُم البنين .

وكان أكبرهم سناً وأعلاهم شأنًا هو أبو الفضل العباس ، ولقد كان في يوم الطف مضرب المثل في البطولة والاقدام ، وهو حامل اللواء ، ويقود المعركة في جميع مراحلها ، يراقب حركة الجيش وسير القتال . وقد أمر اخوته أن يتقدموا أمامه فقال : تقدموا يا أبناء أُمي حتى أراكم نصحتكم لله ورسوله ، وأحتسبكم عند الله .

فتقدم أولاد علي في طليعة الصفوة من آل أبي طالب في تلك الحملة . ومن المناسب هنا أن نشير الى ما ذكره الاسفرائيني ، في كتاب نور العين في مشهد الحسين ص ٢٤ :

ان الحسين قام ينادي واغوثاه بك يا الله ، فخرج من الخيمة غلامان احدهما ابن العباس ، والثاني اخوه القاسم ، وحملوا . ويصف حملتهما ويذكر لهما أراجيز ، وأن القاسم قتل ثمانمائة رجلاً ، وأخوه - الذي لم يذكر المؤلف اسمه - قتل مائتين وخمسين ثم قتل .

وهذا أمر ينفرد فيه الاسفرائيني ، إن صحت نسبة الكتاب اليه ؛ لأن هذا الكتاب هو من وضع القصاصين - على ما اعتقد - الذين هاجموا

المجتمع الاسلامي بالباطيل ، وملأوا الأدمغة من الخرافات ، وقد ورد في هذا الكتاب مما يناقض الحقيقة ويشوه وجه حادثة الطف الناصع .

والاسفرائيني وهو من كبار علماء الشافعية ومن المبرزين فنسبة هذا الكتاب اليه غير صحيحة ؛ لأنه يضم وقائع لم تقع ، ويصف حوادث لم تحدث ، وهو من الكتب التي قصد واضعوها أن يحطوا من مقام الحسين ، ويرفعوا مقام معاوية وابنه كما جاء في مقدمته : ان الحسين وأخته زينب تربيا في بيت معاوية ، الى آخر تلك الأساطير ومن الغرابة بمكان أن يعاد طبع هذا الكتاب في بغداد من دون التفتات لما فيه من نقص .

* * *

علي الأكبر

وأول قتيل من الطالبيين هو أبو الحسن علي بن الحسين الأكبر ، ولد في حدود سنة ٣٣ من الهجرة .

أمه ليلى بنت أبي مرة ، ابن عروة بن مسعود الثقفي ، أمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية ، وقد أحاط الغموض في تاريخ وفاتها ، فلم يفصح عن السنة التي توفيت فيها ، فهل كانت قبل واقعة الطف أو بعدها .

وُلِّقَ علي بالأكبر لأنه أكبر أولاد الحسين ، كما نصّ على ذلك أكثر علماء النسب وكتاب السير .

وكان يشبه رسول الله في خلقه، وخلقه ومنطقه ، كما أوضح الحسين ذلك ، عندما برز علي ، رفع يديه إلى السماء ، وقال :

اللهم أشهد عليهم انه برز اليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ، ومنطقاً برسولك ، وكنا اذا اشتقنا الى نبيك نظرنا اليه (١) .

وهذه الكلمات تعبر عن حزن عميق مما حل بالحسين من هذه الكارثة ، كما أنه يريد أن يعري من يدعي الصلة برسول الله بذلك المجتمع ، فان هؤلاء الذين يدعون انهم من أتباع محمد ، كما غرر بهم دعاة السوء ، فها هم اليوم يجتمعون على حرب ابن محمد ، ويشرعون سهامهم وسيوفهم ليقتلوه ، ويتقدم لهم الآن من يشبه رسول الله ، في (١) مقاتل الطالبيين ص ٥٦ .

خُلِّقه وخلقته ، ومنطقه ، كما أن في جمعهم من يعرف ذلك ، وأراد أن يعرِّبهم عن كل ما يدعونه ، وهو على طول خط المعركة ، ومنذ بداية مسيرة النهضة كان شأنه إيضاح الحاس ، لتوجيه ذلك الركب السائر في ظلام الوهم ، والذي حدى فيه غير حاديه .

* * *

تقدم علي الأكبر ، وهو في نضرة شبابه ، وحسن طلعه ،
يمتطي فرساً يدعى ذو الجناح ، وهو يرتجز ويقول :

اذا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي^(١)

فهو عليه السلام في رجزه يعبر بأوضح تعبير عن تقرير مصير معركة الإباء ، فيحدد الموقف ، وأنه لا سبيل إلى ما طلبه القوم منهم ، وما تحككه الظروف القاسية عليهم ، فهم أقوى من ذلك ، وأمنع جانباً من الخضوع ، لما تفرضه عليهم الحوادث ، والظروف وهو بهذا الشعار يقطع على من يحاول أو يأمل في الاستسلام .

ويمضي علي الأكبر في جهاده ، ودفاعه عن كلمة الحق ، بعد أن قتل ابطالهم فبصر به مرة بن منقذ فقال : عليّ آثم العرب إن مرّ بي هذا لأثكلن به أباه ، فر به علي الأكبر ، وهو يشد على

(١) الحافظ النيسابوري الروضة ج ١ ص ١٨٨ .

القوم ، وهم ينهزمون بين يديه ، فاعترضه مرة بن منقذ فطعنه ، وصرع واحتوشه الناس فقطعوه بأسيافهم^(١) .

* * *

ووقف عليه أبوه الحسين بتلك الحالة ، فأبّنه بكلمة ، ذهبت مثلاً لأعظم ما يتصور من عظمة الموقف، وسموّ الهدف، وهي تعبر عن أقصى ما يتصور من تحمل النكبات ، والصبر ، أمام الكوارث ، طلباً لمرضاة الله ، ورغبة لإعلاء الكلمة .

قال الحسين مخاطباً ولده وهو مسجى أمامه ، وقد ألبسته الدماء حلل الفخر :

« لقد هوّن عليّ ما نزل بك يا بني ، أنه بعين الله » .

ثم أمر فتيانه أن يحملوه ، فحمله آل أبي طالب من المعركة ، وهو مقطّع أرباً أرباً .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٣٢ .

آل الحسن

أما آل الحسن عليهم السلام ، فهم الحسن بن الحسن المعروف بالثنى ، والقاسم بن حسن ، وأبو بكر بن الحسن ، وعبد الله ابن الحسن .

وأكبرهم سنًا الحسن المثنى ، حضر واقعة الطف وجاهد جهاد الأبطال ، وسقط جريحاً في المعركة وفيه رمق من الحياة ، فحمى أسماء ابن خارجة من وطىء الخيول لجسده وحمله ، فعالجه وبرئ ، ثم لحق بالمدينة وعاش الى سنة ٩٧ هـ .

وأمة خولة بنت منظور بن سيار بن عقيـل بن هلال بن سمي بن غالب بن فزاره ، ومن هذا كانت القرابة والخولة لأن خولة فزارية ، ولهذا قال عمر بن سعد عندما شفع أسماء بن خارجة للحسن : دعوا لابي حسان ابن اخته .

وتزوج الحسن فاطمة بنت الحسين ، وولدت له ثلاثة أولاد هم : عبدالله بن الحسن ^(١) ، وإبراهيم بن الحسن ، وكلهم أعقبوا ذرية طيبة .

(١) عبدالله فهو المعروف بالمحضر قنله المنصور بالسجن بالهاشميات واعقب ستة اولاد محمد وإبراهيم وموسى الهادي وأدریس وسليمان ويحيى .
ومحمد هو ذو النفس الزكية العلوي الثائر ومن له البيعة في الاطواء وذلك في الاجتماع السري الذي عقده العلويون والمباسبون حول انبثاق الثورة وقد =

القاسم بن الحصن :

هو أكبر أخويه الشهيدين أبو بكر وعبدالله ، وكان الحسين يحبه حباً شديداً .

ولقد حاز فخر البطولة والاقدام ، واصبح مضرب المثل في الشجاعة ، وتقدم للحرب في ذلك اليوم ، وقد وصفه أحد مشاهدي الموقف بقوله :
برز إلينا غلام في يده سيف وعليه قميص وأزار ، وفي رجله نعلان ، فشى يضرب بسيفه ، فانقطع شمع احدى نعليه ، لا أنسى انها كانت اليسرى ، ووقف ليشدها ، فقال عمرو بن مسعدة بن نفيل الأزدي :
والله لأشدن عليه فقلت له : سبحان الله ، وما تريد بذلك ، يكفيك

= بايعه المنصور والسفاح ولكنهم نقضوا بيعته وحارب الدولة العباسية فقتل لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وابراهيم بن عبدالله بن الحسن هو الذي ثار في وجه المنصور وقاد جيشاً لحربه وناصره الفقهاء وكاد المنصور أن يهزم أمامه وقارب ابراهيم الفتح وانتصر عدة مرات على جيش المنصور ولكن عاجله الاجل فقتل فحس بقين من ذي القعدة .

وأما أبو عبد الله موسى المعروف بالجون فانه توجه لمكة بعد قتل أخويه محمد و ابراهيم واختفى هناك الى أن أمنه المهدي ، ولموسى الجون ذوية أصبحوا أمراء مكة المكرمة في القرن الثالث والرابع الهجري .

وأما أبو محمد يحيى بن عبدالله بن الحسن صاحب الديلم مات في حبس الرشيد ببغداد وقالوا انه وجد ببركة عاضاً على حمة وطن ومات جوعاً وقيل أن الرشيد بنى عليه اسطوانة فقتله وقيل انه حبسه في دار السندي بن شاهك في بيت فيه نتن وردم الباب عليه حتى مات .

قتله هؤلاء الذين احتوشوه من كل جانب ، فقال : والله لأشدن عليه ،
فما ولى حتى ضرب رأس الغلام بالسيف ، فوقع لوجهه وصاح : يا عماء ،
قال : فوالله لجلي الحسين عليه كما يجلي الصقر ، ثم شد شدة الليث إذا
غضب ، فضرب عمرواً بالسيف فاتقاه بساعده ، فاطنهما من لدن المرفق ،
ثم تنحى عنه فحملت خيل ابن سعد ليستنقذه من الحسين ، فاستقبلته
بصدورها ، فجالت فوطئته حتى مات .

* * *

أما عبدالله بن الحسن بن علي ، قتل في معركة الطف بدون قتال
لأنه صغير السن ، برز عندما رأى عمه أحاط به القوم ، ووقف الى جنبه
ولم يمتنع عن ذلك ، وقال : والله لا أفارق عمي ، وأهوى بحر بن كعب
الى الحسين بالسيف ، فقال له الغلام : ويلك يا ابن الحبيثة ، أتقتل عمي؟
فضربه بحر بالسيف فاتقاه الغلام بيده ، فاطنهما إلى الجلد ، فاذا هي
معلقة ، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في حجر عمه الحسين عايه السلام .

* * *

أما أبو بكر بن الحسن بن علي فقتل يوم الطف ، قتله عقبة
الغنوي وایاه عنى سليمان بن قتته بقوله :

وعند غني قطرة من دمانا سنجزيهم يوماً بها حيث حلت

تزوج عبدالله الأكبر المكنى بابي بكر بالسيدة آمنة بنت الامام

الحسين عليه السلام الملقبة بسكينة ، لقبها بذلك أمها الرباب ، لما اتصفت به من الهدوء والآداب ، وكانت من المتعبدات وتتصف بالأخلاق الفاضلة ، وكانت تحظى برعاية أبيها الحسين ، لعبادتها ، ونسكها ، وقد خصها بمزيد عناية مما يدل على عظيم منزلتها وعلو شأنها .

شهدت السيدة سكينة واقعة الطف ، وعاشت مع أحداث تلك المأساة ، وتجرعت مرارة آلامها ، بجلالة الايمان ، وثبتت أمام النوائب بقوة العقيدة وسمو المبدأ ، وقد ساهمت في نشر أهداف الثورة .

قتل زوجها عبدالله بن الحسن بين يدي عمه الحسين .

ووقفت السيدة سكينة الى جانب عمتها زينب تشاطرها الأسى ، وتشاركها في الجهاد لنشر الدعوة ^(١) .

(١) موضوع البحث عن حياة سكينة يستلزم البسط والايضاح لما أحيط بتاريخ حياتها من أمور لا ترتبط بواقع الحال لأنها استهدفت لحظة ظالمة ، ومحامل شائن من أعداء آل محمد (ع)، فاهمل المؤرخون الرعميون ذكر كثير من مواقفها المشرفة ، ذات المغزى المشرف .

كما تعتمد من تربطه أواصر النسب بالامويين ، فأورد في سجل التاريخ أموراً مفتعلة ، وأكاذيب منحولة بل هي أساطير سمر في ليالي الشتاء ، وحكايات هي من وحي الخيال والتي صيغت بعبارات جذابة ، شارك فيها كل من يحاول الوقعة بآل الرسول ، وكان أبرزهم في هذه الحملة ، واشجعهم في هذه الجولة ، هو الزبير بن بكار ، أحد أجهزة اعلام الباطل وهو المعروف باختراع القصص ووضع الاحاديث ، ونشر الخرافات .

آل عقيل

وتقدم آل عقيل بعد أن صرع علي الأكبر ، ووقفوا أمام الحسين وقد هاجت أحزانهم ، والتهبت قلوبهم بناره .

وقفوا أمام الحسين يعزّونه ، ويسلمون عليه ، ليتقدموا للقتال مع الفتية من آل أبي طالب ، الذين تقدموا وكل منهم لا يهاب الموت ، ولا يحسب للحياة حساباً ، بثبات قلب ، ورباطة جأش ، وليس في الموقف أمر آخر إلا التضحية ، وتقدم عبدالله بن مسلم وهو يقول :

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وعصبة ماتوا على دين النبي

وتبعه أخوه محمد بن مسلم ، وتقدم أعمامه أولاد عقيل : عبد الرحمن ابن عقيل ، وجعفر بن عقيل ، وعبدالله بن عقيل ، وقتلوا بأجمعهم بين يدي الحسين (ع) .

= ولا يختلف اثنان بأن الزبير بن بكار كان من أشد الناس عداً لاهل البيت . وتناول أبو الفرج الاصفهاني تلك الخرافات فوسع الدائرة ، وتزيد واختلق . وأبو الفرج الاصفهاني هو ذلك الأموي في النسب والنزعة ، وتلقف تلك المفتريات اناس مأجورون ، يعيشون تحت الظلام ، من مستشرقين وتلامذتهم ، فكانت هناك مجموعة مفتريات وأكاذيب حول سيرة هذه السيدة الطاهرة .

وقد تسابق لرد هذه المفتريات جماعة من العلماء الاعلام والفوا كتباً قيمة ومع ذلك فالموضوع بحاجة الى مزيد من التحقيق وتبليط الاضواء لفضح تلك الاكاذيب ومحو تلك المفتريات .

أما محمد بن سعيد الأحول بن عقيل ، فانه قتل بعد أن سقط الحسين .
وكان صغير السن ^(١) .

كما تقدم معهم أولاد عبدالله بن جعفر وهم : عون ومحمد .

* * *

وتكامل الطالبيون في حومة الوغى ، وكل في جهة قد انحاز بجماعة
من المقاتلين يشد عليهم كالليث ، والعسكر يتجمع على كل واحد
منهم .

وكان الحسين ينظر اليهم وهم وسط الجوع ، ويلازمه أخوه أبو الفضل
العباس ، وهو يراقب سير القتال ، ويرعى المقاتلين ، فاذا تجمعت الرجال
على واحد منهم ، وجالت الخيل حوله ، حمل أبو الفضل وفرقهم عنه ،
فهو دائما الى جنب المقاتلين ، يشد عضدهم ويشجعهم لمواصلة الكفاح ،
وإذا اشتدت هجمات القوم على معسكر الحسين ، عاد ليكشفهم
عن الخيم .

* * *

لقد نزل الى الميدان صفوة آل محمد ، وهم سادة الهاشميين ومفخرة
قريش وفرسان العرب ، وكل واحد منهم ، ببسالته وبطولته ، يتحدى
جموع أهل الكوفة ، ويستهن بكثرتهم ، ولا يبالي بوحشتهم ، فخاض

(١) الطبري ٦ / ٢٥٨ .

الطالبون غمرات الحرب ، وثار النقع ، وجالت الخيل ، واستكت
الأسنة ، وارتفعت الأراجيز ، وتتابعت القطعات المتفرقة .

هذه هي المعركة الحاسمة ، التي تدور رحاها في كربلاء بحملة جماعية ،
وقد جالت خيل الأمويين ، واشتركوا في الحرب ، فكانوا يتحسسون
مواقع الفرص ، للقضاء على من ينفرد من تلك الفتية ، فحمل عبدالله بن
قطبة على عون بن عبدالله بن جعفر ، فقتله .

وحمل عامر بن نهشل التميمي على محمد بن عبدالله بن جعفر فقتله .
وشد عثمان بن خالد الجهني بمشاركة بشر بن سوط الهمداني على
عبد الرحمن بن عقيل فقتلاه .

ورمى عبدالله بن عزرة جعفر بن عقيل بسهم فقتله ^(١) .

وشد هاني الحضرمي على عبدالله بن علي بن أبي طالب فقتله ، ثم
شد آخر على جعفر بن علي فقتله وجاء برأسه .

ورمى خولي بن يزيد الأصبحي ، عثمان بن علي بن أبي طالب
بسهم ، ثم شد رجل من بني أبان بن دارم فقتله ، واحتز رأسه ، وجاء به
إلى عمر بن سعد ، فقال : أثبني ، فقال عمر : عليك بأميرك يعني عبيدالله
فسله أن يشبك ^(٢) .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٢) الدينوري الأخبار الطوال ص ٢٣٠ .

وكان ابن زياد في النخيلة يراقب الحركات ، وهو يترأس القيادة العامة .

وانتهت هذه الجولة بعد أن تساقط اولئك الفتية الابرار في حومة الوغى ، وعانقوا الشهادة في سبيل الحق ، وقد افرد الحسين في مركز دفاعه ، ولم يبق معه إلا حامل لوائه ، ومناصره الاول اخوه ابو الفضل العباس (ع) .

* * *

وحين انفرد الحسين تقدم ذلك البطل وهو يرفع شعار حاية الدين وأنه يموت دون مقدساته وها هو يشعر الاعداء برفع شعاره ، عندما قطعت يمينه اذ يقول :

والله ان قطعتموا يميني اني احامي ابدأ عن ديني
وعن امام صادق اليقين

ومن أجل هذا خاطبه الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) بقوله عند زيارته :

لقد انتهكت في قتلك حرمة الاسلام ، فنعم
الصابر المجاهد ، المحامي الناصر والاخ المدافع
عن أخيه المحيى ^{عليه} الطاربه ..

اذ المعلوم ان الشعارات العقائدية ، ترتبط بعظمة المبدأ والعقيدة ، فالاستهانة بالشعار انما هو استهانة بالمبدأ ، وتحدي لقدسيته وعظمته .

وحماية الدين من اعظم شعائره ، فالاستهانة بحياة الدين استهانة بالدين ،
وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب فمن لم يعظم شعائر الله لم يكن له
من التقوى نصيب .

وجاء في زيارته : انك قد مضيت على ما
مضى عليه البديرون والمجاهدون في سبيل الله ،
المناصحون له في جهاد أعدائه .
أشهد لقد مضيت على بصيرة من امرك ،
مقتدياً بالصالحين ، ومتبعاً للنبي .
وقال الامام الصادق ايضاً : كان عمي العباس
نافذ البصيرة صلب الإيمان .

* * *

وتقدم العباس (ع) للمعركة وهو فارسها الحنك وبطلها المشهور وكان
صوته مجلجلاً وهو يبدر كالأسد وهو حامل لواء معركة الطف الخالدة
واشترك في جميع حملاتها وكان الى جانب الحسين عندما يحمل في
شدة المقابلة وتتابع الهجمات .

وقد أخذ العطش منه ماخذاً وقد جاء في وصفه بأن قلبه كزبر
الحديد من الظماء وتهوت عليه كارثة العطش عندما ينظر الى مجتمع
العائلة فيرى وجوعاً مصفرة وشفاهاً ذابلة واصواتاً قد بحت من البكاء
والظماً فقرّر وهو في آخر مرحلة من مراحل الحياة ان يأتي لهم بالماء
مهما كانت الموانع وشدة الحراسة ولكن النية حالت بينه وبين تلك
الأمنية عندما عاد من المشرفة حمل الجيش عليه وأعطى كل امكانياته

فكانت معركة حامية بينه وهو بمفرده وبين تلك الجموع وانجلت المعركة
وإذا به يتشخط بدم الشهادة مقطوعة يداه بعيداً عن نحيمة قرب نهر
العقلمي حيث قبره الآن فسلام الله عليه ورحمته ^(١) .

وخلت المعركة من أبطالها ، والميدان من أولئك البررة فها هي
جثثهم موزعة ، والحسين ينظر اليهم ، وقد انفرد في ميدان كفاحه
وهو فارس الحلبة ، وبطل النهضة ، وهو طلبة القوم وها هو معهم
بمفرده وجهاً لوجه ، وليس له من يقف الى جنبه فقد ذهب احباؤه
وانصاره واخوته شيوخاً وكهولاً وشباباً .

كما سجلت معركة الطف شهداء لم يكن مثلهم في تاريخ جميع
الحروب ، فكما اشترك الشيوخ من صحابة ، وتابعين ، والشباب من أهل
البيت وغيرهم ، كذلك اشترك الأطفال الصغار فقد سجل لهم التاريخ
أعظم الأثر في تلك الآونة .

فهذا عبدالله بن الحسن عندما نظر الى وحدة عمه تقدم نحوه كما
يصفه أحد مشاهدي المعركة بقوله :

خرج غلام يشتد وكأنه البدر ، وفي أذنيه درتان ^(٢) فاهوى بحر بن
كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام يا ابن الحبيثة أقتل عمي ! ^(٣) .

(١) ولطيف المجال عن الإستمرار بالحديث عن مواقف هذا البطل وما
يلزم من بيان حول شخصيته ومواقفه اقتصرنا على هذا القدر .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٨٦ .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

إذ أهوى عليه بالسيف فرفع الغلام يده فضربه على يده فقطعهما إلى الجلد
فاذا يده معلقة فنادى الغلام يا أبتاه . وفي رواية الطبري يا أمتاه ، فأخذه
الحسين وضمه إلى صدره وقال :

يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك . فان
الله يلحقك بآبائك الصالحين . رسول الله ،
وعلي بن أبي طالب وحمة وجعفر والحسن
ابن علي (١) .

والطفل في حجر عمه مغمى عليه ، وكانت حالة مؤثرة وكارثة لا يتحملها
الا من امتحن الله قلبه للايمان ، وهنا توجه الحسين الى ربه رافعاً يده نحو
السماء قائلاً :

« اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم
بركات الأرض . اللهم فرقمهم تفريقاً واجعلهم
طرائق قديداً ، ولا ترض الولاة عنهم ابداً ،
فانهم دعوة لينصروا ثم عدوا علينا يقاتلون (٢) » .

كما يتقدم اصغر جندي اسلامي ، ليخوض معركة الصراع بين
الاسلام وخصومه ، ويكون موقفه اعظم موقف شهدته الحروب ، وهو
عبد الله الرضيع .

حمله ابوه الحسين عندما اشرف على الموت من العطش ، فتقدم فيه
الى القوم ، وهو مصفر اللون ، من الظما .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) نفس المضمون للقمي ص ١٩١ ، اللهوف والطبري ج ٦ ص ٢٥٦ .

وقال يا قوم ان كنا بزعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيع ، فقد جفت محالب امه .

فلم يجد (ع) استجابة من اولئك الجفأة الذين طبع الشيطان على قلوبهم فانساهم ذكر الله

وقال بعضهم يهمس ويخوف : ان أوامر ابن زياد بمنع الماء عن الكبار دون الصغار ، فهم غير مشمولين .

ورفع الآخر صوته بقوله : ان الحسين قد بلغ الغاية من الظلم والضرورة فان صبرتم عن سقايته سوية اسلم امره اليكم وتنازل لكم .

ودار هذا الحوار والكل بانتظار امر القيادة ، وهناك امر ابن سعد بقطع هذا الحوار ، وقال لحرملة بن كاهل : ارم الطفل واقطع نزاع القوم . فرماه بسهم اصاب نحره فادرخته المنية على صدر ابيه ، فى ساحة المعركة ، فكانت صرخته من حرارة السهم صواعق تنصب على اولئك المجرمين ، ولعنات تلاحقهم على تعاقب الاجيال ومرور السنين ، فلقد سقط هذا الجندي وهو منتصر بنتائج المعركة ، وكانت مأساته أعظم مأساة تقع فى العالم وأقسى عمل يقوم به المجرمون فانا لله وإنا اليه راجعون .

مع الحسين في وحدته:

نحن الآن وسط معركة حامية ، تدور رحاها بين الآف من المقاتلة واخرى على أهبة الاستعداد للحركة ، وبين رجل واحد ولكنه اكثر من العدد ، واكبر من عدتهم وقد احاطوا به كما وصفه عبدالله بن عمار البارقى وهو احد مشاهدي المعركة إذ يقول :

فشد عليه الرجالة عن يمينه وشماله ، فحمل عليهم حتى ابذعروا عنه ، وعليه قميص من خز وهو معتم ، فوالله ما رأيت مكثوراً قط ، قتل ولده واهل بيته ، واصحابه ، أربط جاشاً ، ولا امضى جناناً منه ، ولا اجرأ مقدماً ، والله ما رايت قبله ، ولا بعده مثله ان كانت الرجالة لتكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى اذا شد فيها الذئب^(١) وهو يقول :

اذا الحسين بن علي آليت ألا أثني

ووصفه آخر بقوله : انه كان يقاتل راجلاً . قتال الفارس الشجاع ، يتقي الرمية ويفترض العورة ويشد على الخيل وهو يقول :

أعل قنلي لجمعمون ؟^(٢) .

أما والله لا تقتلون عبداً من عباد الله أسخط

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٠ .

عليكم لقتله مني وأيم الله اني لأرجو أن
يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم منكم من
حيث لا تشعرون ، أما والله لو قتلتموني
لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دمائكم ، ثم لا
يرضى لكم بذلك ، حتى يضاعف لكم العذاب^(١)

هذا وقد اخذ العطش مأخذه ، فاتجه نحو المسناة ، وانكشفوا
منه ، فزل الى المشرعة ، ولكن أعداءه وجدوا الملازمة بين منع
الماء عنه ، وبين امر ابن زياد ، لأنه يرى ، أن منع الماء له أثره في
قصر زمان المعركة ، ولهذا فقد شدد أوامره .

وامثالاً لتلك الأوامر ، فقد تجمعوا بكل حماس وقوة ،
وتنادوا : حولوا بين الحسين وبين الماء^(٢) .

وتقدمت الرماة فرشقوه بالنبال ، فأصابه سهم في عنقه ،
فتفجر دمه من فمه وقد اخترمه سهم ، وهو يحاول أن يأخذ
جرعة من الماء .

ففار الدم ، فتلقاه بيده ، ثم رفعها الى السماء
وهما مملوءتان دماً ، ثم رمى به الى السماء .
وقال : اللهم أحصهم عدداً وأقتلهم بدداً ،
ولا تذر على الأرض منهم أحداً^(٣) .

(١) المصدر السابق

(٢) ابن الوردي في تاريخه ١ - ٢٣

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٨٧ .

وتجمعت قوى الشر وتنادوا بكل ما يملكونه من جرأة وأقدام:
ما تنتظرون بالرجل ؟ وركب الشمر وهو الخصم اللدود ، وما
تخضت المعائب عن مثله ، مع جماعة من يشاركونه في طباعه ،
وقرب من عيال الحسين ، وحال بينه وبينهم ، فلما نظر اليهم
الحسين نادى بضعيف صوته :

ويلكم ان لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون
المعاد فكونوا في أمر دنياكم احراراً ذوي
احساب ، امنعوا رحلي وأهلي من طفاكم
وجهاكم^(١) .

وتراجعوا فيما بينهم وانكشفوا عن الخيم ولكن شمرأ حرضهم
على الاحاطة بالحسين (ع) والحملة عليه من كل جانب .

فقال ابو الجنوب لشمر: وما يمنعك انت من
قتله ؟ فقال شمر : ألي تقول ذلك ؟ فاستبأ
ساعة . فقال ابو الجنوب ، وكان شجاعاً :
لقد هممت ان اخضع هذا السنان بين
عينيك^(٢)

ورجع الحسين لخيمه ليلقي عليهم آخر نظرة في آخر لحظة
من حياته .

ولا تتعرض هنا لما سي ذلك اللقاء الأخير ، وآلام ذلك

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٨ ، وابن كثير ج ٨ ص ١٧٨

(٢) كثير ١٨٧/٨

الاجتماع الذي عبر عن اعظم مايتصوره الانسان ، من عظمة
لتحمل المصائب في جنب الله . لقد كانت عودة الحسين (ع) .
تنذر بنهاية اللقاء ، ودنو الأجل ووقوع الفارقة ، ولم يسمح له
اعدائه باطالة المكث مع اهله ، ولم تدخل الرحمة في قلوبهم ،
فيكفوا عنه ، حتى يوصي اهل بيته ، انهم ضايقوه وقربوا من غيظه ،
وسيوفهم متعطشة لدمه .

وعاد الحسين لميدان جهاده ، في ساحات العز والشرف وتقدم
لاكمال رسالته والقاء حجته .

* * *

عاد الحسين (ع) للمعركة وعادت النساء الى الحسرة واللوعة
الصامتة ، والدموع الخرس ولهن بصيص أمل بعودته مرة اخرى .
وعاد للدفاع عن مبادئه ، بأروع ماعرف البشر من بطولة
 وإقدام ، وأعظم ماعرف التاريخ من صدق في العزيمة ، واستهانة
في الموت ، ولقد كتب بدمه أسمى معاني التضحية ، والتفاني في
سبيل الحق ، وإقامة العدل ، وأوضح لآباة الضيم منهجهم ، ورفع
شعار الدعوة الى الإصلاح والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .
وعندما انفرد وأحاطت به الخيل رفع يديه الى السماء فقال :
اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ،
وانت لي في كل أمر ثقة وعدة . كم من هم يضعف فيه الفؤاد
وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو

انزلته بك ، وشكوته اليك ، ورغبت فيه اليك عن سواك ،
ففرجته وكشفتة وكفيتة ، فانت وليّ كل نعمة وصاحب كل
جسنة ، ومنتهى كل غاية ^(١) .

* * *

ولقد كان يحمل فيهم . وقد تكاملوا ثلاثين ألفاً ، فينهزمون
من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم يعود الى مركزه وهو يقول:
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ^(٢) .

وهذه المرحلة من أخرج المراحل التي تمر بها معركة الطف
فالنهاية أصبحت منوطة بمصرع الحسين .

فاجتمعت القوى على قتله وتحاببت في الفضاء أصواتهم : ماذا
تنتظرون بالرجل ؟ احموا عليه من كل جانب ، وهنا لجهول الخيل
بعد ان توقفت الغالبية عنه إذ كان يتقي بعضهم ببعض ، ويحب
هؤلاء أن يكفهم هؤلاء ، وارتفعت الأصوات ، وعلت الصيحات
بالنداء : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقبلوه ، ثكلتكم امهاتكم
اقتلوه ^(٣) هذا وقد احتوشوه من كل جانب وهو يذب بسيفه
يميناً وشمالاً .

(١) تاريخ ابن عساكر مخطوط ٦٦/١٢

(٢) الاعيان ج ٤ ص ١٣٢ .

(٣) ابن كثير ج ٨ ص ١٨٨ .

مصرع الحسين

وهنا خاتمة مطاف الحرب الطاحنة في أرض كربلاء ونهاية المأساة
الدموية ، بعد أن وقع عليه عبء المعركة وهو بمفرده ، وليس
له من ناصر يقف الى جنبه .

وكان (ع) على حالة ممضة من شدة العطش ، وعناء النكبات التي
شاهدها ، وقد أخذ الإعياء منه مأخذه فجراحاته تشخب دماً .

حدث مسلم بن رباح مولى الحسين (ع) قال :
كنت مع الحسين يوم قتل ، فرمى في وجهه
نشاباً . فقال : يا مسلم أدين يديك من الدم ،
فأدنيتهما فلما امتلأتا ، قال : اسكبه في يدي
فنضح بها الى السماء وقال : اللهم اطلب بدم
ابن بنت نبيك (١) .

ويصفه المشاهدون للمعركة : أن جلده كالقنفذ
من كثرة السهام والنبال ، والدرع بان عليه
بفياناً من الدم ، لكثرة جراحاته التي كانت
تشخب دماً عبيطاً ، وما رفع قدماً عن قدم
إلاّ وامتلاً موضع قدمه دماً .

(١) ابن عساكر التاريخ الكبير مخطوط .

ووقف أمام أعدائه موقف بطولة واقدام برباطة الجاش وقوة العزيمة
في رد هجمات أعدائه ، يجاهد في سبيل الله ويصول صولة الأسد .

* * *

كان يقاتل فارساً فضعف فقاتل راجلاً قتال الفارس الشجاع ، يتقي
الرمية ويفترض العورة ، ويشد على الخيل ، وهو يقول . أهل قتلي
تجتمعون ؟ ثم خاض المعركة راجلاً .

وبعدها ضعف فجثى على ركبتيه وتكاثروا عليه ضرباً بالسيوف ،
وطعنوا بالرمح ، ورمى بالسهم ، ورماه ابو الحتوف في جبهته ، فسالت
دماءه بكثرة حتى أصبح لا يبصر أعدائه ، فرفع ثوبه فرماه حرمله بهم ،
وتكاثروا عليه فطعنه أنس في ترقوته ثم انتزع رمح . وطعنه في بوان
صدره فسقط صريعاً الى الأرض وارتفعت الغبرة بعد أن اشتد الزحام ،
وعلا الضجيج وإذا برأس الحسين بيد قاتله .

ووقع أمر الله ولا راد لأمره وحلت بالمسلمين كارثة كبرى ومصيبة
عظمى فارتعدت الفرائص ، واهتزت الأرض .

قتل الحسين فانا لله وإنا اليه راجعون .

وهناك علت الأصوات ، بالتكبير ، الله أكبر قتل الحسين ، الله
أكبر ، وكان الشمس قد نسفت ، وأغبر الأفق أو نزل بأهل الأرض بلاء

عظيم ، وارتفعت الاصوات المتقطعة من الدهشة والرعب: قتل الحسين ،
قتل الحسين (ع) ^(١) .

* * *

سقط الحسين ويده على قائم سيفه وقتل والحرب دائرة والغبرة قد
غطت مكان الحادث فلما انجلت وإذا بالحسين يتشحط بدم الشهادة . سقط
الحسين (ع) وانتهى كل شيء . وهنا جالت الخيل جولة الظفر الموقت .

تجاوبت الدنيا لهذا الحادث ، واهتز العالم لتلك الداهية وعلت
صرخة الاستنكار ، فهزت عروش الظالمين .

نعم تجاوبت الدنيا لهذه الصرخة ، وإلى الأبد ستبقى صرخة الحق
ويبقى صوت الحسين مدوياً : (ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى
الباطل لا يتناهى عنه ، فليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً لا أرى الموت
إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً) .

لقد نشر الحسين رسالته وأدى مهمته الملقاة على عاتقه وشجب أعمال
الظالمين بدمه فسلام عليه يوم ولد ويوم قتل ويوم يبعث حياً .

بعد مصرع الحسين :

سقط الحسين وقد أظلمت الدنيا وارتجت الأرض باصوات التكبير .
ولا يستطيع القلم وصف ما حلّ بآل رسول الله من هول المصاب
وعظيم الرزء .

(١) تاريخ الاسلام للذهي ج ٢ ص ٣٤٧ والطبري ج ٦ ص ٣٦٠

فزعت الأطفال وذهلت النساء، وعلت الصبيحة فأنالله وإن إليه راجعون
الى ابن يذهب الهارب من الأطفال ، والى أي جهة يتجه ، وهل
هناك من يؤوي أولئك الصغار المذعورين .

وقد حدث التاريخ عن مشاهد الموقف بما لم تشهد الايام مثله ، ولم
يجر على مر الزمن من الفواحش ، كما جرى في ذلك الوقت ، من قساسة
ووحشية. فمن ذلك ما حدث به التاريخ، عن أحد مشاهدي المعركة قال:
لما صرع الحسين (ع) خرج غلام مذعوراً
يلتفت يمينا وشمالاً فسألت عنه فقبل هو محمد
ابن سعيد بن عقيل فشد عليه لقبط بن أبياس
فضربه وقتله (١)

وحدث هاني بن ثابت الحضرمي : قال اني
لواقف عاشر عشرة لما صرع الحسين (ع)
إذ نظرت الى غلام من آل الحسين (ع) عليه
إزار وقبص وفي أذنيه دُرَّتَان ، وبهده عمود
من تلك الأبلية ، وهو مذعور يلتفت يمينا
وشمالاً ، فاقبل رجل يركض حق اذا دُعا
منه ، مال عن فرسه وعلاه بالسيف فقطعه (٢) .
وكان هاني هو القاتل. ولكن لما عيب عليه
كنى عن نفسه (٣)

وأضرمت النيران في الخيم ، ونهبوا ثقل الحسين ، وافزعوا العيال
وتشتت ذلك الشمل .

(١) العيون المبرى ص ١٨٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٨٦

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٥٨ .

وعند الغروب :

وغربت شمس يوم العاشر ، وقد سبق الخبر لابن زياد وهو في النخيلة قبل غروبها ، وجاء البشير بقتل الحسين (ع) فارتحل منها مسرعاً ليحكم أمر الكوفة ، ويتخذ التدابير للمحافظة عليها ، فاصدر أمره الى حراس البلد ، وكان عددهم عشرة آلاف فارس يمنع حمل السلاح على كل أحد ، ونادى مناديه في الكوفة بذلك ، وطلع القمر وأشرق على أرض محربلاء المصبوغة بالدماء . والمعسكر الكوفي يتهاى للرحيل عند الصباح ، والزعماء يستعدون لللقاء ابن زياد ليتقدموا بولائهم له وبات مخيم الحسين (ع) صامتاً كصمت المعركة حوله ، والكآبة قد احاطت بجميع جوانبه ، وهدأت تلك الاصوات التي كانت ترتفع بالمناجاة وخلت امكنة صلاتهم ، وتلك الخدرات تندب قتلها بصمت ووقار ، وتذري الحزن ، بجمرة ، وانفاسها تتردد كالهمس وقلوبهن تخفق كجنح الطائر ،

ووقفت زينب بنت علي (ع) موقف البطولة والثبات ، فكانت ترعى العائلة ، وتحرس الخيم ، وتتفقد الأطفال ، وتجمع شملهم عندما ذعروا من هول الخطب ، ساعة قتل الحسين (ع) وهجوم الخيل فقد وصفهم مشاهدو المعركة : بأنهم ذعروا ولاذوا بالفرار.

وبعد أن أدت واجبها في الرعاية ، خرجت الى المعركة لتصل الى الجسد الطاهر ، الى الضحية الكبرى ، وهي تخطو بالوقار ، وتتعثر بأذيال الأسى ، وقد أرخى الليل سدوله .

ووصلت اليه وهي صامته إلا عن ذكر الله ، وشكره وقد سلمت أمرها اليه تعالى ، وجعلت ما نزل بها ، في جنبه وصبرت على بلائه .

وجاءت نحو مصارع القتلى فنظرت اليهم على ضوء القمر الزاهر ، وقد بلغت الحالة لهول المنظر وعظم المصاب ، الأمر الذي لا يقر معه الصبر ، ويخون عنده الجلد ، ولكنها كانت أقوى من الحوادث ، وأصلب عوداً من أن تلين أمام الكوارث ، فما استولى عليها حنان الأم ، فتميل الى جسد ولدها فتندبه أو تستولي عليها شفقة الرحم فتجلس عندهم تبكي مصارعهم وتندبهم ، إنها احتسبت ذلك في جنب الله وتدرعت بالصبر ، ومرت في طريقها وهي تتعثر بأذيال المأساة ، وعلى ضوء القمر المشرق توجهت الى مصرع أخيها الحسين (ع) ، فأكبت على جسمه الطاهر ، وجلست عنده تنظر اليه بحسرة وتخطبه بعبرة وحرارة

أكبت على جسده الشريف وهي تحاول موضعاً يسمح لها بتقبيله ، لكثرة النبال وجمود الدم على جسده الطاهر . فلم تجد .

* * *

يا لها من وقفة مؤلمة ، ومنظر محزن . جلست زينب وهي الشاكل

المروعة ومدت يديها المرتعشتين من ألم الخطب ، وشدة الوقع ، وبسطتها
تحت جسده ، ورفعت طرفها الى السماء ، ونظرتها نظرة خضوع مزيج
برجاء وقالت بحرقه وحرارة :

اللهم تقبل منا هذا القربان . ولم تطل المكث عنده لأن مسؤوليتها
الكبرى تحتم عليها سرعة الرجوع الى العائلة التي ليس لها كفيل غيرها ،
ولم تستطع البقاء عنده فودعت الجسد الطاهر ، وعادت للمخيم الموحش ،
الذي ترتفع منه أصوات الاطفال وأنين الشواكل .

وقامت في جوف الليل ، تؤدي وردها من صلاة الليل ، ولكن
خانتها قواها ، فقد استولى الضعف على بدنها ، فادتها من جلوس ولم تنم
لها عين فهي تحرس العيال وتتفقد الاطفال ، وتقف الى جنب المريض
تمرضه ، وتجلس مع الشاكلة تسليها وتصبها .

* * *

وبات معسكر ابن سعد تغمره فرحة النصر الموقت ، وهم يسمرون
ابتهاجا بانتهاء المعركة من جانبهم ولم يبق أمامهم إلا عرض الولاء امام
ابن زياد ، لنيل الصلة .

وها هم على ضوء المشاعل يحصون الرؤوس التي قطعوها ، ويميزونها
ليأخذ كل قاتل رأس من قتله ، ووزعت على العشائر ، وفي تلك الليلة
اتجه موكب الرؤوس الى الكوفة يسبق ركب السبايا ، وقد اقتسمت القبائل
تلك الرؤوس فيما بينها وهم يعدّون ذلك فخرا .

اليوم الحادي عشر :

ذهب ليله بما فيه من حوادث وآلام ، وطلع فجره وهو يحمل لآل محمد مآسي لا تقل فظاعة عما ذهب من قبل .

طلع فجر ذلك اليوم ، والجيش الاموي يغط في سبات عميق فقد أنهكه التعب وسلب قراره الخوف ، من العواقب السيئة المرتقبة ، بعد أن وضعت الحرب اوزارها ، ومضى الحسين مجاهداً ، ومات عزيز النفس ولم تلن قناته ، ولم يترك لأعدائه إلا الحسرة والندامة . وكان النصر حليفه .

وأفاق آل الرسول صبيحة ذلك اليوم وفتحوا عيونهم على أخبية استعرت فيها النيران فخلقتها رماداً وقد سلب جميع ما فيها من متاع .

ولم تمض برهة من الوقت حتى عاد اولئك الأشرار إلى نشاطهم في الهجوم على نخيم الحسين ، لادخال الرعب ، ونهب ما بقي في الخيم ، من أثاث ، وجالوا قرب الخيم وأحاطوا بعلي بن الحسين وهو على فراش المرض ، فنادى الشمر : اقتلوه ، ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية : وهم بقتله فاعترضه آخرون ، واختلفوا فيما بينهم وجاء عمر بن سعد فمنعهم من قتله^(١)

وعاد ابن سعد لمقر قيادته لتنفيذ أوامره وليعد العدة للرحيل

(١) ابو الموفق الخوارزمي المكي ج ٢ ص ٣٨

وكان ابن زياد قد أصدر أمره إليه من قبل : إن قتلت حسيناً
فاوطيني الخيل صدره وظهره. وهذه مهمة يقوم بها ابن سعد
ويصعب تنفيذها وعرض الأمر على جماعة فامتنعوا وبعد ذلك استجاب
له عشرة من الفوارس هم .

- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| ١ - أسيد بن مالك | ٢ - هاني بن نبت الحضرمي |
| ٣ - واضح بن ناعم الحضرمي | ٤ - صالح بن وهب الجعفي |
| ٥ - رجاء بن منقذ العبدي | ٦ - سالم بن خيثمة الجعفي |
| ٧ - عمر بن صبيح الصيداوي | ٨ - حكيم بن الطفيل السنبسي |
| ٩ - الأخنس بن قيس بن مرثد | ١٠ - اسحاق بن حويه . |

قال أبو عمر الزاهد: سبرنا أحوال هؤلاء العشرة، فوجدناهم كلهم أولاد
زنا وجرت خيولهم وتقدموا بكل جرأة وصلافة، فدا سوا صدر الحسين
(ع) وظهره^(١) .

من كربلاء الى الكوفة :

وفي آخر اليوم الحادي عشر تاهب الجيش للإرتحال من كربلاء الى الكوفة ، وأصدر ابن سعد أوامره بالارتحال ، واستعد ثقل الحسين على الرحيل من أرض المحنة، ومحل الكربة، وهو ثقل يقف القلم عن وصفه أو إعطاء صورة عن كيفية ارتحاله . فقد تحرك ذلك الركب الحزين ، وقد امتزج حذاء الحداة وأهازيج الرجال بصراخ الاطفال وعويل النساء ، وأنين الجرحى ، فكان يوماً مشهوداً وموقفاً مؤثراً، تجسدت فيه المصائب، وبرزت فيه صور الآلام إذ كانت الركب مثقلاً بالآلام وفجائع المصاب وهو يضم نساء ثواكل وصبية صفاراً قد ربطت بالحبال، ورجال جرحى كالحسن الثنى ، وعقبة بن سميان ، وكان الإمام زين العابدين مريضاً لا يستطيع الركوب فقيده من تحت بطن الناقة .

وهنا هاجت العواطف وارتفعت أصوات الاستغاثة ، من الاطفال بآبائهم ومن النساء بأزواجهن عندما شاهدوا أجسامهم في العراء من دون مواراة ، وقد كستها الدماء حلاًلاً .

وأصبح المكاث عند الرحيل وفي ساعة الوداع كأنه : ماتم حزين . وقد وقفت بنت علي زينب الكبرى تهديء الروعة وتخفف آلام العائلة وتخنو على الأطفال بكل حنان وتمسح دموع اليتامى ، وتخفف

العرق عن تلك الوجوه التي أثرت حرارة الشمس فيها وشفاهم ذابلة ،
وهم خص البطون فلم يتناولوا شيئاً من الطعام .

* * *

وسار ركب الحسين الحزين تاركاً وراءه اجساداً عارية ، قد ضربتها
الدماء الطاهرة وهشمتها حوافر الخيول ، أجساداً لم تجر لهم مراسيم
التشييع ولا واجبات الدفن ، تصهرهم الشمس وتكسوهم الرمال فمدت
زينب بصرها وقالت بعبرة وانكسار : أستودعك الله السميع العليم
يا بن والدي .

فبينما هي في محنتها هذه نظرت الى الامام زين العابدين (ع) وهو
بتلك الحالة من شدة المرض وينظر بعينه الى تلك الأجساد الموزعة ،
والمناظر المحزنة فدنّت منه وقالت :

مالي أراك تجود بنفسك يا ابن أخي فوالله
ان هذا لمهد من الله ، ولقد أخذ ميثاق
اناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم
معروفون في أهل السماء ، انهم يجمعون
هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة
فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً ، لقبر
أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يحكي
رسمه على كرور الليالي والأيام .

وليجنهن ائمة الكفر ، وأشباع الضلال في
محوه فلا يزداد أثره إلا علواً^(١)

ونتخطى هنا مناظر مخزنة ونطوي صحائف حوادث مفجعة ،
ونلتحق بالركب في اتجاهه الى الكوفة ، تحت القوة والسيطرة الغاشمة ،
بين أهازيج الجند ، وصرخة الأطفال ، وبكاء النساء وأنين الجرحى .
اتجه الركب نحو الكوفة المسلمة ، عاصمة الامام عليّ ومصدر
أحكامه ، ومنطلق نهج بلاغته .

* * *

أفاقت الكوفة في صبيحة الحادي عشر من المحرم على أصوات
الجنود ، ونداء الأمير بمنع حمل السلاح ، ومنع التجمع في الأندية
والطرق ، وملئت الشوارع بالجند المسلحين .

كل هذه الاجراءآت استعداداً لوصول الرؤوس ، وركب سبائا أهل
البيت ، وبقيت الكوفة في موجة ارهاب ، وحزن ، عندما انتشر خبر
قتل الحسين وأصبح الناس يتهايمسون : قتل الحسين . قتل الحسين . وماذا
يكون بعد ذلك ؟

ودخلت الكوفة في اليوم الثاني عشر مجموعة من الجند المدججين
بالسلاح يقدمهم قاتل الحسين ، وهو يحمل الرأس ويرتجز مفتخراً .
إملاً ركابي فضة أم ذهباً اني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا

(١) كامل الزيارات ص ٢٦١

وتأتي من بعده مجموعة من الجند تتألف من عشرة فوارس يقدمهم
إسحاق بن حوبه ، وهم يرفعون شعارهم ، ليعرفهم الناس ويقدر الأمير
موقفهم ، وإخلاصهم لأمية . واخترقوا الشوارع يرددون أهازيجهم :

نحن رضنا الصدر بعد الظهر بكل يعبوب شديد الأثر
وهؤلاء هم الذين داسوا ظهر الحسين وصدره كما أمر ابن زياد قائده
عمر بن سعد بذلك .

ثم قدمت الرؤوس بأطراف الرماح تحملها القبائل كل قبيلة تحمل
رأس بطل من أبطال الطف، وهرع الناس لعظيم الخطب، وهول المنظر.
يا لها من حادثة مروعة تحمل بارض البطولات وجمجمة العرب « الكوفة»
ولنقف هنا ملياً ننظر لقبائل الكوفة وهي تعود من أرض المعركة ،
في كربلاء حيث قابلت آل محمد بكل صلافة ، وتحدث أبسط قواعد
المروءة ، وصفات الانسانية .

وتعود القبائل بشكل منظم يسиров في الشوارع وهم يحملون
حصيلة اتعابهم ، ويعودون بسلبهم الذي سلبهم العزة والسلبهم العار .
هذه كندة يتقدمهم قيس بن الأشعث وهم يحملون ثلاثة عشر رأساً
من رؤوس فتيان بني هاشم وسلالة النبوة . وهذه هوازن تتقدم باثني
عشر رأساً من رؤوس شهداء المعركة يتقدمهم شمر بن ذي الجوشن.
وتقدم تميم بسبعة عشر رأساً وتتبعها بنو أسد بستة عشر رأساً ،

وتقدم مذبح بسبعة ، ثم تقدم بقية القبائل بما تبقى من رؤوس تلك الصفوة^(١) .

* * *

الناس في ذهول والنساء في صراخ وعويل ، وازدحت السكك بالجند ، كأنهم ينتظرون أمراً ، ويتوقعون حدوث حادث عظيم . هذا وابن زياد قد جمع العرفاء ورؤساء الأرباع ، وذوي النفوذ من أهل الكوفة ، وملا الطرق بحرس الدولة ، وبقية الجنود الأحمر ، ومن حثالة العرب .

ومرّ موكب الرؤوس بين صيحة النساء ، وأهازيج الجند ، فكان يوماً مشهوداً وازداد التجمع في الشوارع المؤدية لقصر الأمانة ؛ انهم ينتظرون ركب الأسارى ، ركب الحسين المقبل والذي اناخ قريباً من الكوفة حتى يتم تجمع الناس ، أظهاراً لارهابهم وضرباً لحفيظة العرب ونخوتهم ، وضياً لحقوق الرسول وهتكاً لحرمة الاسلام .

وبعد انتظار طويل ظهرت معالم وصول الركب ، وقد ضاقت الشوارع بالجموع ، فهرع الناس لاستقباله ، وكان الركب محاطاً بجند أقوياء ، وجيش يمنع امتزاج الناس بالركب ، ولكن الكثرة الساحقة والعواطف الملتبهة اخترقت ذلك الحصار واستهانت بقوة الجند ، واستقبلت الركب بصراخ وعويل ، وندبة لشهداء الطف .

(١) انظر حديث كربلاء للمقرم ص ٣٦٢ نقلاً عن عمدة القاري في شرح البخاري العيني ج ٧ ص ٦٥٦ والطبري ج ٦ ص ٢٦٩ .

فقال الامام علي بن الحسين (ع) أتنوحون وتبكون فمن ذا الذي قتلنا ١٢
وقد بعثت هذه الكلمة روح الحماس ، وضاعفت الموقف بالحزن .
وهنا تتقد جذوة الحق ، ويرتفع صوت الفضيلة المنتصرة فتظهر
زينب ابنة علي في ميدان الجهاد ، بثبات قلب ورباطة جاش ، فتعلن هنا
أهداف ثورة الحسين ، وترجع الناس ببليغ بيانها الى ايام الامام علي ،
لأنها بيلاغتها كأنما تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين كما وصفها شاهد
الموقف (١) .

* * *

انها لم تقف موقف المرأة التي استولى عليها التأثر والحزن العميق
فيملك مشاعرهما فتكون اسيرة حزن ، وحليفة ذهول ، ورهينة فجعية ،
لعظم المصاب وفداحة الرزء الذي أصابها .
وإذا كان موقف زينب موقف جزع فمن يكفل لهذه العائلة سلامتها ،
ومن يرعى اطفالاً صغاراً لا كافل لهم سواها ، انها ابنة علي قد تخطت
عهود التفجع واجتازت عقبة الأحزان التي تقعد بها عن أداء واجبها ،
فلم يجد الضعف الى عزيمتها سبيلاً ، فقد مثلت دور البطولة في جهادها ،
وثبتت أمام المكاره ثبوت الجبل امام العواصف ، انها تحملت المصائب
والنكبات طلباً لمرضاة الله تعالى وجهاداً في سبيله واعلاء لكلمته .
ولقد خاطبت ذلك الجمع الذي استقبلها بالبكاء والعيول فقالت تؤنهم :
أتبكون وتنتحبون ، اي والله فأبكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً .
فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً ، وأنى
(١) الجاحظ . البيان والتبيين .

ترحضون ، قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ،
ومنار محجتكم ، وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنة ،
الأساء ما تزررون .

فتعسا ونكسا وُبعداً لكم وسحقاً ، فلقد خاب السعي وتبت
الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ورسوله وضربت
عليكم الذلة والمسكنة

ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أي حديد لرسول الله فريتم ؟
وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم ، وأي حرمة له انتهكتم ،
لقد جئتم شيئاً إذاً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر
الجبال هداً .

ولقد أتيتم بها خرقاء . شوها كطلاع الأرض وملأ السماء ، أفعجبت
أن مطرت السماء دماً ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . فلا
يستخفنكم المهمل ، فانه لا يحفز به البدار ، ولا يخاف فوت الثار ، وإن
ربكم بالمرصاد .

* * *

وكان المشهد عظيماً وسبقت أخباره لابن زياد ، وقد اجتمع الناس في
مجلسه وتوافدوا لتنهئته ، ولعظيم الوقع وفداحة المصاب . أصبحت
السيطرة لنساء الكوفة ، اللواتي ملأت الفضاء بالصياح والعويل .
وخرقن ذلك الحصار وأحطن بالركب وأصبح المجال واسعاً أمام أهل
البيت لالقاء الحجج وتوعية الناس ، ولكن ذوي النفوذ بادروا بكل ما
لديهم من قوة لتفرقة الناس والإسراع بالركب فالامير بانتظاره .

في مجلس ابن زياد :

كان مجلسه مكتظاً بوجوه الناس وكبار الدولة ووفود القبائل ورؤساء الأرباع وانهاالت عليه الوفود، وتقدم قواد جيش معركة الطف بولائهم ، وتقربوا اليه بالحديث عن أحداث المعركة ، وما أظهره من بطولة ادعائية ، واخترعوا مواقف بطولية .

وكان ابن زياد قد جمع الناس ليظهر عظمة موقفه ، وقد وضع الرأس بين يديه ، ولعظيم سروره جعل ينكت ثنايا الحسين بمخصرته ، ويقول : لقد كان جيلاً .

وكان المجلس يضم بعض الصحابة والتابعين . منهم أنس بن مالك وهو أحد رواة هذه الحادثة إذ يقول :

لما أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين، جعل ينكت ثناياه ويقول : لقد كان جيلاً .
فقلت والله لأسوئتك اني رأيت رسول الله يلثم حيث تنكت^(١) .

ولما رأى زيد بن أرقم ذلك فقام وسط المجلس ورفع صوته ويبكي : أرفع عن هاتين الشفتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هذين الشفتين يقبلهما ثم بكى فقال له ابن زياد : ابكى الله عينيك والله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

(١) ابن كثير ص ١٩٠ ج ٨ وابن عساكر ج ١٢ ص ٢٤ .

وخرج زيد وهو يقول : يا معشر العرب انتم العبيد بعد اليوم ،
قتلت ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانه فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ،
فرضيتم بالذل ، فبعداً لكم .

وبينما الناس في شغل شاغل لذلك المنظر المؤلم إذ سمعوا جلبة
اصوات حراس ركب الأسارى ، الذي سيقابل ابن زياد ، ودخل مع
ذلك الموكب الامام زين العابدين مثقلاً بالحديد وهو ثقیل الخطى من
شدة المرض وثقل قيوده ينظر الى السماء ولسانه يلهج بذكر الله .

* * *

ارتاع الناس لهذا المنظر وانحازوا جانباً حيث أجلس السبي قريباً
من منصة ابن زياد ، وجلس الامام علي بن الحسين مجهداً يجر أنفاسه .

أما زينب فقد تنكرت ، وجلست بمغزل وحف بها إمامها^(١)
فنظر ابن زياد إليها نظرة تكبر وتجبر وقال :

من هذه الجالسة ؟ فلم تجبه احتقاراً له ،
واستهانة به ، فأعاد السؤال ثانياً فلم تجبه .
وفي الثالثة قالت له احدى اماتها هذه زينب
ابنة فاطمة^(٢)

وهنا يجري في عروقه الدم الجاهلي ، ويأخذه الطيش والغرور
فيقول مخاطباً لها :

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٢ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٣ .

الحمد لله الذي فضحكم واكذب احدوثكم ،
فقالت : زينب الحمد لله الذي اكرمنا بمحمد
وطهرنا تطهيراً انما يفضح الفاسق ويكذب
الفاجر وهو غيرها (١) .

وغاظه هذا الموقف ، إذ نظرت اليه زينب نظرة احتقار وسخرية ،
فتصاغرت نفسه ، ولكنه أراد أن يرفع من كيانه بمقابلة جريئة فقال :
كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك ؟

فقالت : ما رأيت إلا جميلاً . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل
فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر
لمن يكون الفلج يومئذ هبلك (ثكلتك) امك يا ابن مرجانة (٢)

وهي تحببه بشجاعة واتزان ، ثم ترفعت عن مقابلته ، احتقاراً له
واستهانة به . وأراد هنا أن يظهر بمظهر المنتصر وصاحب السلطان
المقتدر ، فراح يتأمل وجوه الأسرى حتى استقرت عيناه على الإمام علي
ابن الحسين الذي استغرب سلامته من سيوف جنده ، لأنه أوعز اليهم
بالإبادة ، فسأله : ما اسمك ؟

فأجابه : أنا علي بن الحسين .

وعجب ابن زياد وأعاد السؤال وقال :

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٢

(٢) الكامل ج ٤ ص ٤٢ .

أَوَلَمْ يَقْتُلِ اللَّهُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ؟

أعرض الإمام عنه محتقراً له ، مترفعاً عن رده ، فأعاد ابن زياد قوله فقال : ما لك لا تتكلم ؟

فقال الإمام : الله يتوفى الأنفس حين موتها .

فاستشاط ابن زياد غيظاً ودارت الأرض فيه عندما سمع الإجابة فقال وهو مرتبك لشدة غيظه : ألك جرأة على جوابي ؟ إذهبوا به فاضربوا عنقه ^(١) .

لقد حاول ابن زياد أن ينفذ إرادته في إبادة أهل البيت ولكن الله حال بينه وبين ما أراد ، فسلم الإمام زين العابدين من تهديده وتوعيده ؛ وبقي علماً للأمة ، ومناراً للدين .

* * *

توقع ابن زياد أن يشفي غليله في هذا المجلس ، ولكن كلمة الحق وقوة الإيمان خيبت أمله ، وخشي سوء العاقبة فأراد أن يصب جام غضبه أمام الناس ، فأمر مناديه بالصلاة جامعة ، فاجتمع الناس من كل مكان ، وازدحموا في المسجد الجامع ، وصعد ابن زياد وهو مملوء غيظاً من قرنه الى قدمه ، فقال : الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل ^(٢)

(١) اعلام الورى ص ٢٥٢ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٦٣ .

وماج المجلس عند سماع هذه الكلمات التي تدل على منتهى الجراءة والتحدى للقيم والموازن العربية ، فجعل ينظر بعضهم بعضاً ويكتمون أنفاسهم ، وطاطاوارؤوسهم . فمن يا ترى يستطيع أن ينكر على ابن زياد ، ومن يتعرض له في مثل هذه الساعة .

ان الامر يحتاج الى توضيحية وإقدام وقوة عربية ، وذلك مربوط بالقيادة ، وأين القادة ؟ وأبطال العرب وفرسان المصر كلهم في السجون والمعتقلات ، والحضور منهم أفراد لا يقدرّون على شيء ، والزعماء الذين حضروا هذا المؤتمر هم قوم باعوا ضمائرهم ، وتجردوا عن دينهم، وتنكروا لعروبتهـم . فمن يا ترى يقوم بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم .

استمر ابن زياد في هجماته ، وهو نشوان بخمرة الظفر ، وقد هيمن بأسلوبه على ذلك الجمع الغفير .

رجل الساعة :

ساج المجلس مرجة حذر ورعب فقد قام رجل الساعة البطل الجريء عبدالله بن عفيف الأزدي ، وأطلقها صرخة حق مدوية ، وقال : كلمة صدق صريحة ونادى بأعلى صوته الجمهوري المنبعث عن قوة إيمان واعتقاد صحيح ، ورفع يده لجهة ابن زياد :

يا ابن مرجانة، انما الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، ومن استعملك وأبوه يا ابن مرجانة؟ أقتلون ابناء النبيين وتكلمون بكلام الصديقين^(١) ويدهش ابن زياد لهذه الصدمة العجيبة والمفاجئة الغريبة . انها لجرأة وإقدام وبسالة ، فوق حد التصور .

* * *

شخصت الأبصار نحو الرجل المتكلم وتطاولت الأعناق لهذا البطل الذي صدع بكلمة الحق ، وأزال حجب التمويه والخذاع الذي استعمله ابن زياد . ان هذا الموقف أعظم على ابن زياد من كل المواقف ، فقد أزيل الستار وظهر لبعض الناس حقيقته . فمن هو هذا ؟ .

ومن يكن والى أي عشيرة ينتمي ؟ واذا به عبدالله بن عفيف الأزدي ، وهو من الشيعة ذهب عينه يوم الجمل وكان من أصحاب علي (ع) فلما كان يوم صفين خرج لحرب معاوية فضرب على رأسه ضربة وأخرى على

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٣

حاجبه فذهبت عينه الأخرى وهو لا يفارق المسجد الأعظم يصلي الى الليل
ثم ينصرف (١) .

لقد كانت مقالة ابن عفيف شرارة حرب وعلامة ثورة فصاح ابن
زياد : من هذا المتكلم !!

فقال : أنا المتكلم يا عدو الله . أتقتل الذرية
الطاهرة ، التي أذهب الله عنهم الرجس كما
جاء في كتابه ، وتزعم انك على دين الاسلام ،
واغوا ، أين أولاد المهاجرين والانصار لينتقموا
من هذا الطاغية ، اللعين ابن اللعين طي لسان
رسول رب العالمين (٢) .

فاستشاط ابن زياد غيظاً وقال : عليّ به ، فتبادر الجلاوزة اليه فنادى
بشعار الأزدي ، وكان شعارهم يا مبرور ، قال عبد الرحمن بن مخنف
الأزدي ويح نفسك اهلكتها واهلكت قومك ، وكان حاضر الكوفة
يومئذ من الأزدي سبعمائة مقاتل فوثبت اليه فتية ، منهم فانتزعوه بالقوة ،
وانطلقوا به الى منزله .

ووقع ابن زياد في خطر لأن هذه القضية تدل على اندلاع حرب
واتساع شقة الخلاف ، فنزل مغضباً ودخل القصر ، واجتمع بأهل
مشورته ، ومجلس دفاعه ، وتسابق الأشراف والعرفاء اليه فقال :

(١) للطبري ج ٦ ص ٢٦٤ .

(٢) الفتوح ٥ / ٢٣٠ .

أرأيتم ما صنع هؤلاء ؟ أي الأزد .
فقالوا : أصلح الله الأمير ! شُدَّ يدك بساداتهم فهم الذين استنقذوه
من يدك .

فأرسل عبيد الله بن زياد إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ، وإلى
جماعة من أشراف الأزد فحبسهم وقال :

لا خرجتم من يدي أو تأتونني بعبد الله بن عفيف ^(١) .
لقد أصبح حديث عبد الله الأزدي مع ابن زياد تردده أندية الكوفة
ويتحدث به جميع أهلها .

* * *

وأول عمل بدأ به أن أرسل وفداً مؤلفاً من جماعة ، كعمر بن
الحجاج الزبيدي ، ومحمد بن الأشعث ، وشبث بن ربعي ، وآخرين ،
ليأتوه بعبد الله الأزدي ، ويخذلون الأزد عن حمايته ، ويعدوهم بسلامته ،
وأنه لا شيء عليه . وحين علم الأزد بقدوم الوفد اجتمعوا وانضمت
اليهم قبائل من اليمن ، ليمنعوا صاحبهم . ورجع الوفد خائباً .

وهنا يقف ابن زياد على حافة هوة خطر عظيم ، فلجأ إلى استعمال
المادة التي اتخذها الأمويون سلاح دفاع في جميع حروبهم ؛ وهي : فَرْقُ
تَسُدُّ ؛ والآن هو بحاجة لهذه الخطة ؛ فآثار الروح القبيلية بين المضربين
والأزد ، لما بينهم من خلافات ، ومنها كما يقال أن الأزد هم الذين تولوا

(١) الخوارزمي ج ٢ ص ٥٣ .

قتل مسلم بن عقيل ، واشترك منهم العدد الكبير في حرب الحسين ،
وبهذا وجد ابن زياد طريقاً لزج المضرين في حرب الأزدي .

وئارت الحرب بين القبيلتين ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وبلغ ذلك ابن
زياد فأرسل الى قواده يؤنبهم ، فأرسل اليه عمرو بن الحجاج يخبره
باجتماع الأزدي من اليمانيين .

وبعث اليه شيث بن ربعي يقول له : أيها الأمير انك بعثتنا الى
أسود الآجام فلا تعجل .

واشتد القتال بين الأزدي وبين المضرين حتى قتل جماعة من العرب ،
فتفرق الأزدي لما تكاثر جيش ابن زياد ، وبقي ابن عفيف وحده ، فاقتحم
الجيش داره وطوقها .

وصاحت ابنته : يا أبتى أأناك القوم .

فقال : لا عليك . ثاوليني سيفي . فناولته

السيف ، فجعل يذب عن نفسه وهو يقول :

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر عفيف شيعي وأنا ابن عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر^(١)

وكانت بنته تشجعه وتقول : ليتني كنت رجلاً فأقاتل بين يديك .

وضايقه القوم ، وكان يشد عليهم ويذب عن نفسه ويقول :

والله لو يكشف لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري
ووقفت ابنته تسانده وتقول : جاءك القوم من جهة اليمين ، جاءك

(١) الفتوح ٢٣٢/٥ .

القوم من جهة الشمال . وما زال يقاتل حتى تكاثروا فاستولوا عليه ،
وأسروه ، وحاول بعض أفراد عشيرته تخليصه فما استطاعوا ذلك .
وسيق عبد الله الأزدي الى ابن زياد ، فلما أدخل عليه قال ابن زياد :
الحمد لله الذي أخزأك .

فقال ابن عفيف : يا عدو الله بماذا أخزاني ؟
قال ابن زياد : ما تقول في عثمان ؟
فقال : يا ابن مرجانة ما أنت وعثمان أحسن
أم أساء ، أصلح أم أفسد . والله خلقه ويقضي
بينهم بالعدل والحق ، ولكن سلفي هنك وعن
أبيك وعن يزيد وأبيه .
فقال ابن زياد : لا أسألك عن شيء أو
تذوق الموت .

قال ابن عفيف : الحمد لله رب العالمين كنت
أسأل الله أن يرزقني الشهادة قبل أن تملك أمك
مرجانة ، وسألته أن يجعل الشهادة على يد
المن خلق الله وأشرتم وأبغضهم إليه ، ولما
ذهب بصري آيست من الشهادة ، أما الآن
فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرفني
الاستجابة من قديم الزمان .

فقال عبيد الله : اضربوا عنقه ^(١) . ثم صلبه
في السبغة ^(٢) .

وهكذا تكون نهاية هذا البطل الذي أعلن انتصاره للحق ، وقال

(١) الخوارزمي ج ٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سيأتي إن شاء الله بيان ذلك في الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

كلمته . فهو أول من أطلق شرارة الثورة على الأمويين ، وأزال غشاوة الدعاية الكاذبة .

ومن أول يوم أحس ابن زياد بخيبة أمل وعدم النجاح العسكري ، وبدأ الضعف يدب في سلطانه ، بسبب الاستنكار العام ، فقد تلاقى الناس بالاستنكار والندم ، وأحسوا بالإثم الكبير لتركهم نصره الحسين ، وبالأخص أولئك الذين كاتبوه ، وتقاعدوا عنه ، وكانوا يأملون أن يمتد الأمر مدة من الزمن يدركون فيه الحصول على ما طلبوا من مراسلة الحسين ، والكل لا يدري أن ينتهي الأمر بهذه السرعة ويقتل الحسين ويحدث ما يحدث .

فحصل هناك تمرد على السلطة ، ثم كانت مقابلات تحولت بعد مدة الى ثورات مسلحة ، وشعارها (يا لثارات الحسين)^(١) .

وأياً كانت الأحوال فان ابن زياد سارع في ارسال أهل البيت الى الشام بعد ان سجنهم في دار بعيدة عن أي اتصال بأي أحد .
واراد ان يسلب استقرار تلك العوائل وهم في السجن اذ كتب اليهم كتاباً يقول فيه .

اوصوا واعهدوا فاني انتظر البريد يوم كذا
وكذا وراجع يوم كذا وكذا فاذا سمعتم
التكبير فأيقنوا بالقتل ، وان لم تسمعوا
تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله^(٢) .

وجرت في الكوفة حوادث ، وحدثت هناك أمور بعد قتل الحسين ، وبقاء أهل البيت في الكوفة لا يسع المجال ذكرها هنا .

(١) سيأتي ان شاء الله بيان ذلك في الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) الطبري ٦ / ٢٦٦

مع الركب الى الشام :

اختلفت الأقوال في تحديد اليوم الذي انفصل فيه ركب آل محمد من الكوفة الى الشام ، كما اقتضت سياسة الدولة فأمر يزيد بذلك . كما اختلفت الأقوال في يوم ورودهم الى الكوفة . ومن هذا لا نعلم بالضبط مدة بقائهم في سجن ابن زياد .

وقد ذهب البعض الى القول بانهم لم يمشوا أكثر من أسبوع لان ابن زياد أحس بالفشل في سياسته ، وجابهه مصادمات عنيفة ، كما اشتدت عليه مطالبة القواد في جوائزهم التي وعدهم بها عند قتلهم للحسين . وكانت أموال طائلة تعجز خزينة الكوفة عن تسديدها فقرّر أن يرسل أولئك القوم الى يزيد ، ويقدمهم قاتل الحسين الذي ارتجز أمام ابن زياد بقوله :

املا ركابي فضة أم ذهباً اني قتلته السيد المحجبا
قتلت خير الناس اما واما

كما انه وعد الآخرين الى حين ورود الأموال من خزينة الشام . وعلى أي حال فالركب لم يطل مكثه في الكوفة ؛ لأنها أصبحت غير مستقرة فالنساء العربيات أقن النياحة على الحسين وأنكرن على أزواجهن أفعالهم .

كما تقابلها النياحات على من فقد من جيش الكوفة وهم كثرة . وسار ركب آل محمد وليس فيه من نساء الانصار الذين جاهدوا مع الحسين إذ تشفع كل بعيال من يتصل به . وبقيت عيال الرسول (ص)

وهم يقطعون الفيافي والقفار متجهين الى الشام .
ومن الامور المؤلمة ان الدعاية الاموية اتخذت خطة التمويه على
الناس ، فأشاعوا هناك : أن جماعة من الخوارج خرجوا على الأمير
فقطعوا الطريق وقد انتصر عليهم الأمير يزيد ، فأبادهم وسبى عيالهم ،
وسيقدمون الشام .

فخرجت الجموع من نساء وأطفال ، وقد وصل الركب الحزين
وأوقفوه عند باب الساعات ، وأُقيم في محل أو خربة مدة من الوقت حتى
يتم استعداد البلد لإظهار معالم الفرح وإقامة الزينة .

وازدحم الناس في الطريق ، وهم لا يعرفون عن حالتهم شيئاً إلا انهم
خوارج ، لذلك قابلوهم بهذه الكلمة إذ أثرت الدعاية السياسية .

وأوضح موقف لذلك هو محاورة الرجل الشامي مع الإمام زين
العابدين (ع) عندما دنا الشيخ الشامي فاسمع الإمام كلاماً يدل على جهله .
فقال له الإمام زين العابدين بلطف : يا شيخ هل قرأت القرآن ؟

فقال . ما أنت والقرآن !!؟

فقال الإمام : أسالك هل قرأت هذه الآية (قل لا أسألكم عليه أجراً

إلا المودة في القربى) فمن هم ؟

قال : هم آل محمد .

فقال الإمام (ع) : نحن والله هم .

وهنا يقف الشيخ موقف الحيرة ، ويحدّ النظر في وجه الإمام ويقول :

بالله عليك أنتم هم ؟

قال الإمام : والله نحن هم .

فاخذ الشيخ بالاعتذار من الإمام وأظهر الندم .

في مجلس يزيد:

توجه الـركب نحو مجلس يزيد ، ذلك المجلس الذي ازدان بالأعلام الملونة ، واحتشد بالوفود المهنئة بالظفر ، وقد جلس يزيد والفرح ملاأهابه ، لأنه منتصر كما يزعم، وقد انتهى كل شيء في طريق خلود السلطة وبقائها لآل أبي سفيان ، كما يتصور .

ودخل ركب آل محمد وقد سبقته الرؤوس ، ووضع رأس الحسين بين يديه ، وأقيمت العائلة على درج الجامع حيث يقام السي ، وجعل يزيد ينظر اليهم ، وقد أخذته نشوة الفرح بأخذ الثار ، فأنشأ يقول :

صبرنا وكان الصبر منا عزيمة واسيافنا يقطعن هاما ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما^(١)
واستمر يزيد في كبريائه إذ تصور خطأ بأنه حقق الهدف ، ووقف على قمة النصر ، النهائي ، ولم يبق أمامه أي شيء .

كان المجلس تغمره موجة من التفكير، والموقف يتصف بالغموض والأمر يحتاج الى كشف الواقع وإظهار ما خفي على الناس ، وليس إلا زينب والامام زين العابدين .

وكانت زينب تتوخى الطرف المناسب ، لكسب النصر في خوض المعركة في هذه المرحلة وهي تحقيق أهداف الثورة .

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ١٣٥ .

وهنا يتقدم رجل شامي يطلب من يزيد أمراً وهو يظن انه هين ،
ومطلب سهل ؛ لان يزيد سلطان ، وهؤلاء اسارى يحكم فيهم ما
يشاء فقال :

يا أمير هب لي هذه الجارية تخدمني في بيتي .
وأشار الى احدى البنات الصغار ولا
أستبعد ان يكون هذا الرجل ممن عرف
حقيقة الأمر الذي خفي على اكثر الناس وهو
بهذا الطلب يحمل يزيد في موقف حرج ومازق
ضيق وهو يحاول ان يكون طلبه مفتاحاً
للكلام .

واتجه الناس بكل شعورهم نحو الشامي وهم في انتظار جواب الخليفة
المنتصر والأمير الظافر . وبينما الناس في صمت وكلمهم آذان صاغية لاستماع
جواب الخليفة ، واذا بكلمة الحق تدوي في ذلك المجلس ، وصوت الاسلام
يقرع أسماع الحاضرين .

كذبت والله ولعنت ما ذلك لك ولاله .

وهنا تغمر المجلس موجة من الاستغراب والتعجب ، من هذه البطولة
والاقدام ويتجهون بأبصارهم الى مقام السبايا ، وإذا بها زينب الكبرى ،
بطلة كربلاء ، انها تقف موقف الاعتزاز والكرامة ، رغم كلما قابلها به
يزيد واعوانه من ظلم .

وهنا يغضب يزيد من هذه المفاجأة الغريبة وهذه المقابلة التي حطت

من مقامه ، واستهانت بعظمته فلا بد أن يسترجع ما خسره في هذه اللحظات من كرامته فأجاب بقوله :

كذبت والله ، ان ذلك لي ولو شئت ان افعل لفعلت .

وكان يظن انه انتصر وضرب سلطانه على الموقف ، وإذا به يحابه بالرد الذي جعله في حيرة وارباك ، إذ جابته العقيلة بقولها :

لا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج عن ملتنا ، وتدين بغير ديننا . ويستولي الذهول على يزيد ويموج المجلس فقد بدت في الأفق أنوار الرسالة ، وظهرت معالم النبوة .

وحاول يزيد بكل جهده السيطرة على الموقف ، فتظاهر بالثبات والقوة وقال :

إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك .

فجابتها العقيلة بما ضاعف المشكلة وقالت :

بدين الله ودين أبي اهتديت أنت وأبوك ، إن كنت مسلماً .

فاج المجلس من هذه المقابلة التي أزال غشاوة التمويه ، ورفعت حجاب الدجل .

وفي هذه اللحظات دارت محاورات وأسئلة ، وقام يحيى بن الحكم وهو يقول لروان :

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد وعهترّ بشراً والسبايا عقائل

وفي هذا المجال ألقى الإمام زين العابدين خطبته البليغة ، فعرّف نفسه للحاضرين ، وذكر فيها ما لا يجب يزيد أن يسمعه ، فأراد يزيد أن يغير اتجاه المجلس ، فأظهر تجبره وأعاد الى الأذهان عصر التطاحن بين الجاهلية والإسلام ، فأنشد أبيات ابن الزبيرى :

ليت أشياخي بيذر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلتاه بيذر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل

وراح يردد الأبيات ، ليثير العصبية الجاهلية ، والأحقاد القبلية . وهنا لا بد من رده وإلزامه عند حده ، فقامت زينب ابنة علي فألقت ذلك الخطاب البليغ الذي عبرت فيه عن أعظم موقف بطولي ، أمام حاكم متسلط ، وسلطان جائر ، وهي تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين (ع) فقرعت الاسماع ، وأزالت حجب التمويه ، وفضحت تلك الدعايات المفرضة ، وقلبت صفحة التاريخ ، فارتبك يزيد ، واختل جبل استقامته ، فأخرس الحق منطقته ، فقالت :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين . صدق الله سبحانه حيث يقول : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » ... أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا

أقطار الأرض وآفاق السماء ، فاصبحنا نساق كما تساق الاسارى ، أن بنا
 على الله هواناً ، وبك عليه كرامة ، وأن ذلك لعظم خطرك عنده ،
 فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً ، حين رأيت الدنيا
 لك مستوسقة والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا ، وسلطاننا ، فهلا
 مهلا ، أنسيت قول الله تعالى ، « ولا يحسن الذين كفروا انما غلي لهم
 خير لأنفسهم انما غلي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين » .

أمن العدل يابن الطلقاء ، تخديرك حرائرك واماءك ، وسوقك بنات
 رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهن ، وابديت وجوههن تحذو بهن
 الأعداء من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمعازل ويتصفح
 وجوههن القريب والبعيد ، والدني والشريف ليس معهن من حماتهن
 حمى ، ولا من رجالهن ولي ، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد
 الأزكياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا- أهل
 البيت - من نظر إلينا بالشنف والشنآن والاحن والاضغان ثم تقول غير
 متأثم ولا مستعظم :

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

الى آخر خطبتها إذ تقول : ولأن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك ،
 فاني استصغر قدرك ، واستعظم تقريعك لكن العيون عبرى ،
 والقلوب حرى

ثم قالت : فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا
 تمحو ذكرنا ولا تميت وحيناً انخ .

وهكذا ينتصر الحق على الباطل وهكذا تظهر أهداف الثورة، ويتضح للناس أسرار حمل النساء في هذه المعركة ، التي خاضها الحسين وخطط منهاجها ، وحدد أبعادها ، ودرس عوامل الأثر التي تخلفه عندما تكمل أدوار تنفيذها . ان ابنة علي كانت تحمل عبث رسالة الحسين ومتابعة أهدافه .

انها تقوم اعظم موقف يمثل البطولة الهاشمية ، والنضحية الاسلامية والاستهانة بالموت في سبيل العقيدة والكرامة ، إنها تسير على الخط الذي سار عليه ابو عبدالله من الاستهانة بيزيد وتوعية الناس لمحاربه .

لقد وقفت زينب وهي تنظر الى يزيد نظرة استخفاف واحتقار ، رغم انها اسيرة وتقف وسط مجلس عقد للتهنئة بنصره ، وهو سلطان طائش، مثل بسكر الشباب ونشوة النصر، وهو المتحلل من قيود الآداب ، والخارج على النظم الاجتماعية ، وصرح بكلمة الكفر فيما أنشده من الشعر الذي حاول بانشاده اعادة ذكريات عهود الجاهلية في صراعها مع الاسلام .

لقد احتقرت شخصية يزيد، واستهانت بعظمته التي تظاهر فيها يوم خفت جموع المهثين اليه بقتل الحسين ، وأُحيط قصره بكتائب الحرس ، وزينت أبواب القصر بزينة الفرح وازدحم سواد الناس على بابه يظهر و لا يهم ويرفعون أصواتهم بالتهنئة له والعداء لهؤلاء السبايا الذي لم تكشف الدولة عن قومياتهم ، وأنسابهم والناس لم يعرفوا عنهم إلا

انهم خوارج خرجوا على الأمير ، أو انهم قطاع طريق حسب ما اذاعته أجهزة إعلان الدولة وفي خضم هذه الأوضاع وفي معترك الوقائع ، وحيرة الأفكار رفعت زينب صوتها بدعوة الحق ، لتزيل الغشاوة عن الأبصار ، وتثير العقول ببليغ بيانها عن قوة إيمان وثبات جنان .

وخاطبت يزيد وهو الظالم المتجبر بخطابها الذي ترك يزيد يتضاؤل عن كبريائه وكأنه عبد أساء لسيدته ، وهو يؤنبه على أخطائه فلا يجد جواباً .

وهكذا يهزم يزيد بباطله امام جولة الحق ، ويلجأ الى المكر والخداع والتعمويه على الناس ، فيظهر البراءة والتراجع ، ويلعن عبيد الله ابن زياد ، وانه لم يأمره بذلك .

ويقال انه اعتذر من الإمام زين العابدين وخيره بين الإقامة عنده أو الرجوع الى المدينة فاختار الرجوع .

وتقدم إليه مروان بن الحكم فأشار عليه بإرجاع أهل البيت الى المدينة بسرعة ، لخطر وجودهم في الشام ، فقد أفاقت الامة من رقبتها وعرف الناس الواقع ، وتحذثوا بذلك ولمسوا ما كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الاسارى هم من الخوارج .

وعلى كل حال فلنترك حديث الشام وحوادثه ، وما جرى على أهل البيت فيه ومدة اقامتهم فيه ، ونعود مع ركب آل محمد الذي انفصل عن الشام متجهاً شطر مدينة الرسول .

ولا بد لنا من وقفة على مفترق الطريق بين الحجاز والعراق، لنتساءل:
عن اتجاه الـركب ، فهل استمر في سيره ؟ أم غير اتجاهه الى ناحية
العراق ؟!

فقد وردت العقيلة زينب قالت للامام زين العابدين : يا ابن أخي
قل للدليل فليخرج بنا على أرض كربلاء . فامتثل الدليل أمرها .

وذلك غير بعيد لما تحمله زينب من آلام وآمال، وكانما القدر الحكيم
أراد أن تكون ذكرى الأربعين أو رجوع الاسارى من الشام تستمر على
مرور الزمن ، وتعاقب الأجيال ، دروساً وعبراً ، لعظمة التضحية ،
والتفاني في نصرة الحق ، وكان ورود زينب في ذلك الوقت المحدد هو ما
أرادَه القدر الحكيم لتقف زينب فوق منصة الطف الشاهقة لتلقي العظات
وتذكي جذوة الحماس المتوقدة ، التي اذكاها الحسين في ثورته .^(١)

(١) وبقيت الذكرى على ممر السنين ، وهي ترتفع بسموها على الزمان
والمكان، ولم يعترض سيرها خمول أو إهمال ، وهي لا تزال والى يومنا هذا ،
تزداد وفود المشتركين باقامة الذكرى ، من جميع الاقطار الإسلامية ، ويرتفع
عدد المواكب في كل سنة من جميع محافظات العراق ، وحدثت مسيرات
المشاة على الاقدام بكثرة ومن مسافات بعيدة بشكل يدل على عظمة الهدف،
وسمو المبدأ .

في المدينة المنورة :

عاد ركب الحسين الى المدينة بعد غياب دام أكثر من ثمانية أشهر ،
كلها محن وأحزان متواصلة فصار لدخوله رنة أسمى ولوعة تملأ الأجواء ،
وقد وصل نبأ الفاجعة الى المدينة بوسائل متعددة ، وكان اسرعا بإيصال
الخبر هو رسول ابن زياد الذي أرسله لبشر عمرو بن سعيد الأشدق ، بقتل
الحسين (ع) :

قال عوانة بن الحكم : لما قتل الحسين (ع) وجيء برأسه الى ابن زياد
دعا عبد الملك بن الحارث السلمي وقال :

انطلق حتى تقدم المدينة ، على عمرو بن
سعيد بن العاص فتبشره بقتل الحسين ، لا يسبقك
الخبر ، ولا تعتل ، فإن قامت بك راحلتك ،
وإلا فاشترِ راحلة غيرها .

قال عبد الملك : فقدمت المدينة ، فلقيني
رجل من قريش فقال : ما الخبر ؟

قلت : الخبر عند الأمير - وذهبت مثلاً .
فقال : انا لله وإنا اليه راجعون ؛ قتل
الحسين بن علي .

قال عبد الملك : فدخلت على عمرو بن
سعيد .

قال : ما وراءك ؟

قلت : ما سر الأمير ، قتل الحسين بن
علي .

قال : نادر بقتله . فناديت ، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية بني هاشم في الدور على الحسين ، فقال عمرو بن سعيد وضحك :

عَجَّتْ نساء بني زياد عَجَّةً كعجيج نسوتنا بيوم الأرنب
ثم قال : هذه واعية بواعية عثمان بن عفان . وصعد المنبر فأعلم الناس بقتله .

ولم يفصح التاريخ عما قاله من ألفاظ الشماتة ، وعبارات التهجم المعبرة عن فرحه وحققه ، فقد اسدل الستار على ذلك .

وعلى كل حال فالمدينة عندما وردها نبأ قدوم زين العابدين ، برزت الرجال والنساء والصبيان بصراخ وعويل ، وخرجت نساء بني هاشم ، وأقيمت النياحة العامة ثلاثة أيام بلياليها ونساء بني هاشم وأهل المدينة مجتمعون للعزاء .. كما حدث بذلك الحسن بن الحسن (ع) .

ولم يكن ذلك الاجتماع يقتصر على شعائر الحزن ، ومجالس العزاء ، بل كان مجالس حديث عن تلك الأحداث المروعة ، والفجائع المؤلمة ، التي حلت بأهل البيت .

وكانت الحلقات في تلك الدار الفسيحة الأرجاء تعقد هنا وهناك ، وتجتمع النساء حول واحدة من العلويات فيستمعن لأحاديث الواقعة ، وما شاهده أهل البيت هناك ، فترتفع الصرخة ، ويحمل النساء لأزواجهن تلك الأنباء المحزنة فتبعث روح الحماس ، وتتأجج شعلة الثورة وتتحين فرصة الانفجار .

زَيْنَبُ الْكُبْرَى

في خاتمة المطاف

وفي النهاية تقتصر على مواقف زينب الكبرى ، في خاتمة المطاف ،
وآخر مراحل الجهاد المتواصل في حياتها ، فهي عندما دخلت المدينة ،
واستقبلتها جموع المعزين ، اتجهت الى مسجد النبي (ص) ووقفت على
باب المسجد وقالت :

يا جداه يا رسول الله أنا ناعية اليك ولدك (أخي) الحسين . وهذه
الكلمة هي جذوة حزن تتقد وشرارة حرب على الأمويين . وعندما دخلت
الدار فلم تشغلها ذكريات الماضي ، ولم يغلب عليها الحزن عندما شاهدت
خلو أمكنة أهلها ، ومحاريب العبادة التي كانت ترتفع منها أصوات
المناجاة وهي موحشة .

ومها يكن للذكريات من ألم يحز في النفس ، ويؤثر على الجوارح ربما
يؤول الى الجزع ولكنها عليها السلام تطفئ حرارة وجدها بالتصبر ،
واجراء دمة الحزن التي لا يمكنها حبسها .

أقامت في المدينة تواصل جهادها بعزم وتصميم على أداء رسالتها
وجمع حصيلة الثورة ، ونشر أهدافها ، فكانت تؤلب الناس على الطلب
بثأر الحسين (ع) . وخشي عامل المدينة من وجودها في المدينة ، أن تفجّر
ثورة في المدينة ومكة ؛ لأن ابن الزبير رفع شعار الطلب بثأر الحسين (ع)
وهياج المدينة يدعم ثورته ضد يزيد ، لأن ابن الزبير أعلن خلع يزيد
ودعا الناس الى ذلك .

وكتب عامل المدينة الى يزيد يخبره بالأمر ويحذره من خطر دعوة زينب ، وجاء الأمر من يزيد بلزوم إخراجها ، ولكنها أعلنت أنها لا تخرج حتى يراق دمها .

وقالت : قد علم الله ما صار إلينا ، قتل (يزيد) خيارنا ، وحلنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا ، وإن أهرقت دماؤنا

فقلت لها زينب بنت عقيل : يا بنت العم قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض تنبؤاً منها حيث نشاء ، فطبي نفسي ، وقرتي هينا ، أتريدن بعد هذا هواناً ؟ إرحلي الى بلد آمن . ثم اجتمع اليها نساء بني هاشم وتلففن ممها في الكلام .

وهاجرت زينب هجرتها الثانية ، وهي تشق طريقها بالعزم والتصميم على المضي في جهادها .

وهنا تقف على مفترق الطرق ، فنجد أقوالاً متضاربة حول اتجاه ركب العقيلة الذي ألزم بالخروج من المدينة ، لكن الاختيار ليس بيد السلطة ، ما عدا المنع من الاتجاه الى العراق والرجوع الى المدينة .

فهل وقع الاختيار على الشام أو التوجه الى مصر ؟ وكانت خاتمة المطاف هناك ، وتوفيت بمصر ودفنت في تربتها حيث مشهدها الآن .

أم انها أقامت بدمشق مع زوجها عبد الله بن جعفر في محل إقامته في الراوية لأن له أملاكاً هناك ، فوافتها المنية ، ودفنت في مشهدها المعروف ومزارها المشهور .

أو أنها اختارت الذهاب الى مصر مع بقية أهل البيت كما ورد انها
خرجت الى مصر ومعها فاطمة وسكينة بنات الحسين . وكان خروجها
في سنة ٦١ .

وقد استقبلت استقبالا مهيبا كما حدثت رقية بنت عقبة بن نافع
الفهري قالت :

كنت ممن استقبل زينب بنت علي ، عندما
قدمت مصر فتقدم اليها مسلمة بن مخلد ،
وعبد الله بن الحارث ، وأبو حميرة المزني ،
فمزاهما مسلمة فبكى وبكى الحاضرون
فقالت زيلب : هذا ما وعد الله ورسوله ،
وصدق المرسلون .

وذكر النسابة العبدلي أن دخول السيدة زينب كان أول شعبان سنة
واحد وستين ، وأقامت بمصر وهي شاكية لانحراف صحتها الى سنة ٦٢
وتوفيت يوم الأحد ليلة الاثنين لاربعة عشر يوماً خلت من رجب للسنة
المذكورة ودفنت بمحل سكناها .

* * *

ثم بعد مرور عام على وفاتها وفي نفس اليوم الذي توفيت فيه اجتمع
أهل مصر وفيهم الفقهاء ، والقراء ، وغير ذلك وأقاموا لها موسماً عظيماً
برسم الذكرى على ما جرت به العادة ، ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا
الموسم الى وقتنا هذا من يوم وفاتها الى الآن وإلى ما شاء الله ، وهذا

الموسم هو المعبر عنه بالمولد الزيني ، يبدأ من أول شهر رجب من كل سنة ، وينتهي ليلة النصف منه وهي ليلة الختام ، وتحيا هذه الليالي بتلاوة القرآن الحكيم والأذكار الشرعية ويكون لذلك مهرجان عظيم وتفد الناس من كل فج عميق الى زيارة ضريحها الشريف .

وكذلك تقصدها الناس للزيارة بكثرة لا سيما يوم الاحد وهي عادة قديمة ورثها الخلف عن السلف .

والترم الامراء والقواد قبرها فكان كافور الاخشيدي يتعاهد زيارتها وكذلك أحمد بن طولون ، وكان الظافر الفاطمي يزورها ، وإذا أتى إلى مقامها الشريف يأتي حاسر الرأس ، مترجلا يتصدق عند قبرها ، الخ^(١) .

وبقي القبر يتعاهده الناس بالزيارة والهدايا ، وهو موضع احترام العامة والخاصة .

وقد نظمت الاشعار في تاريخ بنايات قبرها في مصر كما ألف العلماء في ترجمة السيدة زينب رسائل ولعل أقدمها رسالة السيد يحيى بن الحسن - المعروف بالعبدلي بن جعفر الحجة/ ابن الامير عبيد الله الأعرج ، ابن الحسين الأصغر ، ابن علي زين العابدين .

وهو أول من جمع الانساب بين دفتين ، ونشر هذه الرسالة الاستاذ حسن محمد قاسم في ضمن رسالته (السيدة زينب) وقدمها بكلمة .

قال في مقدمة الرسالة ص ٥ - ٦ :

(١) السيدة زينب ٥٨ - ٦٠ للاستاذ حسن محمد قاسم .

فلئن كان في النساء شهيرات فالسيدة زينب أولاهن ، وإذا عُدَّت الفضائل فضيلة فضيلة ، من وفاء وسخاء ، وصدق وصفاء ، وشجاعة وإباء ، وعلم وعبادة ، وعفة وزهادة ، فزينب أقوى مثال للفضيلة بكل مظاهرها .

ان اشتهار فضائل السيدة زينب ، والآثار المروية فيها وعنها في كتب التاريخ ليغني عن التوسع في ترجمتها الشريفة ، وبوجه إجمالي فهي ينبوع فضائل باقية الذكر (ولا عجب) ان عدت المثل الأعلى لرمز الحق ، ومثال الفضيلة ، وشأن الحق أن يستمر ، والفضيلة أن تستمر ، وقد طبع آل علي (ع) على الصدق حتى كأنهم لا يعرفون غيره ، وفطروا على الحق فلا يتخطونه قيد شعرة ، فهم مع الحق والحق معهم يدور حيثما داروا .

ولقد كانت حركة أخيها الحسين المظهر الاسمي للحق ، وكانت هي في هذه النهضة داعية للحق ، هاتفة باسمه ، ونور الحق لا يطفأ وروح الصدق لا تبديد .

ولقد كانت مواقفها بين أمراء الظلم أمثلة الحق والعدل حيثما كانت مواقف الظلمة أمثلة العسف والجور .

فكانت تجيب بكل ثبات وإقدام ، الأمر الذي لم يقم به أحد من البشر ، فإنها في مجلس يزيد ، وقد أُحيط بها وهي في موقف رهيب ، ناداها منادي الحق فهتفت باسمه ، وأجابت تلبية عندما شمع يزيد بعطفه

وارتكس في مهاوي غروره ، وسؤل له شيطانه بأنه المنتصر ، وانه لا شيء يقف أمامه ، ولا أحد يستطيع كشف سوء سريره . ٥١ .^(١)

* * *

أما قبرها في دمشق ومزارها المشهور هناك فعليه المعول وإليه يذهب جماعة من العلماء ، وإليها تشد رحال المسلمين من البلدان النائية . وقد حصل خلاف بين المؤرخين : هل بمصر كما قدمنا أو بدمشق ، وقالوا : إن القبر المنسوب لزينب في دمشق انه قبر زينب الوسطى بنت علي بن أبي طالب ، وهي المكناة بأُم كلثوم .

قاله المروزي في الإشارات ، وابن الجوزي في المزارات الشامية ، والعزير شداد في الأعلاق الخطيرة ، والصيادي في الروضة البهية ، في الكلام على مزارات الجهة الشرقية من دمشق : ومنها قرية يقال لها الراوية ، قبلي دمشق ، فيها قبر السيدة زينب المكناة بأُم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب ... توفيت بغوطة دمشق عقب محنة أخيها الحسين ودفنت في هذه القرية .

(١) وقد ألف العلماء والكتاب في حياة العقيلة زينب كتباً ورسائل كالسخاوي والمؤلف ابن طولون . وللسيوطي رسالة وقد اختصرها في كتابه الحاوي وغيرهم .

ومن المعاصرين الأستاذ السيد عبد العزيز سيد الأهل والأستاذ الخطيب السيد علي بن الحسين الهاشمي ، والأستاذ حسين الأديب وغيرهم . وان تاريخ حياتها حافل بالمعظات والعبر .

وهذا لا يمنع من نسبة القبر المشهور لزئنب الكبرى ، إذ في دمشق في الجهة الشرقية يوجد قبر مشيد ، يقصده الناس للزيارة ، وعليه قبة ، وهو منسوب لأم كلثوم ابنة الإمام علي بن أبي طالب ، وتقابلها قبة وفيها ضريح ، وهي ملصقة بقبة السيدة أم كلثوم ، وتنسب القبة والضريح إلى سكينه بنت الحسين (ع) ، وهناك مزارات أخرى لأهل البيت .

ولا يستبعد ذلك فإن يزيد أمر بإخراج أهل البيت من المدينة ، وإخلاء دارهم من الرجال والنساء ، وليس فيها من الرجال إلا الإمام زين العابدين (ع) ، والحسن بن الحسن المثنى ، فخرج الحسن إلى البادية . ويقال انهم سمحوا للإمام بالبقاء ، لانصرافه إلى العبادة .

وهناك من يقول انه خرج إلى البادية مع الأعراب ، والصحيح انه بقي في المدينة ليكون تحت مراقبة الدولة ، لأنه بقية أهل البيت عليهم السلام .

* * *

وهكذا ينتهي ركب آل محمد ، بعد تلك الرحلة الشاقة ذات الفجائع والمآسي ، ولكن حصيلة ذاك الجهاد ، وحصاد ذلك البذر أن أصبحت الثورة شعلة تتأجج ونوراً يزيل الحجب التي ضربها أولئك الدجالون في طريق دعوة الإصلاح .

لقد نجحت الثورة ، وإلى الأبد ستبقى وحليفها النجاح وكان نصيب أولئك الذين تورطوا بانتحال الامرة على المسلمين ، وحاولوا القضاء على دعائه ، وحمله رسالته ، أن تفرق شملهم وخسرت صفقتهم .

وكان جميع الذين اشتركوا في قتل الحسين ، قد نالهم الذل والهوان ،
وماتوا أسوأ ميتة ، فقد قتلوا وديست جيْفهم بالأقدام ، بعد أن شردوا
وأصبحوا مطاردين .

* * *

فابن زياد على قوته وتجبره ، ونفوذ سلطانه أصبح مشرداً ، فهو
عندما عاد الى البصرة ، طلبه أهلها فاستجار بأحد الزعماء واخفاه ، ثم
هرب ليلاً على حمار ، وقلبه يخفق خوفاً من الطلب ، حتى قتله الثوار ،
الذين رفعوا شعار (يا لثارات الحسين) وبقيت جيْفته للكلاب بعد أن
سحقت بالأقدام .

وعمر بن سعد قتل على فراشه . وهكذا فقد شردوا واهينوا ، وهذا ما
وعدهم به الحسين إذ قال :

«إِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يُكْرِمَنِي بِهِ وَأَنْتُمْ»

ولقد لقي جميع من اشترك في قتل الحسين حتفهم على أبشع الصور ،
وأشدها مذلة وهواناً ، وشردوا في البلاد ، وتتبعهم الثوار ، فقتلهم أينما
وجدوا حتى قتلوا منهم في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً ، ولم يفلت من
زعمائهم أحد ، كعمر بن الحجاج ، وشبث بن ربعي ، وشمير بن ذي الجوشن
وغيرهم .

كما ابتلي أكثرهم بعاهاة وأمراض قضت عليهم بعد بلاء شديد
وعذاب أليم .

أما يزيد فعاش تعساً بالآلام وآثامه ، فاستحق لعنة الله وغضب الأمة . وينهض بقية الصحابة من أبناء المهاجرين في وجهه ، فتقع مأساة الحرة ، وفجاعة المدينة ، بيد علوج الشرك من أنصاره وقادته ثم يتبعها بهدم الكعبة ، حتى ذهب الى عذاب الله وغضبه .

* * *

وبقي الحسين خالداً ، والدنيا كلها تلهج بذكره ، والشوار ضد حكام الجور يهتفون باسمه ، والمسلمون يقيمون ذكراه ، ويجددون أيام فاجعته ، منذ يوم قتله حتى يومنا هذا .

وأصبح يومه منار هدى ، وسبيل نجاة ، وثورته دروساً للأجيال ، وعبرة لدعاة الإصلاح ، وجذوة لا تخبو ، ومفخرة لا تذسى ، وتلك الجذوة المباركة لا تخبو .

ويموت يزيد بحسرتة ، ويخلفه ابنه معاوية الثاني ، « ، وهنا يوجه القدر الحكيم أذكي ضرباته ، فيقف ابن يزيد نفسه ، ليحمل شملة الحسين ، ويُزيد الجذوة ضراماً ، حين يجمع الناس ليوم مشهود ، ثم يعلن فيهم ... أن جده وأباه ، اغتصبا الحق من أهله ، وأنه يبرأ الى الله مما جنت أيديهما ... وأنه يبرأ بنفسه وبتقواه من أن يجلس على العرش الملوث بالجريرة .

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه ، ويعتكف
في بيته ، حتى يأتيه الموت ، فيلقى الله تقياً
نقياً سعيداً (١) .

* * *

وبه انقطعت سلسلة خلافة آل أبي سفيان ، وتحول الأمر الى ابن
الحكم . ولقد خابت مساعي معاوية ، وباءت جهوده بالفشل ، إذ حاول
حصار الخلافة في ذريته ، عندما أخذ البيعة لولده يزيد ، كما فشل يزيد في
مسعاه للانتصار على الحسين (ع) وبذل كل إمكانياته ، واستعمل أقصى
قدرته ، واتخذ جميع وسائل الانتصار في صراعه مع الحسين ، ذلك
الصراع الموروث والتخاصم الحاد منذ عهد الجاهلية الأولى ، بين هاشم
وأمية ، ومحمد (ص) وأبي سفيان ، وعلي ومعاوية ، والحسين ويزيد ،
وهو الممثل لنزعات بيته الأموي ، وكانت آمالهم تحوم حوله في القضاء على
خصومهم ، وفي كربلاء كان تقرير المصير ، ونهاية المعركة المستمرة ،
وتصفية الحساب هناك .

وظنَّ يزيد أنه بلغ قمة النصر بقتله الحسين بن علي (ع) ولكنه
أخطأ الهدف ، وانتصرت الثورة التي رفع لواءها الحسين فهدم عرش
الأمويين .

ووقع الأمر الذي لا بد منه ، وصوت زينب تردده أمواج الأثير

(١) خالد محمد خالد : أبناء الرسول في كربلاء ١٩٣ .

وهي تقول: «فَيَكْذِبُكَ وَيَكْذِبُكَ وَسَعَتْ سَعْيُكَ وَتَأْصِبُ جُهِدَكَ ، فَوَاللَّهِ لَا تَمُحُو
ذِكْرَنَا وَلَا تُمِيتْ وَحْيَنَا».

وإلى هنا تنتهي مسيرتنا مع الحسين في نهضته ، ولم تنته رغبتنا من
مواصلة الحديث ، وسنلتقي مع القراء إن شاء الله في الحلقة الثانية
(مع العلوي الثائر) ، وهي دراسة عن ثورات العلويين التي هي امتداد
لثورة الحسين ، وشعلة من تلك الجذوة .

وبالله نستعين وهو وليّ التوفيق.

٢٦٣	آل الحسن : الحسن بن الحسن ، القاسم بن الحسن ، أبو بكر بن الحسن
٢٦٧	آل عقيل : عبدالله بن مسلم ، محمد بن مسلم
٢٧٠	العباس بن علي وشهادته
٢٧٣	أصغر جندي اسلامي في المعركة
٢٧٣	مع الحسين في وحدته
٢٨٢	مصرع الحسين (ع)
٢٨٥	وعند الغروب
٢٨٨	اليوم الحادي عشر
٢٩٠	من كربلاء إلى الكوفة
٢٩٣	القبائل تعود مع الرأس
٢٩٥	عظمة الموقف
٢٩٧	في مجلس ابن زياد
٣٠٢	رجل الساعة عبدالله بن عفيف
٣٠٨	مع الركب إلى الشام
٣١٠	في مجلس يزيد
٣١١	الحق ينتصر
٣١٣	من خطبة زينب
٣١٥	فشل يزيد وخذلانه
٣١٧	عودة الركب ومرورهم في كربلاء
٣١٨	في المدينة المنورة
٣٢١	زينب الكبرى
٣٢٣	موقفها في المدينة
٣٢٤	هجرتها الثانية
٣٢٦	وفاتها
٣٢٧	قبرها
٣٢٨	الفهرس